

مواقع النجوم

ومطالع أهلة الأسرار والعلوم

تأليف

الشيخ الأستاذ الأكبر

محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن عربي

الحاتمي الطائي

المكتبة العصرية

صيدا - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قال الأستاذ محي الدين محمد بن علي بن محمد بن العربي الطائي الحاتمي، ختم اللّه له بالحُسنى ومنَّ اللّه علينا بما به امتنّ عليه آمين.

الحمد للّه الحي القيوم، المُقسم بمواقع النجوم، واهب الحِكَم الربانية أسرار الأرواح في غيابات الجسوم، من الحضرات العلى إلى تحت التخوم، فيّاض النور، الفاضل بين أهل الهمم والرسوم، مؤتي الحكمة من شاءَ من عباده لا بشرط معلوم، ولا بحدٍ مرسوم، بل رزقٌ مقسوم، وخاصّيةٌ يؤتيها من يشاء وهو العلي الحكيم.

والصلاة على الدرة البيضاء، والزبرجدة الخضراء، ذي النور الأبهر، والضياء الأزهر، الإمام الأظهر، صاحب الثوب الأطهر، الأكسير الأكبر، والكبريت الأحمر محمد بن عبد اللّه النبي المصطفى المعصوم، المعطى لواء الخلافة والتقديم، قبل إيجاد الكون والتقسيم، بالمقام العظيم، في حضرة القديم، حتى برز في عالم التخطيط والتجسيم، بأسرار التعذيب والتنعيم، فعاش بموجده العلي العظيم، إلى أجله المسمَّى دون خليل ولا حميم.

ثم كرَّ راجعاً من عالم التركيب والتجسيم، من غير مفارقة إلى موجده الكريم، وترك لواء الإمامة شورى بين أهل الأسرار والتفهيم، فما زال يتلقاه كل ذي حسب إلهيٍّ حميم، من كل ذي شرف إحاطي عميم، حتى ينتهي إلى الختم المعلوم، الجامع بين النبوَّة والولاية المرسوم، الخاتم أيضاً لدورة الفلك الترابي المضاهي ذات الأب المجتبى المرحوم، صلّى اللّه عليه وعليهم وعلى آله أفضل صلاة وسلّم أعمَّ تسليم.

أما بعد: فيا ذا العقل السليم، والمتَّصف بأوصاف الكمال والتتميم، فإني وضعت هذه الرسالة الموسومة بمواقع النجوم، ومطالع أهلة الأسرار

والعلوم، لكل مسترشدٍ فهيم، ومُنبحرٍ عليم، وأصحاب الشرب من العين الصافية، والممزوجة بالكافور والتسنيم، وليس لكل شاربٍ إلاً من شَرِبَ شُرب الهيم، فالنجوم منها للطالب الفهيم، والأهلة للرباني الحكيم، المحقق بأسرار الأخلاق والعلوم.

فأنا أترددُ فيها بين غريم وعديم، قاضياً لهذا بالنجابة والتحليم، وحاكماً على الآخر بالترسيم، ولكل موقع نجم من المراتب طلوع هلال حاتم ومحتوم، وموقع شريفٍ مفهوم، وطلوع لازم محتوم، ووضعتها رجاء أن يقال أن الصدق بالآجال والتعظيم، إلى أوان انفصال الأطيار من أقفاصها واتصالها بروضة المشاهدة ومشافهة التكليم، ووسيلة لحضرة كل إمامٍ عارف، وعلام واقف، ذي مشهد إلهي، وكشفٍ رباني صمداني متحنثٍ، وصديقٍ متحدِث، وسالك لا يملك، وهالك لا يهلك، ومحدث قديم، بالمؤمنين رؤوف رحيم.

كما أطلعتها شمس مشرقة، وأبرزتها روضة مونقة، يسعى لوميض لمعان أنوارها، ويستنشق نفحات أزهارها، من فارقَ أوطانه، وهجرَ إخوانه، ونزحَ عن بلاده، وطلبَ الحق تعالى؛ متجرداً عن عباده فاخترق الأمصار، وركب البحار، ونأتْ به الدار، وابتغى إماماً يُوصله إليه، وحاجباً يدخله عليه، وهيأ ذاته للقبول، وكان بنفسه هو المرسل والرسول، فكان داعيه من قلبه إلى طلب معرفة ربه، فذلك الإبن الطاهر النقي الزاهد، الفاضل السرّي، أبو محمد عبد اللّه بدر بن عبد اللّه الحبشي الحرّاني التميمي على المنهج القويم:

لما وقف وفقه اللّه وسدّده توفيق الصدّيقين، موقف تعليم، وسألني إيضاح طريق من أتى اللّه بقلب سليم، منح اللّه لكل منا سرائر الكيان بفضله العظيم، وها نحن نشرع في الغرض المقصود إن شاء اللّهِ تعالى، بعد باب تقدمه في سبب هذا التأليف وبرنامجه، وعلى اللّه الهداية إلى الصراط المستقيم.

باب في السبب
في تأليف هذا الكتاب وبرنامجه

لما شاء الحقُّ سبحانه وتعالى أن يبرز هذا الكتاب الكريم إلى الوجود، ويتحف خلقَه بما اختاره لهم من لطائفه وبركاته في خزائن جوده، على يدي من يشاء من عبيده، حرَّك خاطري إنضاء المطيّة من المرسية إلى المربية، فامتطيت الرحال وأخذت في الترحال، مرافقاً أطهر عصبة وأكرم فتية سنة خمس وتسعين وخمسمائة.

فلما وصلتها لأقضي أموراً أملتَها، تلقَّاني شهر رمضان المعظَّم بهلاله، وصافحني على مسامرته بها إلى أوان انفصاله، فألقيت بها عصا التسيار، وأخذت في الذكر والإستغفار، وكان لي أكرم جليس وأحسن أنيس، فبينما أنا أتبتل وأتخضع وأخشع في بيوت أذن اللّٰه أن ترفع وقد أقمر هلاله، وفاز بما مضى من أيامه ولياليه رجاله، إذ أرسل إلي سبحانه رسول إلهامه مؤدياً، ثم أردفه بما أوحى به للابن التقيّ في منامه فوافق المنام الإلهام، ونظم عقد الحكم في هذا الكتاب أبدع نظام.

وعلمت عند ذلك أني كما ذكرته من شاء من عباده في إبراز هذا الكتاب وإيجاده، وأني الخازن على هذا العلم والمتحكِّم في هذه المراسم، فنفث في روعي روحه القدسي، وطلع بأفق سماء همتي بدره البديع، فانبعث الروح العقلي لتصنيفه، وتوفَّرت دواعيه لتأليفه، ونظر الروح الفكري في تكييفه الرفيع، وحسن نظمه البديع، فرتَّبته ثلاث مراتب، وسلكت فيه أنجح المذاهب.

المرتبة الأولى: في العناية: وهي التوفيق.

المرتبة الثانية: في الهداية: وهي علم التحقيق.

المرتبة الثالثة: في الولاية: وهي العمل الموصل إلى مقام الصدِّيق، وهو الذي يرفع الكلم الطيب إلى المستوى الأعلى، ولا يوجد أن يساعد التوفيق بسلمه الأسنى، المزلف عنده في الآخرة والأولى، وجعلت هذه المراتب تجري على تسعة أفلاك من تدوير مركز الإهلاك، إلى مستوى الأملاك، منها ثلاثة أفلاك إسلامية، أولها ورابعها وسابعها. وثلاثة أفلاك إيمانية، ثانيها وخامسها وثامنها. وثلاثة أفلاك إحسانية، ثالثها وسادسها وتاسعها فالثلاثة الإسلامية مواقع نجوم البدايات وما بقي فمطالع أهلّة النهايات.

فالإسلامية جسمانية، والإيمانية نفسانية، والإحسانية روحانية، وجعلت بعد كل فلك إحساني معقله الذي يتعشقه ويسكن إليه، وجعلت الهلال الأول في كل مرتبة هلال محاق، والهلال الثاني هلال ارتقاب في جميع الآفاق، ولوجود هذين المقامين جعلت في كل مرتبة هلالين، وجعلت الفلك الخامس مشرقاً لثمانية أنوار، وجعلت هذه الأنوار تسبح في ثمانية أفلاك حسية وغيبية، تدور في الموقع الإسلامي من المرتبة الثالثة، ثم ختمت الكتاب بفصل شريف، فيه مواقع نجوم ومطالع أهلّة، توضح مغلقات وترتب أدلّة، وعزمت على أن لا أدع فيه لغيري نثراً ولا نظماً ولا أجعل لسواي عليه قضاء ولا حكماً فأنا في هذا المجموع وغيره، أتلقى من الملك ما يرد به على الملك.

قال العبد ولما انتهى الكتاب وترتيب الأبواب علوت أعواد التشريف ووجهت الإبن الأنجب المبارك الأزكى بدر الدين بالتعريف إلى أهل التبحّر في المعارف والتوفيق وقمت في الملأين منشداً شعراً:

نــــحـــن ســـر الأزلـــــي	بـــالـــوجـــود الأبـــــدي
واعــتــلــيــنــا واســتــويــنــا	بــالــمــقــام الــقــدســي
ووهــبــنــا مــا وهــبــنــا	ســر بــدر الــحــبــشــي
وبــعــثــنــاه رســولاً	لــلــرئــيــس الــنــدســي
بــكــتــاب رَقــمَــتْــه	كــف ذات الــحــكــمــي
بــعــلــوم وســمــتــهــا	مــوقــع الــنــجــوم الــعــلــي

ومـطـالـيـع هـلالـ يـن بـأفـق قـطـبـي
حـرض الـنـاس عـلـى نـيـل الـوجـود الـعـمـلـي
ونـهـايـات الـتـلـقـي بـالـمـقـام الـخُـلـقـي
ومـشـت أسـمـاء ذاتـي فـي وضـيـع وعـلـي
والـذي آمـن مـنـهـم لـم يـزل حـيـاً بـحـي
والـذي أعـرض مـنـهـم لـم يـفـز مـنـهـا بـشـي

فهرست الكتاب

المرتبة الأولى: في توفيق العناية. . الموقع الأول التوفيقي: ترجمته نجم العناية؛ وقَعَ بقلب الإمام المدبر في عالم الشهادة فغطى، وهو الفلك الأول الإسلامي. . المطلع الأول الوفاقي ترجمته هلال مُحاق طلع بنفس الإمام المدبر في علم الجبروت والملكوت فسطا، وهو الفلك الثاني الإيماني. . المطلع الأول الإلهي: ترجمته هلال ارتقاب، طلع بروج القطب في برزخ الرحموت والرهبوت فمنع وأعطى؛ وهو الفلك الثالث الإحساني يتلوه معقل أنسه.

المرتبة الثانية: في علم الهداية. الموقع الثاني العلمي: ترجمته نجم هداية؛ وقع بقلب الإمام المدبر عالم الشهادة، فاهتدى وهو الفلك الرابع الإسلامي. . المطلع الثاني العياني: ترجمته هلال محاق؛ طلع بنفس الإمام المدبر في عالم الجبروت والملكوت فاهتدى، وهو الفلك الخامس الإيماني وهذا الفلك مشرق لثمانية أنوار قدسية، وهي: الشمس والهلال والقمر والبدر، والكوكب الثابت والبرق والنار والسراج. المطلع الآلي والإلهي: ترجمته هلال ارتقى بطلع بروج القطب في برزخ الرحموت والرهبوت فأضلَّ وأهدى، وهو الفلك السادس الإحساني يتلوه معقل أنسه.

المرتبة الثالثة: وهي علم الولاية. الموقع الثالث العلمي ترجمته نجم ولاية؛ وقع بقلب الإمام المدبر في عالم الشهادة فهنا وهو السابع الإسلامي، وفي هذا الموقع أفلاك الأنوار الثمانية التي في مطالع الهلال الإيماني من المرتبة الثالثة، وهي ثمانية أفلاك: فلك السمع وفلك البصر وفلك اللسان

وفلك اليد، وفلك البطن وفلك الفرج وفلك الرجل وفلك القلب.

المطلع الثاني الخلقي ترجمته هلال محاق، طلع بنفس الإمام المدبر في علم الجبروت والملكوت، فهنا وهو الفلك الثامن الإيماني.

المطلع الثالث الآلي والإلهي ترجمته هلال ارتقاب بطلع بروج القطب في برزخ الرحموت والرهبوت فأفقر وأغنى. وهو الفلك التاسع الإحساني يتلوه معقل أنسه، ثم يتلو هذا المعقل الفصل الذي به خاتمة الكتاب.

قال العبد: فهذه فهرست الكتاب مرتبة الأبواب على حسب ما يأتي إن شاء اللّه تعالى. ومن موجد الكون نسأل التأييد والعون ولا حول ولا قوة إلاّ باللّه العلي العظيم، وحسبنا اللّه في كل موطن ونعم الوكيل.

المرتبة الأولى

في توفيق العناية

الفلك الأول الإسلامي نجم عناية وقع في القلب فغطى

بسم اللّه الرحمن الرحيم
وصلّى اللّه على سيّدنا محمد وآله
وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً

يا بدر بادر إلى المنادي كفيت فاشكر ضد الأعادي
قد جاءك النور فاقتبسه ولا تعرج على السوادِ
فمن أتاه القضا رضاء يزهد في الخط بالمدادِ
فقم بوصف الإله وانظر إليه فرداً على انفرادِ
وحصّن السمع إذ تنادى واخلص القول إذ تنادى
والبس لمولاك ثوب فقرٍ كي تحظى بالواهب الجوَّادِ
وقل إذا جئته فقيراً يا سيداً وده اعتمادي
أسقِ شراب الوصال صبا ما زال يشكو صدا البعاد
تاه زماناً بغيرِ قوتٍ إذ لم يشاهد سوى العباد
فكن له القوت ما استمرت أيامه الغر باقتصاد
حتى يموت العذول صبراً وتنطفي جمرة المعادي
ويعجب الناس من شخيص يكون بعد الضلال هادي
من كان ميتاً فصار حياً فقد تعالى عن النفاد
ما خلع النعل غير موسى بشوطها عند بطن وادي
من خلعت نعله تناهت رتبة أقواله السداد
فإن تكن هاشمي إرثٍ فاسلك بها منهجَ السداد

والبس نعاليك إن من لم ... يلبس نعاليه في وهاد
فهل يساوي المخيط حالاً ... من لم يرَ الحقَّ في الرماد
فميز الحال إذ تراه ... في مركب القدس في الفؤاد
ورتب العلم إذ تناجى ... سرك بالسر في الهوادي
وارقبه في وهم كل سر ... في شأنه إن أتى وبادي
ولا تشتتْ ولا تفرقْ ... عنه يدا حاضر وبادي
فإن وهبت الرجوع فرق ... بين الحواضير والبوادي
واحذرْ بأن تركب المهارى ... إذ يقرن العير بالجوادِ
لا تحجبنك الشخوص واصبر ... على مهماته الشداد
وانظر إلى واهب المعاني ... وقارن العين بالفؤاد
واسند الأمر في التلقي ... له تكن صاحب استنادِ
ولا يغرَّنَك قول غيري ... فالحق في الجمع لا ينادي
وإن هذا المقام أخفى ... من عدم المثل للجواد
فكنه علماً وكنه حالاً ... مع رائح إن أتى وغادي
فكنه وصفاً ولا تكنه ... ذاتاً، فعين المحال بادي
ولا تكن ذا هوى وحب ... فيه، فقلب المحب صادي
من بات ذا لوعةٍ محباً ... شكى لها حرقة الفؤادِ
وانظر بعين الفراق أيضاً ... فيه ترى حكمة العبادِ
وحكمة الحزم والتواني ... وحكمة السلم والجلاَّدِ
فحكمة الضد لا يراها ... سوى حكيم لها وشادي
وانظر إلى ضاربٍ بعودٍ ... صفاة لبس فالشاب وادي
واعجب له واتخذه حالاً ... تجده في النار كالزناد
فالماءُ للروح قوتٌ علمٌ ... والجسم للنار كالمزادِ
فإن مضى الماء لم تجدْه ... بدار دنياك للمعادِ
وإن خَبَتْ ناره عشاءً ... فسوٌ من مات في المهادِ
أوضحت سراً إن كنت حراً ... كنت به واري الزناد
من علَّم الحق علَّم ذوق ... لم يقرنِ الغي بالرشادِ

فمن أتاه الحبيب كشفاً | لم يدرِ ما لذة الرقادِ
مثل رسول الإله إذ لم | يكن له النوم في فؤادِ
لو بلغ الزرع منتهاه | لاشتغلَ القومُ بالحصادِ
أو نازل الحصن قوم حربٍ | لبادرَ الناس للجهادِ
ناشدتك اللّه يا خليلي | هل فرشُ الخزِّ كالقتادِ
لا والذي أمْرَنا إليه | ما عنده الخيرَ كالفسادِ

قال من جلَّ ثناؤه وتقدست أسماؤه ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [هود: 88] فأسنده سبحانه إلى الإسم الجامع الذي هو للتعلق لا للتخلق، وفي إسناده إليه سر شريف نشير إليه إن شاء اللّه تعالى في هلال هذا النجم السعيد.

التوفيق أيها الابن النجيب العتيق وفّقك اللّه، مفتاح السعادة الأبدية والهادي بالعبد إلى سلوك الآثار النبوية، والقائد له إلى التخلّق بالأخلاق الإلهية، من قام به غنم ومن فقده حُرم، وهو خارج عن كسب العبد، وإنما هو نور يضعه اللّه في قلب من اصطفاه لنفسه، واختصَّه لحضرته، به تحصل النجاة وبه تنال الدرجات، ومع أنه سر موهوب، ونور في قلب العبد موضوع؛ فإن إرادة العبد من جهة العلم بخصائصه وحقائقه، متعلقة بوجود اللّه سبحانه وتعالى في تحصيله منه والإتصاف به.

فقد تحصل للعبد تلك الإرادة فيتخيل أنه كسبي، وإن دعاءَ اللّه فيه وإرادته إياه سبب في حصوله، وما علم أن تلك الإرادة التي حركته لطلب التوفيق، إنها من آثاره ولولاه لم يكن ذلك فإن إرادة التوفيق من التوفيق، ولكن لا يشعر بذلك أكثر الناس. فإذا تقرَّر هذا فيكون الإنسان إنما يطلب على الحقيقة كمال التوفيق من الموفق الواهب الحكيم، ومعنى كمال التوفيق استصحابه للعبد في جميع أحواله من اعتقاداته، وخواطره وأسراره ومطالع أنواره ومكاشفاته، ومشاهداته ومسامراته وأفعاله كلها، لا أنه يتجزى ويتبعَّض، فإنه معنى من المعاني القائمة بالنفس، فنقصه الذي يطلق عليه، إنما هو أن يقوم بالعبد في فعل ما ويحرمه في فعل آخر، وكذلك استصحابه لجميع أفعال العبد.

وقد بان علة سؤاله في التوفيق من اللّه تعالى، وسنبين أن التوفيق لم يكن عنده معدوماً عند سؤاله للّه سبحانه وتعالى فيه وهو تفعيل من الموافقة، وهو معنى يقوم بالنفس عند طروء فعل من أفعاله الصادرة عنه على اختلافها، تمنعه من المخالفة للحد المشروع له في ذلك الفعل لا غير، فكل معنى كان حكمه هذا يسمى التوفيق، فلو وافق يا بني حال العاصي حقه المشروع له لم يكن عاصياً، وإذا انتفت الموافقة في حال ما مشروع كانت المخالفة، لأن المحل لا يعرى عن الشيء أو ضده.

وقد يقوم بالعبد التوفيق في فعل ما، والمخالفة في فعل آخر في زمن واحد، كالمصلِّي في الدار المغصوبة، أو كمن يتصدَّق وهو مغتاب، أو يضرب أحداً في حال واحد وأشباهه. فلهذا سأل العبد من مولاه إكمال التوفيق يريد استصحابه له في جميع أحواله كلها حتى لا تكون منه مخالفة أصلاً. فإذا كمل التوفيق للعبد على ما ذكرناه فهو المعبر عنه بالعصمة والحفظ الإلهي، حفظ اللّه علينا الأوقات، وعصمنا من نتائج الغفلات إنه جوَّاد بالخيرات.

فالتوفيق، يا بني هو العناية التي للعبد عند اللّه تعالى، قبل كونه المتفضل به عليه عند إيجاده إياه، وتعلّق خطابه به قال اللّه تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: 2] فصحت لهم هذه القدم قبل كونهم حيث لا قبل في علم اللّه تعالى خصوصية منه جلّ علاه لهم، وهي الرحمة التي كتبها على نفسه، فلما أوجدهم في أعيانهم بصفة الجود، وأبرزهم في الوجود، تولاهم بلطفه فحققّهم بحقائق التوفيق.

وبيَّن لهم الطريق الموصلة إليه، كما بيَّنه للأنبياء بواسطة ملائكته، ولأوليائه بواسطة أنبيائه، والملائكة بالجبلة التي أوجدهم عليها، فاهتدوا على أوضح منهاج، وعرَّجوا على أنجح معراج. فما زال التوفيق يصحبهم في كل حال، ويقودهم إلى كل عمل مقرب إلى اللّه عزَّ وجلَّ من أعمال القلوب والنفوس، والمعاملات المتوجهة على الحواس، حتى انتهى بهم فوق الهمم، وأنزلهم في حضرة الجود والكرم، فغرقوا في بحار المنن والآلاء من

نعيم جنان ومضاهاة استواء على قدر ما أراده تعالى أن يمنحهم من نعمائه، وأن يهبهم من رحمائه.

فعاينوا عند ذلك تولّي الحق لهم في ذلك، ولم يكونوا شيئاً مذكوراً، ثم استصحاب القولي لهم في محل الدعاوي بتقديسهم عنها، فأرادوا الشكر فمنعتهم الحقيقة، وكان الشاكر هو المشكور والذاكر هو المذكور، فعجز العبد عن الثناء والحمد، مع غاية الجد في ذلك والجهد، ووقفوا في موقف الحيرة؛ لما رأوا الحال فوق الثناء ثم رأوا أن الذي حصل لهم من الثناء عليه سبحانه وتعالى، إنما هو من عنده أثنى على نفسه بفعله قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85].

فالقليل معار عندنا وهبناه عناية منه، والكثير لم نصل إليه فليس لنا شيء ندَّعيه، فالمحقق شيخ منحوت إلاَّ أنه مبخوت، وصاحب الدعاوي كذلك إلاَّ أنه ممقوت، قال الصادق في هذا المقام صلَّى اللَّه عليه وسلَّم: لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك. وقال الصديق رضي اللَّه عنه: العجز عن درك الإدراك إدراك. ولنا في هذا المقام أبيات:

قل لامرئٍ رامَ إدراكاً لخالقه ... العجز عن درك الإدراك إدراكُ

من دان بالحيرة الغرَّاء فهو فتى ... لغاية العلم بالرحمن درَّاكُ

وأيُّ شخص أبى إلاّ تحققه ... فإنَّ غايته جحدٌ وإشراكُ

فالعجز عن درك التحقيق شمس ضحى ... جرت به فوق جو النُسك أفلاكُ

مبادئ التوفيق ومواسطه وغاياته

اعلم يا بني، أن التوفيق قائد إلى كل فضيلة، وهادٍ إلى كل صفة منجيه، وجالب كل خلق رضى يجلو البصائر، ويصلح السرائر، ويخلص الضمائر، ويفتح أقفال القلوب، ويزيل ريونها ويخرجها عن أكنَّتها، ويهبها أسرار وجودها، ويعرفها بما تجهله من جلال معبودها، هو الباعث المحرِّك لطلب الاستقامة، والهادي إلى طريق السلام، ما اتصف به عبد إلاَّ اهتدى فهدى، ولا فقده شخص إلاَّ تردَّى وأردى، فنعوذ باللَّه من الخلاف وله مبدأ

ومتوسط وغاية، فمبدأه يعطيك الإسلام، ومتوسطه يعطيك الإيمان، وغايته تعطيك الإحسان.

فالإسلام يحفظ الدماء والأموال، والإيمان يحفظ النفوس من ظلم الضلال والإضلال، والإحسان يحفظ الأرواح من رؤية الأغيار، ويهبها المراقبة والحياء على الكمال. فالنفس تتنعم بشهواتها في الجنان، والعين تتنعم بلذة مشاهدة الرحمن، والروح تتنعم بحقائق الامتنان. فانظر يا بني ما أوصلك إليه التوفيق؛ فمن دعا لك بالتوفيق في جميع الأحوال، فما ترك لك شيئاً من الخير إلاً أعطاك إياه فلا تَرُدَّ.

فمبدؤه يعطيك العلم والعمل، ووسطه يطهّر ذاتك من دنس الأغراض والعلل، وغايته تمنحك أسرار الوجود والأزل، وليس وراء اللّه مؤمل يؤمل مبدؤه يغنيك عن حسك، ووسطه يغنيك عن نفسك، وغايته تجود عليك بشمسك، مبدؤه يعطيك الكرامات، وسطه يغنيك عن الصفات، وغايته تنعمك بالذات، مبدؤه يشهد لك بالجنان، ووسطه يشهد لك بالعيان، وغايته تشهد لك بفناء الأعيان، فسبحان المتفضّل المنَّان إنه بعباده رؤوف رحيم.

تقسيم التوفيق

وفَّقك اللّه تعالى على قسمين في أصله عام وخاص. فالعام هو الذي يشترك فيه جميع الناس كافة، من المسلمين وغيرهم، وهو على ضربين، منه ما يوافق الحكمة بما هي حكمة، ومنه ما يوافق الأغراض. فالتوفيق الذي يوافق الأغراض، كرجل أي رجل كان على أي دين، كان حفر بئراً على قارعة الطريق بأرض لا ماء فيها، فهذا وافق غرض كل مار بذلك الموضع. والتوفيق الذي يوافق الحكمة، كمن يفرق بين الأشياء لما يرى بينها من المسافة، وأصلها إعطاء كل ذي حق حقه، كرجل مثلاً: رأى شخصاً يتناول شرب الماء بالمنخل، ويحاول تصفية الدقيق بالقدح فيأخذ الدقيق فيلقيه في المنخل، ويأخذ الماء ويجعله في القدح ويقول إنما جعل هذا لهذا وهذا لهذا، هكذا في جميع الأشياء العلمية والعملية فهذه موافقة الحكمة.

والخاص هو الذي يخرجك من الظلمات إلى النور، وينتهي بك إلى

السعادة الأبدية على مراتبها وإن دخل النار. وهذا أيضاً عام وخاص. فالعام كالإيمان باللّه وبرسوله وما جاء به، والخاص كالعمل بالعلم المشروع، وهو أيضاً عام وخاص. فالعام كأداء الفرائض كما قال ضمام بن ثعلبة السعدي لرسول اللّه ﷺ حين سأله عن الواجبات، فأجابه رسول اللّه ﷺ فقال: هل على غيرها قال: لا إلاً أن تطوّع فقال: واللّه لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. ولم تكن غير الفرائض الخمس؛ فقال رسول اللّه ﷺ: أفلح إن صدق.

والخاص هو الذي يؤديك إلى تصفية القلب وتعريفه وتفريغه، والرياضات والمجاهدات. وهذا الضرب أيضاً من التوفيق فيه عام وخاص: فالعام هو الذي يثمر لك جميع الأخلاق العلوية، والأوصاف الربانية القدسية، والخاص هو الذي يثمر لك أسرار الخلق ومعنى التحقيق، وكلاهما على ضربين عام وخاص. فالعام ما أعطاك جميع ما تتخلَّق به وأسراره، والخاص ما أعطاك الغنى عن ملاحظة الغنى، فكل توفيق يستصحب العبد في حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة، فهو توفيق العارفين الوارثين العاملين، وكل توفيق يصحب العبد في بعضها، فهو منسوب لذلك البعض، ومضاف لما يعطيه في مراتب الوجود الصوفي خاصة، فيقال هذا توفيق العارفين والزاهدين والعابدين، وغيرهم من أصحاب المقامات وأرباب السلوك.

تقسيم حصول التوفيق

عند المحققين على نوعين: توفيق أوجده الحق سبحانه وتعالى فيك منك، وتوفيق أوجده فيك على يد غيرك. فالتوفيق الذي فيك من غيرك كالإسلام الذي ألقاه عليك أبواك وربياك عليه، فكل مولود يولد على الفطرة، وأبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما جاء في الحديث، أو كشخص قيَّضه اللّه لك على مدرجتك من غير قصد منك إليه، فوعظك بموعظة زجرك بها، فانتبهت من سنة الغفلة، فقذف اللّه سبحانه وتعالى لك عند انتباهك نور التوفيق فقبلتها، ونظرت في تخليص نفسك، فقادك إلى الانتظام في شمل السعداء.

وإنما التوفيق الذي فيك منك هو أن ترزق النظر ابتداء في عيوبك، وذمّ

ما أنت عليه من الأفعال القبيحة، تمقتك نفسك وتبغضك حالك، فإذا تقوّى عليك هذا الخاطر وتأيَّد نهض بك في طريق النجاة، وسارع بك إلى الخيرات على قَدر ما قُدِّر لك أزلاً وقسم لك في شربك. وأول مقامات التوفيق الإختصاصي، اشتغالك بالعلم المشروع الذي ندبك الشارع إلى الإشتغال بتحصيله، وآخرها حيث يقف بك، فإن تممت لك المقامات، حصلت في التوحيد الموحد نفسه بنفسه الذي لا يصحُ معه معقول، وإن نقصت لك بعض الحضرات الوجودية واللطائف الجودية فلا حياة مع الجهل ولا مقام.

باب نتائج التوفيق

في المعاملات الموقوفة على الظواهر، والناس فيها على قسمين: منهم من تحصل له على الكمال، وهو القطب المشار إليه صاحب الوقت، ومنهم من تنتهي به إلى حيث قدر العليم الحكيم. فالتوفيق يا بني إذا صحّ وتصحيحه بتحصيل العلم، فإذا حصل له وصحّ توفيقه أنتج الإنابة، الإنابة منتجة للتوبة، والتوبة تنتج الحزن، والحزن ينتج الخوف، والخوف ينتج الاستيحاش من الخلق، والاستيحاش من الخلق ينتج الخلوة، والخلوة تنتج الفكرة، والفكرة تنتج الحضور، والحضور ينتج المراقبة، والمراقبة تنتج الحياء، والحياء ينتج الأدب، والأدب ينتج مراعاة الحدود، ومراعاة الحدود تنتج القرب، والقرب ينتج الوصال، والوصال ينتج الأنس، والأنس ينتج الإدلال، والإدلال ينتج السؤال، والسؤال ينتج الإجابة.

وتسمى جميع هذه المقامات المعرفة في اصطلاح بعض أصحابنا، والعلم في اصطلاح بعضهم. والسؤال على تفرق أنواعه وتشتتها، راجع إلى المقام الذي أنت به متحقق في الحال، فتنال على حسب ما يلقي اللّه في نفسك، وهذا هو مقام المشاهدة، فمن شاهد رسماً ومن شاهد وسماً ومن شاهد حيرة وعجزاً ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: 60]، ولا يصح شيء من هذه المقامات إلاّ بعد تحصيل العلم الرسمي والذوقي.

فالرسمي كعلوم النظر، وهو ما يتعلق باصطلاح العقائد وكعلوم الخبر، وهو ما يتعلق بك من الأحكام الشرعية ولا يؤخذ منها إلاّ قدر الحاجة على قدر ما نذكره في مرتبة العلم إن شاء اللّه تعالى.

والذوقي علم نتائج المعاملات والأسرار، وهو نور يقذفه اللّه تعالى في

قلبك تقف به على حقائق المعاني الوجودية، وأسرار الحق في عباده والحكم المودعة في الأشياء، وهذا هو علم الحال فإنه مهما تخلق العبد باسم ما من الأسماء فشاهد حاله يشهد بتصحيح أو بفساد شواهد الأحوال.

اعلم يا بني، أن من قام به توفيق في أمر من الأمور المطلوبة للسعادة وغيرها، فشاهده يصدق دعواه ويكذبها وشواهد الحال على ضربين: ضرب يقوم بذات صاحب الدعوى، وضرب يقوم بذات غيره مقارناً لدعواه، وليس ثم قسم ثالث.

فالمنوط بذاته كصفرة الوجل وحمرة الخجل، وترك الاعتراض على اللَّه تعالى في أحكامه، والصبر إذا نالته المصائب في حق من ادعى أنه في مقام الرضا بالقضاء والتسليم لمجاري القدرة على الإطلاق.

والضرب الثاني ينبئ عن ذاته القائم بذات غيره، كتحدثه بانفصال كون ما معين عنه بهيئته وهو ساكت، ويكون ذلك على نوعين: إما بأن يجوز أن يوصل إليه بحيلة ما، حتى يقع ذلك ولم تعلم هذه الحيلة من هذا المدَّعي لقرينة حال صحت عند المشاهدة له المتقدمة به، وإما أن يكون خارجاً عن مقدور البشر. فهذه شواهد الأحوال محصورة، وغرضنا في هذا الكتاب تبليغ الرسالة لا الإشهار والتطويل، وباليسير المكمل الجهات يحصل الغرض إن شاء اللَّه تعالى، إذ الكثير يؤدي إلى الملل والسآمة واللَّه المرشد لا ربَّ غيره.

الفلك الثاني الإيماني

المطلع الأول: الوفاقي، مطلع هلال ووفاق، طلع بنفس المدبر في عالم الجبروت والملكوت فغطى، ألم يعلم الإمام العالم وأولو الألباب والأفهام أن نور صباح الموافقة تنفس، فأظهر ما كمن فيها وعسعس، فبموافقة مضاهاة الذاتين على التكميل في عالم المثال الوجودي، ظهر التوفيق في عالم المثال الجودي.

والحضرات حضرتان، لهما علامتان، جمع وفرق، وحقيقة وحق بوجود خالق وخلق. فإن تعلق وجود تجلى المثل ببعض التضاهي، كانت

الموافقة في حضرة الفرق خفية، وكان التوفيق في العالم الأسفل خلقياً. وإن تعلق التجلي بالكلية، كانت الموافقة في حضرة الجمع حقيقة، وكان التوفيق في العالم الأسفل خلقياً، فتوفيق الكون فرع من موافقة العين وتوفيق الأشباح نتيجة عن موافقة الأرواح. قال ﷺ: الأرواح جنود مجنَّدة والأجسام خشب مسنَّدة، فما تعارف منها هناك ائتلف هنا فتهنا، وما تناكر منها هناك اختلف هنا فتعني هنا. فالتوفيق للأبرار والموفقين لا من باب الأسرار، التوفيق في المعاملات، والموافقة في المناجاة وبين التوفيق والموافقة انتساب، فإذا اجتمعا كان الأمر العجاب، وإذا افترقا وقع الحجاب. اجتماعهما على الإنصاف موقوف، وافتراقهما بحب الرياسة معروف، التوفيق مع المكاسب والموافقة مع المواهب.

إن وافق النجم السعيد هلاله كان الوجود على مساق واحدِ
فإن انتقى عين التواصل منهما نقص الوجود عن الوجود الزائدِ
فانظر بقلبك أين حظك منهما في الجمع أو في العالم المتباعد

الفلك الثالث الإحساني

المطلع الإلهي مطلع هلال ارتقاب، طلع بالروح القطبي في برزخ الرحموت والرهبوت، فمنع وأعطى. ألم يعلم الحكيم أن الوجود قبس صباح تنفس، وليل عسعس، عقل وإحساس، مشكاة ونبراس، القنديل أسرج بألطف كأس، في مجلس ديماس، أشرقت الحواس، برزت جآزر الكناس، في حدائق الأنفاس، بإيمانهم أكواب إيناس، بشمائلهم أقباس إبلاس، لكل مارد خناس، وطلع حاس، شرب الخضر والياس، والندامى الأكياس، بادر منهم يعفور كالغصن المياس، بيده قضيب آس، ضرب منه على الراس هل من آس، ومشفق مواس، أجليت الأكياس، أفرغ عليه أحسن لباس، افتن الناس، غار الحرَّاس أنف الجلاَّس، ما عليكم من بأس، فما أنا بالمغفل من الناس، يا ضارب الأسداس في الأخماس، خف الخناس فإلهامه وسواس.

ثم أخذ يقرأ القرطاس ليقيم القسطاس، فقال: انظروا إلى عرش ربكم

فلكاً مشحوناً بناسه، محفوظاً بحراسه قرن ملكه بخناسه، وإلهامه بوسواسه، وجحيمه بحضرة قدسه، وعذاب وحشته بنعيم أنسه، تنفس العارف فأجراه في بحر الإرادة همثاً، ولطمته أمواج أحوال عشاقه فكادت تبثه بثاً، سطت كتائب ثناياه الخرس، على العرب الفصحاء والفرس، فاقسم بالخنس الجوار الكنس، أنه لمعقل آهل دارس، وظاهر طامس، مهدته أرباب النواميس، ونشرت فيه أذناب الطواويس، وحدَّثت به العيس، وأوثقه الرحمن بالجوهر النفيس، من كل صبغة تعتريه أو صنعة لبوس، فمؤخره معقول ومقدمه محسوس، فهو يسبح في بحر القدس إلى انقضاء السبعة والسدس، وهنا تبعث النفوس ويأتي بالمعقول والمحسوس، وتبقى الحالة على أولها بين رهين جليس، وأمين عريس، فسبحان من طور خلقه بين أخرق عابس، ومدبِّر سائس:

أنظر إلى العرش على مائه ... سفينة تجري بأسمائه
واعجب له من مركب دائر ... قد أودَعَ الحقّ بأحشائه
يسبح في بحر بلا ساحل ... في حندس الليل وظلمائه
وموجه أحوال عشاقه ... وريحه أنفاس أبنائه
فلو تراه بالورى سائراً ... من ألف الخط إلى يائه
ويرجع العود إلى بدئه ... ولا نهايات لإبدائه
يكور الصبح على ليله ... وصبحه يغني بإمسائه
فانظر إلى الحكمة سيارة ... في وسط الفلك وأرجائه
ومن أتى يرغب في شأنه ... يقعد في الدنيا بسيسائه
حتى يرى في نفسه فلكه ... وصنعة اللّه بإنشائه

معقل أنسه

ألم يعلم الحليم أن حقيقة هذا المعقل الكريم، بأن الصدق دمع جار، ولهيب أوار، من عاشق ذي أعذار، كذوب غدَّار، يشكو انتزاح الدار، وبُعد المزار، والمحب إذا ما اشتاق ازدار، متى اقتفى الآثار، متى طلع العشار، متى امتطت القطار، وسبح البحار، متى جرت الأمصار، متى آلى أن لا يقرَّ

له قرار، حتى يصل الدار بالديار، هيهات لعبت به الأعصار، فاشتغل بملاعبة الأبكار، واستنشاق نفحات الأزهار، ولذة الاستثمار وتغاريد الأطيار، وترجيح القيان بالأوتار، عن مراعاة كواكب الأسحار، عميت الأبصار كل ضلٍّ وحار، شكى الفرار أهل هلال الإفطار، كأنه شطر سوار، مشرق استنار، صنعة حكيم وصبغة جبار، فلك دوَّار، هلال وإبدار، وسر وسرار، التقيا بمعاقد الآزار، ماء ونار ما التقيا إلاَّ لأمر كبار، فتأخرت الأغيار، وأضرمت للحرب نار بدار، بدار لطلب الآثار، استنزعت شغار غوار، من كل ماضي الغرار، الحد طوراً باليمين وطوراً باليسار، شد الآسار، حل البوار، بساحة الكفار، بئس عقب الدار، وقع الصلح على الدينار، عن ذلة وصغار، وأشرق الإيمان وأنار، انحلَّت عقدة الإصرار، واصطحب الأسد والخوار، وصار الذئب لا يستوحش منه الحوار، حفظ حق الجوار، تخلَّق المحسن بالإيثار، صارت سيئات المقربين حسنات الأبرار، نعم القرار خير دار، في ارتقاء أخيار، قعد في نادي التذكار، سردت نوادر وأخبار، قام خطيب من السيار، لا يشق له غبار، دعانا بأسرار إماء وأحرار، أين الناظور وأهل الاعتبار، متى كان الأبكار، لاحت الأنوار، ذهبت ظلم الأعيان والأغيار، فحل العثار، ومتى كان السوار بدت الأسرار، تمحو الآثار، والآثار محك ومعيار، على النفوس والإبشار، فهي رفيعة المنار، مشرقة بالعشي والإبكار، عبد مختار استعمل الإنكار، فساقت الأفكار، بين مقيم وسيار فأطال الانتظار، فوهبت الأخبار، فنزل يسيراً حين ضحوة النهار، فوقع الإنكار، رُفعت الأستار طلع بدر التسليم فأنار، وأذعن الكل لهلالي الاستبشار، ورسولي الملك القهار:

يا هلال الدياجي لح بالنهار ... فلقد كنت نزهة الأبصار
أنت محو وأنت للعين بدر ... بتجليك في الضيا المعمار
فإذا ما بدا هلال المعاني ... طالعاً من حديقة الأسرار
قل له بالتواضع المتعالي ... لا بنفس الدعاوي والإنكار
يا هلالاً بين الجوانح سار ... لا تفارق حنادس الأغيار

كن عبيداً لقصرها ومليكاً ... بعد محو ينالكم في السرار
حكمة قد تحير العقل فيها ... وسراجان أسرجا بالنهار
عجباً في سناهما كيف لاحا ... وسنى الشمس مذهب الأنوار
كل نور في كل قلب معار ... ما عدا قلب وارث المختار
فاشكر اللّه يا أخي على ما ... وهبته نتائج الأفكار

المرتبة الثانية

في علم الهداية

الفلك الرابع

الإسلامي الموقع الثاني العلمي نجم هداية وقع بقلب الإمام المدبر في عالم الشهادة فابتدى فاهتدى، قال من غمرنا بنعماه وحبانا برحماه ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران: 18].

أخبر سبحانه وتعالى عباده بشرف العلم، حيث وصف به نفسه. فينبغي لك أيها الابن الموفق السعيد، أن تعتقد في الشرف التام، وليس في الصفات أعمَّ منه تعلقاً لتعلقه بالواجبات والجائزات والمستحيلات، وغيره من الصفات ليس كذلك.

واعلم أن الشرف الذي للعلم شرفان: شرف من حيث ذاته، وشرف من حيث معلومه. فالشرف الذي له من حيث ذاته، كونه يوصلك إلى حقيقة الشيء على ما هو عليه، ويزيل عنك أضداده إذا قام بك الجهل بذلك المعلوم، والظن والشك والغفلة وما ضاده، والذي له من حيث معلومه يكسبه ذلك الشرف.

فكما أن بعض المعلومات أشرف من بعض، كذلك بعض العلوم أشرف من بعض، فكثير بين من قام به العلم بأوصاف الحق وأفعاله، وبين من قام به العلم، بأن زيداً في الدار وخالداً في السوق. فكما أنه ليس بين المعلومين مناسبة في الشرف، كذلك العلمان، فهذا هو الشرف الطارئ على العلم من المعلوم. ثم إن اللّه تبارك وتعالى مدح من قامت به صفة العلم وأثنى عليه ووصف بها عباده، كما وصف نفسه في غير ما موضع من الكتاب العزيز كقوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾

فأخبر تعالى أن العلماء هم الموحدون على الحقيقة، والتوحيد أشرف مقام ينتهي إليه وليس وراءه مقام إلاَّ التثنية، فمن زلَّت قدمه عن صراط التوحيد رسماً أو حالاً وقع في الشرك، فمن زلَّت قدمه في الرسمي، فهو مؤبد الشقاء، لا يخرج من النار أبداً لا بشفاعة ولا بغيرها، ومن زلَّت قدمه في الحال، فهو صاحب غفلة يمحوها الذّكر وما شاكله، فإن الأصل باق يرجى أن يجبر فرعه بمنِّ اللّه تعالى وعنايته وليس الفرع كذلك.

وكقوله جل ثناؤه في صاحب موسى عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65] وهو علم الإلهام. فالعالم أيضاً صاحب إلهام وأسرار وكقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 28] فالعالم أيضاً صاحب خشية وكقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43] فالعالم أيضاً صاحب الفهم عن اللّه بحكم آيات اللّه وتفاصيلها وكقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: 7].

فالعالم هو الراسخ الثابت، الذي لا تزيله الشبه، ولا تزلزله الشكوك، لتحققه بما شاهد من الحقائق بالعلم. وكقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: 197] فالعلماء هم الذين علموا الكائنات قبل وجودها، وأخبروا بها قبل حصول أعيانها، وهي الصفة الشريفة التي أخبر اللّه تعالى نبيه محمداً ﷺ بالزيادة منها. فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: 114] ولم يقل له ذلك في غيره من الصفات. وإنما أكثرنا بهذا في العلم لأن في زماننا قوماً لا يحصى عددهم، غلب عليهم الجهل بمقام العلم، ولعبت بهم الأهواء حتى قالوا أن العلمَ حجاب، ولقد صدقوا في ذلك لو اعتقدوا أي واللّه حجاب عظيم يحجب القلب عن الغفلة والجهل وأضداده. فما أشرفها من صفة حبانا اللّه بالحظ الوافر منها، وكيف لا يفرح بهذه الصفة ويهجر من أجلها الكونان، ولها شرفان كبيران عظيمان، الشرف الواحد أنّ اللّه تعالى وصف بها نفسه، والشرف الثاني أنه مدح بها أهل خاصته من أنبيائه وملائكته. ثم منَّ علينا سبحانه ولم يزل ماناً، بأن جعلنا ورثة أنبيائه فيها فقال عليه الصلاة والسلام: العلماء ورثة الأنبياء.

فلأي شيء يا قوم ننتقل من اسم سمانا اللّه تعالى به ونبيه إلى غيره، ونرجحه عليه ونقول فيه عارف وغير ذلك. واللّه ما ذاك إلاّ من المخالفة التي في طبع النفس، حتى لا نوافق اللّه تعالى فيما سماها به، ورضيت أن تقول فيه عارف، ولا تقول عالم. نعوذ باللّه من حرمان المخالفة، ولو لم يكن في المعرفة من النفس عن درجة العلم في اللسان العربي، إلاّ أنها تعطيك العلم بشيء واحد، فلا يحصل لك سوى فائدة واحدة لأنها تتعدى إلى مفعول واحد، والعلم يعطيك فائدتين لتعديه إلى مفعولين. ثم انظره في قوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: 60].

لما ناب هنا العلم مناب المعرفة وجعل بدلاً منها، تعدى إلى مفعول واحد فلحقه الحرمان بالنيابة، وإن كان العلم والمعرفة في الحد والحقيقة والمعرفة على السواء، من كشف الشيء على ما هو عليه، فما لنا لا نبقى على ما سمَّانا به الحق سبحانه ونخالف بل واللّه أقول: أن هذا القائل بإطلاق المعرفة في الموضع الذي يجب فيه إطلاق العلم بلزوم الأدب الإلهي، أنه لو تحقق في الورث النبوي ما سمَّى ذلك المقام إلاّ علماً، ولا سمَّى صاحبه إلاّ عالماً. كما فعل سهل بن عبد اللّه حين قال: لا يكون العبد باللّه عارفاً، إلاّ إن كان به عالماً، ولا يكون به عالماً، إلاّ إن كان رحمة للخلق.

ثم قال بعد هذا: والسماء رحمة للأرض، وبطن الأرض رحمة لظهرها، والآخرة رحمة للدنيا، والعلماء رحمة للجهال، والكبار رحمة للصغار، والنبي عليه الصلاة والسلام رحمة للخلق، واللّه عز وجل رحيم بخلقه.

فتأمل وفّقك اللّه أين جعل سهل العالم وفي أي مقام أنزله، وبمن شبهه. والحمد للّه الذي وفّقنا للإطلاع على ما طالعه هذا الإمام وهو حجة اللّه على الصوفية المحققين. كذا ذكر أبو القاسم الجنيد في كلام له يقول فيه: إن سليمان عليه السلام حجة اللّه على الملوك، وأيوب حجة اللّه على أهل البلاء، وذكر الأنبياء وجعلهم حجة على أصناف من المدعين كما تقدم.

ثم قال بعد ذلك: ومحمد ﷺ حجة على الفقراء. قال وسهل بن عبد

اللَّه حجة على المحققين، فهذه شهادة الجنيد الذي قال فيه الإمام أبو القاسم القشيري في رسالته في ذكر الشيوخ حين ذكره فقال: والجنيد هو سيد الطائفة، وأبو القاسم القشيري من أئمة القوم أيضاً. فالحمد للَّه على الموافقة. وإنما قال سهل في كلامه الذي ذكرنا، لا يكون العبد باللَّه عارفاً حتى يكون الجاري على ألسنة القوم، فأعطاه ما تواطؤا عليه أن يذكر ما ذكروه حتى يفهم عنه، وأعطاه الأدب الإلهي، والمقام أن لا يسميه إلاّ عالماً. وأخرج أبو طالب في القوت عن سهل رضي اللَّه عنهما قال أبو طالب: قال عالمنا: للعالم ثلاثة علوم، يريد سهل رحمه اللَّه، علم ظاهر يبذله لأهل الظاهر، وعلم باطن يمنع إظهاره إلاّ لأهله، وعلم هو سرّ بين العالم وبين اللَّه هو حقيقة إيمانه، لا يظهره لأهل الظاهر ولا لأهل الباطن. فانظر كيف أطلق سهل عليه اسم العالم وعلى ذلك العلم، ولم يقل العارف ولا المعرفة للأدب الذي ذكرنا آنفاً. فلما نقص غيره عن ذلك المقام الشريف ولم تتعلق همته إلاّ بشيء واحد، إما بربه وإما بنفسه، أعطاه المقام بذاته أن سمّى نفسه عارفاً، فإن الكمال على الحقيقة، إنما هو فيمن شاهد ربه ونفسه، وهو المعبر عنه ببقاء الرسم عند القوم وبه يقول الشهرزوري وغيره فيمن شاهد ربه عرياً، عن مشاهدة نفسه حالاً، كما قال بعضهم فهو عار عن الفائدة صاحب نقص، فإن الحق إذ ذاك يكون هو الذي يشاهد نفسه بنفسه وكذلك كان.

فأية فائدة أتى بها هذا الفاني عن نفسه، على زعمه المشاهد لربه حالاً المدَّعي في مشاهدة لا يصح وجودها إصلاحاً، لا كما يقول بعضهم للمحال الذي يدخله فيها، وإنما هو تلبيس في المقام، والتبس عليه في مشاهدته ربه ببقاء الرسم حال فنائه عن رسمه علماً، بتولي الحق له في تلك المشاهدة فيتخيَّل الفناء حالاً في الرسم، بل تلك الحالة إن ادعاها حالة النائم، الذي قد استغرق النوم حسّه ونفسه، فلا هو مع الحس ولا مع الخيال، كذلك مدَّعي هذا المقام لا هو مع نفسه ولا هو مع ربه وإنما هو هذا النائم الذي نصبنا له مثالاً للتقريب عليك، فإذا استيقظ هذا النائم قيل له؛ لقد فاتك علم كثير طرأ بعدك في عالم الحس، فما حصل لك في عالم الخيال، فيقول ما

رأيت شيئاً فيقال لهذا الشخص لقد خسرت الوقت فلا معنا ولا مع نفسك.

وهذه حالة مدّعى هذه المشاهدة التي لا تصح، وما نطق بها واللّه أعلم، إلاً صاحب قياس فاسد على طريق القوم رضي اللّه عنهم، أو من التبس عليه العلم بالحال، فإن أتى بفائدة في مشاهدته لم تكن عنده، وأنكر بقاء الرسم بالحال فهذا غير عارف بفناء الرسم، عارف بفناء الوقت، صحيح المشاهد التبس عليه العلم بالحال، فهو صاحب نقص كما تبين. وكذلك الثاني أيضاً من شاهد نفسه ولم يشاهد ربه، فهو مشرك صاحب دعوى وغفلة نعوذ باللّه من هذين المعلمين. والكامل على التحقيق الذي هو كامل لا يوجد في غيره إلاً مجازاً، ومن شاهد ربه علماً وحالاً، وشاهد نفسه علماً لا حالاً، فإن المعلوم المشار إليه هنا معدوم أصلاً، وإلى هذا المقام أشار أبو العباس القاسم بن القاسم السياري بقوله: ما التذّ عاقل بمشاهدة قط، لأن مشاهدة الحقّ فناء ليس فيها لذة. إلاً أنه قوي على صاحب هذه المشاهدة، مشاهدة العلم على مشاهدة الحال، وإن حصلا في مقام واحد. وهذا الشيخ يقول ببقاء الرسم بدليل قوله ما التذّ عاقل. وهذا هو بقاء الرسم. فإن قلنا فيه وشاهد نفسه حالاً وعلماً، كما قلنا في مشاهدته ربه، فإنما يتعلق هنا بمعلوم معدوم غير موجود رأساً، فإذا تقرر هذا وقد تبين أنه الحق فهو صاحب فائدتين، فائدة المعاينة، وفائدة اللذّة والمعرفة التي تحصل له عند المعاينة ببقاء الرسم في المشاهدة. وصاحب فائدتين، هو العالم لتعلق العلم كما قلنا بالمفعولين، ومن لم يتحقق بهذا المقام فهو العارف ذو الفائدة الواحدة من هاتين الفائدتين، التي للعالم كما تقدم. فلو صحّت الموافقة مع الحق كما ذكرناه في نجم العناية المتقدم، لصحّ التوفيق في عالم الشهادة وكنا نقول بفضل العلم على المعرفة، والعالم على العارف.

تنبيه: الكلام الذي ذكرناه عن سهل رضي اللّه عنه، حكاه القاضي الزاهد أبو عبد اللّه الحسين بن موسى السلمي النيسابوري؛ في إيضاح الطريق في أصول أهل التحقيق المسمّين بالملامية له. والكلام الذي ذكرناه عن الجنيد في سهل مذكور في كتاب منتخب الأسرار في صفة الصديقين

والأبرار. والكلام الذي ذكرناه عن أبي العباس السياري مذكور في رسالة أبي القاسم القشيري (تأييد وسلطان).

ومما يؤيد ما ذكرناه في حق العارف أنه دون العالم الصدِّيق، لو شرح اللَّه صدر من فضَّله على العالم وتأدب مع الحق تعالى، إذ هم أهل الأدب معه بشرط الحضور، إن اللَّه تعالى ما سمَّى عارفاً إلاَّ من كان حظه من الأحوال البكاء، ومن المقامات الإيمان بالسماع لا بالأعيان، ومن الأعمال الرغبة إليه سبحانه، والطمع في اللحوق بالصالحين، وأن يكتب مع الشاهدين فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة: 83].

ولم يقل علموا فوصفهم بالمعرفة فيقولون: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: 83 ـ 85] فأخبر تعالى أن سماعهم من الكتاب الكبير لا من أنفسهم، ومعنا إشارة يفهمها أصحابنا. ثم قال: ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ﴾ ولم نشكَّ أن الصدِّيقية درجة فوق هاتين الصفتين، اللتين طلب العارف أن يلحق بهما فهو دونهما وقد سمى عارفاً وقال تعالى: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: 69] فانظر إلى هذه الدرجات. ثم لتعلم أن الشهداء الذين رغب العارف أن يلحق بهم، هم العاملون على الأجرة وتحصيل الثواب، وأن اللَّه عز وجل قد برَّأ الصدِّيقين من الأعواض وطلب الثواب، إذ لم يقم بنفوسهم ذلك، لعلمهم أن أفعالهم ليست لهم أن يطلبوا عوضاً، بل هم العبيد على الحقيقة والأجراء مجازاً.

قال عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ [الحديد: 19] ولم يذكر لهم عوضاً على عملهم إذ لم يقم لهم به خاطر أصلاً لتبرِّيهم من الدعوى ثم قال: ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ [الحديد: 19] وهم الرجال الذين رغب العارف أن يلحقَ بهم ويرسم في ديوانهم، وقد جعلهم

تعالى في حضرة الربوبية، ولم يشترط في إيمان الصدّيقين السماع كما فعل بالعارفين، حكمةً منه سبحانه أن نتعلم الأدب.

وكيف ترتب الوجود حتى ننزل كل موجود منزلته، وأين تقتضيه مرتبته ونقتصّ على الإسم الذي سماع به الحق وعرفناه، فعلم الأسماء عظيم، وفيه يظهر أدب أهل طريق اللّه مع اللّه، وبه صح الشرف لأبينا نبي اللّه آدم ﷺ فلو قال آدم ﷺ. يسمى البغل حماراً مثلاً إصطلاحاً مني، لأن أباه الحمار لم يكن يقف عند ما علّمه اللّه، فصاحب الأدب المراعي حرمة الحضرة الإلهية؛ يقف عندها ويمشي معها، فإذا رمزت له شيئاً لم تعرفه باسمه، حينئذٍ له أن يصطلح مع نفسه، بما يقارب معناه إن كان حكيماً.

ثم انظر بعين البصيرة أدب رسول اللّه ﷺ، أين جعل العارف حيث جعله الحق فقال: من عرف نفسه عرف ربه، ولم يقل علم. فلم ينزله عن حضرة الربوبية، ولا عن حضرة نفسه التي هي صاحبة الجنة. كما قال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ [الزخرف: 71].

فالعارف صاحب الشهوة المحمودة، تربيه بين يدي العالم الصدِّيق. فتأدَّب يا غافل عن ملاحظ الحقائق (معذرة). أعتذر بها عن أصحابنا في تسميتهم صاحب المقام الذي ذكرناه آنفاً عارفاً، ولم يسمّوه عالماً كما قررنا، وهو كان الأولى والأسد من كل وجه، ولا عذر لمن تحقق بالمقام المذكور في حيدته عن اسم العالم إلى العارف فإن الحكم يتوجه عليه في دعواه بلسان. ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: 91] ويمشي حاله على الأدب الإلهي كما يعطيه المقام، ولكن غلبت عليهم رضي اللّه عنهم الغيرة على طريق اللّه، لما رأوا أنه قد شاع في العالم أن يسمَّى عالماً، من كان عنده علم ما من العلوم، وإن كان قد أكبَّ على الشهوات، وتورَّط بالشبهات بل في المحرمات، وآثر القليل على الكثير ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: 77] وهو عالم بهذا، فعمَّر دنياه وخرَّب آخرته.

فهذا شخص تناقض أفعاله أقواله، وهو من الثلاثة الذين تسربهم

النار قبل كل أحد، كما صح في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم عن أبي هريرة. ثم أنه إن تاب ورجع فإن النفس مالكة له وحاكمة عليه، فغاية مجاهدته وغايته أن يقنع بحظ ما دنى من الجنة، على أنه ليس ثمة من دنى، ومع هذا كله يطلق عليه اسم العالم فرأوا رضي اللّه عنهم، أن المقام العالي الذي حصل لهم ولساداتهم، كان أولى باسم العلم وصاحبه بالعلم كما سماه الحق، فأدركتهم الغيرة أن يشاركهم البطَّال في اسم واحد فلا يتميز المقام، ولا يقدرون على إزالته من البطَّال لإشاعته في الناس، فلا يتمكن لهم ذلك، فأدَّاهم الأمر إلى تسمية المقام معرفة وصاحبه عارفاً، إذ العلم والمعرفة في الحد والحقيقة على السواء، ففرَّقوا بين المقامين بهذا القدر فاجتمعا والحمد للَّه في المعنى، واختلفا في اللفظ.

إذ هذا الطريق لا يتصور فيه خلاف في المعنى أصلاً، فإذا وجد فإنما هو راجع إلى الألفاظ خاصة، ولكنه في حقهم بالإضافة لمن آثر تسمية اللّه على اصطلاحهم، وقت غفلةٍ مرَّ عليهم لغلبة الغيرة عليهم فيرجا لهم بقصدهم تنزيه المقام وغيرتهم أن يحصل لهم ما حصل لأهل الحضور منا، والحمد للَّه المنعم المتفضل (هداية) حد العلم وحقيقته المطلقة، معرفة الشيء على ما هو عليه والمفيدة العمل به وهو الذي يعطيك السعادة الأبدية، ولا تخالف فيه.

وكل من ادَّعى علماً من غير عمل به، فدعواه كاذبة إن تعلَّق به خطاب العمل. وإذا تحقق ما أردنا وأشرنا إليه فليقل من شاء ما شاء، وكل حجة تناقض ما أشرنا إليه فداحضة، وعلى قائلها توبة من اللّه ومغفرة واللَّه غفور رحيم.

واعلم أن العلم نور من أنوار اللَّه تعالى، يقذفه في قلب من أراد من عباده قال اللّه تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: 122] وهو العلم، وهو معنى قائم بنفس العبد يطلعه على حقائق الأشياء، وهو للبصيرة كنور الشمس للبصر مثلاً، بل أتم

وأشرف، والعلماء فيه على ثلاثة أضرب: منهم من قال باتحاده بتعداده، ومنهم من قال بتوحيده، ومنهم من قال بتعديده.

وإن لكل معلوم علم، وأنه لا يتعلق أصلاً إلاّ بمعلوم واحد يعنون العلم الحادث، ومنهم من قال على الإطلاق، ومنهم من قال يتعلق بمعلومين، وثلاثة، وتعداده على نوعين يتعدَّد بتعدد المعلومات، وبتعدُّد بالزمان. وهذا لا يحتاج إليه في هذا الكتاب فلنقبض العنان وننظر في العلوم التي تقودنا إلى السعادة الأبدية.

باب ما يحتاج إليه من العلوم المرتبطة بالسعادة الأبدية في دار السلام

أجناس العلوم كثيرة منها: علم النظر، وعلم الخبر، وعلم النبات، وعلم الحيوان، وعلم الرصد، إلى غير ذلك من العلوم. ولكل جنس من هذه العلوم وأمثالها فصول تقومها وفصول تقسمها، فلننظر ما نحتاج إليه في أنفسنا مما تقترن به سعادتنا فنأخذه ونشتغل به، ونترك ما لا نحتاج إليه احتياجاً ضرورياً مخافة فوت الوقت، حتى تكون الأوقات لنا إن شاء اللّه تعالى.

والذي نحتاج إليه من فصول هذه الأجناس فصلان، فصل يدخل تحت جنس النظر وهو علم الكلام، ونوع آخر يدخل تحت جنس الخبر وهو الشرع.

والمعلومات الداخلة تحت هذين النوعين، التي نحتاج إليها في تحصيل السعادة ثمانية، وهي: الواجب والجائز، والمستحيل، والذات، والصفات، والأفعال، وعلم السعادة، وعلم الشقاء.

فهذه الثمانية واجب طلبها على كل طالب نجاة نفسه، وعلم السعادة والشقاء موقوف على معرفة ثمانية أشياء أيضاً، منها خمسة أحكام وهي: الواجب، والمحظور، والمندوب، والمكروه، والمباح. وأصول هذه الأحكام ثلاثة لا بد من معرفتها، الكتاب، والسنة المتواترة، والإجماع.

ومعرفة هذه لا بدَّ منها والناس في تحصيلها على مرتبتين: عالم، ومقلد لعالم، فإذا علمها الطالب وصح نظره فيها توجهت عليه وظائف

التكليف، فاختصَّت من الإنسان بثمانية أعضاء: العين، والأذن، واللسان، واليد، والبطن، والفرج، والرجل، والقلب. والعلم بتكليفات هذه الأعضاء هو العلم بالأعمال القائدة إلى السعادة، إذا عمل بها على حد ما نذكره في نجم الولاية عقيب هذا النجم.

وهذه العلوم يا بني، وفقك اللّه وشرح صدرك، تحتمل أن تكون هي الأنوار التي قال اللّه سبحانه فيمن عليها: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: 22] وقال فيها جلَّ اسمه: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ [التحريم: 8] وقال عليه الصلاة والسلام: بشّر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور يوم القيامة. وهذه الأنوار لها ثمانية ألقاب، ولكل رجال وهم ثمانية أصناف، ولهم ثمانية مقامات، ولها ثمانية ظلم، فأصحاب الشهوات في هذه الظلمات تائهون. كما قال اللّه تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: 17] وأصحاب الحضور والعناية في الأنوار ينعمون، فهم على نور من ربهم، وطائفة أخرى وهم أهل التخليط تارة مع النور، وتارة مع الظلمة، وهم المعترفون بالذنوب ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 102] شعر:

هزم النور عسكر الأسحار ... فأتا الليل طالباً للنهار

فمضى هارباً فرار خداع ... والتوى راجعاً على الأسحار

وهذه الأنوار تسبح في ثمانية أفلاك، ولها ثماني حركات وثمانية مشارق وثمانية مغارب، وثمانية مواسط، حيث نقطة الاستواء، وتقابلها نقطة الحضيض. فألقابها الشمس، والهلال، والقمر، والبدر، والكوكب الثابت، والبرق، والسراج، والنار، ورجالها ومقاماتها ثمانية، فالنور الشمسي لأهل المعرفة والهلال لأهل المراقبة، والقمري لأهل الاعتبار، والبدري لأهل المسامرة، والكوكبي لأهل المراعاة، والسراجي لأهل الخلوات، والناري لأهل المجاهدات، والبرقي لأهل العلم، أهل الاختصاص الجامعين للمقامات، وهم أهل الذات وهو لهم أرفع الأنوار وأعلاها، وهو لمح يخطر للعالم لا يثبت لقوته فإنه مهلك لكن فائدته عظيمة لمجيء رعدة الهيبة بعده،

وأمطار الأسرار، هذا إذا تجلّى هيبة، فإن تجلّى جمالاً، فهو الخلب.

فهؤلاء هم رجال هذه الأنوار وأحوالهم، وأما مقاماتها فثمانية، وأعني بمقاماتها مدلولاتها التي هذه الأنوار دلائل عليها، فمدلول البدر الدنيا الكبرى، ومدلول الكوكب الثابت الدنيا الصغرى، ومدلول السراج الجنة الكبرى، ومدلول النار الجنة الصغرى، ومدلول القمر جهنم الكبرى، ومدلول الهلال جهنم الصغرى، ومدلول الشمس صفات المعنى، ومدلول البرق صفات النفس. والكبر من هذه في العالم الإنساني والصغر في العالم الكبير فانظر وتحقق.

وظلمات هذه الأنوار ثمانية: فنور الشمس يزيل ظلمة النفس، ونور الهلال يزيل ظلمة الشك، ونور القمر يزيل ظلمة الغفلة، ونور البدر يزيل ظلمة الخيانة، ونور الكوكب يزيل ظلمة الجهل والشبهة ونور السراج يزيل ظلمة الوسوسة، ونور النار يزيل ظلمة الرعونة والكون، ونور البرق يزيل ظلمة التنزيه.

وأسرار هذه الأنوار كثيرة لو ذكرناها خرجنا عن المقصود من الاختصار. وهذا النور البرقي يغشى البصائر ويرمي صاحبه في بحار العجز والحيرة، لا يدرك بقياس ولا يحصل بمثال، ولا يرتقم في الخيال، هو السر الذي منعنا عن كشفه، وهو المانع نفسه بفردانيته في الوجود وتقديسه عن القياس والتشبيه، فلا يقوى أحد على التعبير عنه أصلاً لعدم اجتماع اثنين على معرفة المعنى الذي يليق به، وأنه متى أخذ رسماً تحسيس قياس وأمثال بعيد عن المقصد، كان وبالاً على صاحبه، وناقض ما كان في نفسه من التنزيه له، وصار الوهم عليه مسلطاً بالتقدير، فإن تعطش المريد لنيل هذا السر الموهوب، الحاصل بالذوق لأرباب القلوب الذي لا تستقل بإدراكه العقول، إذ لا توحيد كامل مع معقول.

وطلب الطريق الموصل إليه، وهو التخلق السماوي، والوصف الرباني، حتى يفنى كل كائن وغير كائن، وحينئذٍ بالحري أن يذوق إن بدت منه لائحة، أو تنسم منه رائحة على قدر محوه وإثباته وفنائه وبقائه، وما

يريده الواهب فيلتذُّ به إذ ذاك في نفسه، كذائق العسل مع عدم حساسة الذوق، فهو ناظر في ذات العسل غير عارف بمعناه وحده، فهل يتساويان في اللذة أبداً، ولو سودت له القراطيس أقيسة وأمثلة ما التذَّ لذَّة الذَّائق له، فكم بين رجلين في مشاهدة العيان مشتركين، وفاز أحدهما بلذَّة حقائق الامتنان، وفاز الآخر بمعنى وخسر المبطلون، واللّه ما سبق مقصر مجداً أبداً.

فما أشرف الإنسان من حيث هو مجتمع الموجودات، ومحل المضاهاة ومرآة المؤمن في الذات والصفات، وما أوضعه حيث عميَ من معاينة ما أخفي له فيه من قرة أعين، يا أسفاه ما أشقاه، إذا فاز بلذة سواه.

معرفة أفلاك الأنوار الثمانية على الكمال

اعلم يا بني وفقك اللّه بتوفيق المختصين بنور البرق الذاتي، أن لهذه الأنوار السماوية، والأقمار العلوية الروحانية، أفلاكاً من جنسها على أنواعها تسبح فيها ما دامت هذه الهيئة الإنسانية الفلكية، فنور المجاهدة يسبح في فلك معرفة عيوب النفس ودورانه من المشرق إلى المغرب، ونور الخلوات يسبح في فلك اتقاء الآفات ودورانه من المشرق إلى المغرب، إذ لو انعدمت الأغيار لم يحتج إلى خلوة وهي ظاهر الكون، فلهذا كان دورانها من المشرق إلى المغرب، وعلى الظاهر والباطن ينظر دوران هذه الأفلاك، فأصل حركات هذه الأفلاك من المغرب إلى المشرق، وأحكامها في الوجود من المشرق إلى المغرب. ولما كان الباعث على المجاهدة في ظاهر الكون المراد اهتمام القلب لحيازة السباق، شرع في تضمير الجواد العتيق،وترييض الصعب الفنيق، حتى يجوز قصب السبق في نشاوي الحق، ولهذا كان دورانه من المغرب إلى المشرق، ونور المراعاة يسبح في فلك ترتيب المعاملات، ودورانه من المشرق إلى المغرب ونور المراقبة يسبح في فلك محافظة الحدود، ودورانه من المشرق إلى المغرب ونور الاعتبار يسبح في فلك موازين الأعمال، ودورانه من المشرق إلى المغرب ونور المسامرة يسبح في فلك التدبير، ودورانه من المشرق إلى المغرب ونور المعرفة يسبح في فلك المشاهدة، ودورانه من المغرب إلى المشرق.

وهذه الأفلاك لها دورتان مختلفتان في أوقات، وكذا النور الذاتي وهو نور العلم، فإنه يسبح في فلك التوحيد وليس له مشرق ولا مغرب وهو أصل مادة الأنوار. كما قال تعالى: ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ [النور: 35] لكن يظهر نوره للذائق له المعاين المحقق، ونتيجته اتحاد الأشياء وفناء الكون عنده بالعلم، والحال على حسب ما تقتضيه الحقيقة، حتى يكون التوحيد موحداً ولا شيء معه كما كان وكالذي هو. ومثال طلوع الشمس من مغربها حيناً ما، ولهذا أعطيناه من أنوار الحسن البرق لسرعة زواله فيعود الغرب شرقاً وتشرق الجهات ولا يبقى مغرب، وإذا انتفى المغرب انتفى ضده من حيث هو مشرق لا من حيث ذاته، هكذا المشاهدة في الفنا من حيث أمر ما لا من حيث الذات.

ولما كانت أبواب التوبة تغلق عند ذلك ولا يرتفع عمل، كذلك الذّائق لهذه الحقيقة، يذهب رسمه ويزول تكليفه وتفنى ذاته إذ حقيقة المقام تعطى ذلك، فإذا رُدَّ لعالم الكون بالتبليغ على أي وجه كان، صار حاله في حضرة التفريق متحركاً، وحقيقته هناك ساكنة كشفاً وعلماً كما هي رسماً وحكماً.

معرفة أحكام هذه الأفلاك الروحانية

اعلم يا بني أن لهذه الأفلاك حركات وهي دورانها الذي ذكرناه، وينبغي لك أن تعرفها حتى تضع كل حركة على فلكها، إذا تخلقت بها واللّه الموفق. فاعلم أن حركة معرفة عيوب النفس المسارعة إلى الخيرات، وحركة فلك اتقاء الآفات المسابقة إلى مجالس العلماء، وحركة فلك ترتيب المعاملات المبادرة إلى معرفة الأوقات، وحركة فلك محافظة الحدود المجاراة إلى الوفاء بالعهود، وحركة فلك موازين الأعمال الانتهاض إلى محاسبة النفس، وحركة فلك التدبير الاستعداد إلى التلاوة بتفريغ الخواطر، وحركة فلك المعرفة دوام الإخلاص.

وأما حركة النور العلمي الذاتي فكون دائم، ولكن هو الكون الذي هو ضد الحركة، بل هو سكون تنزيه وتقديس، فإن أضيف إليه يوماً ما حركة على جهة ما في حق من جهل الحقيقة، فتكون حركة إفاضة ورحمة وغفران

ووهب. كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: 22] وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: 210].

وينزل ربنا إلى سماء الدنيا وأشباه ذلك معرفة مشارق هذه الأنوار ومواسطها في الاستواء والحضيض ومغاربها.

اعلم يا بني، أن هناك الاختصاص الإلهي والإحتفاء والاعتناء، نبأناك أن لهذه الأنوار كما ذكرنا مشرقاً ومغرباً ومتوسطاً، وهي نقطة الاستواء ونقطة الحضيض تقابلها في دورة الفلك، فمشرق نوره المجاهدة النحول ومتوسطه الصمت ومغربه الخرس. ومشرق نور الخلوات الأطراق في المحافل، ووسطه القدح والانفصال عنها، ومغربه الأنس في كل الأحوال. ومشرق المراعاة الابتهال في الدعاء، ومتوسطه الإجابة إلى الإجابة، ومغربه الأدب. ومشرق نور المراقبة إمساك الجوارح عن المحارم، ومتوسطه إمساك النفس عن المباحات، ومغربه إمساك القلب عن طوارق الغفلة والكون غفلة فافهم. ومشرق نور الاعتبار السياحة في البلدان، ووسطه الهرب إلى الآكام، ومغربه الوجود في أي موضع كان، ومشرق نور المجاهدة الصدق في التهجد، ومتوسطه الالتذاذ بسماعه، إياك ومغربة تلاوته عليك. ومشرق نور العلم الولاية، وموسطه النبوة، ومغربه الرسالة.

الفلك الخامس الإيماني

المطلع الثاني العياني

هلاك محاق طلع بنفس الإمام المدبر، في عالم الجبروت والملكوت فاهتدى، ألم يعلم الشيخ الإمام، أنه لما اجتمعت الأنوار في نادي المساجلة، وأخذوا في المناضلة، وأنصت الجمع وأُلقي السمع، أخبروا أُولي المعاينة والفهم أنه ما طاش لأحدهم سهم إلاَّ بحمد اللّه أصاب القرطاس، وأقام العدل في افتخاره والقسطاس، وأول قائم الشمس فاظهر ما في النفس، صعدت الشمس، على منبر القدس، ونالت شمس أشرقت النفس، أنارت الحس في الليالي الدنس، تعالت عن الجنس تجلّت في حضرة القدس،

أنكره الأُنس لما وقع اللبس، وجلست بأضيق جلس، قيِّدت باليوم والأمس كيف اللمس، جاء ندى الهمس، يدخل أكرم بعل بأطهر عرس، في بيت القدس، كفرت العرب وآمنت الفرس، إذ هم الفصحاء الخرس، واللّه أعلم حيث يجعل رسالاته من الحمس:

شمس الهدى في النفوس لاحت … فأشرقت عندها القلوبُ
يا حب مولاي لا تولّي … عني فالعيش لا يطيبُ
لا أنس يصفو للقلب إلاَّ … إذا تجلَّى له الحبيبُ
الحب أشهى إليَّ مما … يقوله العارف اللبيبُ

ثم نزل وصعد الهلال على منبر الوصال وقال: هلال أهلَّ فأزال منه شبهة الاتصال بالمتعال، ببرهان الانفصال، فظهر المثل في المثال، كالآل وشبهة كالسراب واللآل، فيما يعطيه الخيال، فصال وتحكم وطال، وتكلم فأطال كلام عال، عذب زلال، سحر حلال، السابقة والمال، سياق حال شيئان عند الرجل، لا تنال إلاَّ بصفاء الأحوال، ونتائج زكيِّ الأعمال، وعلى الأعراف رجال في ميدان القتال، يوم تُدعى نزال، عند ميلان الظهيرة والزوال، فالزم يا بطَّال، مقارعة الأبطال، ولا تشتغل بالمحال، إن أردت أن تكون من أهل الوصال:

أهلَّ هلال شهر الصيام … وشهر الزكاة وشهر القيامِ
فصام الحليم عن اسم الصفات … وأفطر ذاتا بدار السلامَ
وقال أنا الحق فاستمتعوا … بنور التجلِّي وحسن الكلام
تعالى الهلال بأوصافه … على بدره الفرد عند التمام

ثم نزل وصعد القمر على المنبر الأزهر، وقال: قمر طلَّ فنوَّر، وتكلم فسحر، ونظم ونثر الجواهر والدُّرر، أنا السر الأكبر، والبرزخ الأظهر، صاحب المقام الأزهر، والنور الأبهر، اللّه أكبر سبحاني سبحاني لا أكثر، نظر الناس فاعتبر جمالاً قد بهر، وجلالاً قد غمر، كل من شاهد ونظر، عمن تكشف أو استتر، أو ستره القدر، العلم سرِّ القدرَ، والمعرفة نتيجة الفكر نفس تُقبَر، وشر يقهر، وروح يزهر حمل الكل، فمر على ذات ألواح

ودسر، فالتقى الماء بالعين على أمر قد قدر، فهي تجري بأعيننا جزاءً لمن كان كفر، جسم عبر لما قبر، روح بهر، تبكي درر على العين جاء الخبر، عند السحَر، ما ينتظر يا روح سر المقتدر، إن السفر عن البشر حيث السرر، عش في نهر على سرر، يوم أعز ظلٍّ نثر على الزهر، لا ينتظر من قال شرَّان الأشر، إذا بطر يُصلّي سقر، ثم أنشد ذلك:

قمر شاهد الغيوب عياناً | بين جسم وبين روح دفينِ
وحباه الإله منه بعلم | لم ينله بعد المطاع المكين
عبرة فانعموا بما لاح فيكم | من سناه البهيج عند السكون

ثم نزل وصعد البدر على المنبر وقال: بدر بدا في الصدر وقال: أنا الجليل القَدر والبيت اليتيم الندر، ذو الرداء الغمر، لست ببكر ولا عمرو قربي فاسود الشهر، قابلني كاتب الليالي الغر أضاءت بي انكسار الفقر، تحدثَت الأعراب في الليالي القَمر، يميني اليُمن ويساري اليُسر، أنا قائد الزهر صاحب المدّ والجزر، أمددت النهر كان الكثر على أنه النزر توالى البرُّ، صحبني الكبر، سدل الستر، قلت أنا الغمر، أعطيت الصبر، اعترفت بالفقر، قيل له العذر، جاء البشر، صحوت من السكر، صارت القيمة كالظهر، قمت بالسكر بقية العمر، إلى من له الخلق والأمر، ثم أنشد:

البدر في البحر لا يجارى | وفي تناهيه لا يحدُّ
صحَّ له النور من بعد محوٍ | ثم إليه يعود بعد
سرائر سرَّها ثلاث | رب مليك والله فرد
في المحو صحت له فأثنت | عليه لما أتاه يعدو
وجابَها في التمام رباً | ثلاثة طينهن عبد

ثم نزل وصعد الكوكب على المنبر المركب وقال: كوكب طلع ولم يتنكب عن الطريق بالمذهب، توسط المركب، ذهب في كل مذهب، من أبقى وأذهب، وتولَّع بذات ريق أشنب، أعذب من جآذر الربرب، انصَبَ قلبه وأتعب قلب تقلَّب، ودمع يسكب، يسيل ويرغب، في تقضّي لبانات الفؤاد المعذب، قيل له تطيب في كل مشرَب، وحينئذٍ تغرّب، وإلاَّ فشرَّق وأغرب،

تحيَّر في المطلب، بين أن تقرب أو تغرب، فالطراز مذهب جزع لم يثقب، قرطاس لم يكتب، عجب لمن تعجب، وقع الترجيح كذب، رمته الشهب بين جد ولعب، نطقت بتعيينه الكتب، كما لم يترتب بسبب، كذب خاف الريب، كذب حين انتخَب، حنق وغضب لما غيِّب، برز في أثوابه القشب، أتاها بجميع القرَب، وقف موقف سلب، سأل الإقالة من العطب، نظم وخطب صب رغب، اعترف بالنقص والكذب من آل القرب، هام في العرب جابر ثقَب، جدَّ عليه بما طلب، خرج إليه منتقب، قصّر ولا تطنب، أوجز ولا تسهب، دَعيت فأجب، سلِّم بما يجب، أضمم إليك جناحك من الرهَب، فذانك برهانان من ربك يا كوكب فاقترب، ثم أنشد:

كوكب قال بتنزيه نفسه | فرماه العجب في سجن رمسه
طلعت حكمة مولاه ليلاً | بمحياه فأودت بنفسه
فشكى الكوكب وجداً وشوقاً | سناها عند أبناء جنسه
قيل يا حكمة هذا محب | حاكم يرغب وصلاً بخمسه
قبضتها وأتت في جلاها | نحو باريها وحطت بقدسه
ودعته فأتاها مجيباً | يا محباً يشتهينا لنفسه
أشكر اللَّه على كل حال | وانسَ ما يسلك هذا بعرسه

ثم نزل وصعد النار على منبر الأنوار وقال: يا نار أحرقت الأغيار، ومحوتِ الآثار، وخرقت الأستار، أظهرت الأبكار، كشفت الأسرار، لأهل البصائر والأبصار، وسرّ في الأوار، لا يعرفه الدمع المدرار، لو أنار ما تعذب عاشق بنفار، ولا تنعم بقرب مزار، ولا باتصال ديار، ولا بكى الأطيار، ولا ندب الآثار، وجب السرار لهذه الأنوار، فإنها محل الأسرار، فأنوار التجلّي لا تصحّ مع الأغيار، إلاّ للمحبين الكبار، ثم أنشد:

النار تضرم في قلبي وفي كبدي | شوقاً إلى نور ذات الواحد الصمد
فجدْ عليَّ بنور الذات منفرداً | حتى أغيب عن التوحيد بالأحد
جادَ الإله به في الحال فارتسمت | حقيقة غيِّبَت عقلي عن الجسد
فصرت أشهد في كل نازلةٍ | عناية منه في الأدنى وفي البعد

ثم نزل وصعد السراج على منبر الابتهاج وقال: هدي ذي اعوجاج استضاء به التاج، سلك الفجاج، في ظلمة الليل الداج، كان له أقوَّم معراج، إلى مقام الابتهاج، أعطى الإكليل والتاج، وقيل اسكن في قصر الأمشاج، حتى تعلم حكمة الازدواج، ولطف ذات الكاس بالابتهاج، واغسله بماء الثجاج، حتى يمتزج صفا السراج بصفا الزجاج، فإذ أحسن المزاج، صحَّ النتاج، ولاحت أنوار الاختلاج، وكان لمصباح الحكمة ابتهاج، بالمقام المحمدي التاج:

سرج العلم أسرجت بالهواء لمراد بليلة الإسراء
أسرجتها عند العشاء لديه طالعات كواكب الأنواء
فاهتدى كل سالك بسناها من مقام الثرا إلى الاستواء
ثم لما توحدوا واستقلُّوا ردأ علاهم إلى الاهتداء
هذه حكمة المهيمن فينا بين كافٍ وبين دالٍ وباء

ثم نزل وصعد البرق على منبر الصدق وقال: برق لمع في جو الفرق، سلطانه المحق يليه الصعق، إن ومض في الصدق، أظهر الرتق، وإن ومضَ في النطق أظهر الفتق، يتردَّد في الخلق، بين غرب وشرق، وحقيقة وحق، هو سر ذاتية الحق، خدم الأنوار بالملك والرق، يزيل الزلق، ويذهب العشق، ويجود بالعتق، فهو في حلبة الأنوار حق، حائز قصب السبق، ثم أنشد:

لمع البرق علينا عشا وكمثل الصباح ردَّ المساء
وسطى باسم الحكيم وأخفى زمن الصيف وأبدا الشتاء
زرع الحكمة في أرض قومٍ وكساها من سناها البهاء

الفلك السادس الإحساني

المطلع الثالث الإلهي، مطلع هلال ارتقاب، طلع بروح الإمام المدَّبر في عالم برزخ الرحموت والرهبوت، فأضلَّ وهدى يا ليت شعري هل صرح الحكيم في بستان مشاهدته بحمامتين مطوقتين، تجاوبتا في صورة المثاني، وليس سرُّ أحدهما مغاير للثاني، في درجة الروضة الغنَّاء، الصاعد على

كشف الغطاء، والنازل لتعليم الأدباء، فصعد الواحد على حدِّ الاستواء، وترك الآخر إلى مستقر الماء، فتناولا حقائقَ الأشياء، الصاعد على كشف الغطاء، والنازل لتعليم الأدباء، ومن يطيق بها العظمة والكبرياء، إلاَّ بلطف اللطيف الأرجاء.

ثم كرَّ النازل راجعاً، والصاعد جامعاً، والتقيا في الهواء، وتعانقا تحت منطقة الجوزاء، وتناجيا على الكثبان العفر في الليلة القمراء، بظلال الأوفياء، واجتمع إليهما ملأ الأرض والسماء، حتى ضاق متَّسعَ البطحاء، فقام الصاعد خطيباً على منبر الطرفاء، بلسان الاهتداء، إلى العبيد والإماء، أهل المودة والصفاء، وأهل الأهواء، فسقطت كواكب الأنواء، على قلوب العلماء، فأمطرت معارف الكيمياء، ومعالم السيمياء.

وقام النازل خطيباً على منبر سدرة الانتهاء، وقد تأخر عنها أمين الأمناء، أتى النور الثامن المستور في مضاهاة النظر، فالزموا معشر الملائكة والأنبياء، وأهل المعاملة من الأولياء، قارعة السبب، فأمطرت كواكب الآلاء، في ألسنة الشهباء، على قلوب النجباء، والعالمين من النقباء والبدلاء، بمعارف حقائق الفناء، ومعالم تصحيح البقاء، في اللقاء، ثم انصرف الجمع على محجة الأتقياء، إلى يوم الجمع والقضاء، واجتمع الطائران من بعد بالصعدة السمراء، واكتنف العوالم على السواء، وظهر الواحد وبطن الآخر من غير تدانٍ ولا تناء.

فانظر يا أخي إلى عالم الأبناء، تعش عيشة السعداء، فقد لعبت بك يد الأهواء، واسمع ما سامرتني به بمنزلة العذار في جوزاء السماء:

قمر الكوكب السعيد أمامي عن هلالين طالعين أمامي
فإذا استقبلا إليَّ جميعاً كنت سر الليالي والأيام
فإذا أدبرا بقيت وحيداً ساهراً لا أذوق طعم المنام
ذاك نور الوجود بالحق يسعى من وراء به ومن قدامي
يوم قبري ويوم حشري لربي وبه همَّتي ومنه اهتمامي
إن سرِّي وإن سرَّ حبيبي واحد أول وعند الختام

هو غيري إذا بُعثت رسولاً ... هو ذاتي لقدس دار نظام
خادمي نوره الذي كان عندي ... والذي عند من هويت غلامي
يا أخي التفت لحالك وانظر ... في وجودي بطرفك المتعامي
تر غيري إذا افترقت أمامي ... وإذا ما اجتمعت كنت أمام

معقل أنسه

ليت شعري هل أشهد الحكيم للمهيمن الخلاَّق، صفو إشراق، ذوات أطواق، عاشا في ارتفاق، سر عاشق توَّاق، ومعشوق ذوَّاق، حل الإملاق، زال الإشفاق، وقع الفراق، نادت الأشواق، دمع يراق، ونفس في التراق، ومن لي واق، قول غير مصداق، نزلت واحدة لماءٍ مهراق، إماطة الأخلاق، وارتفعت الأخرى على جواد طراق.

انفجرت الطباق، وهبَّت وثبتت مفاتيح الأخلاق، فتحت الأغلاق، فدخلت في المحاق، أعطيت الأشراق، ثلاث مقامات على اتساق، ساقت الأمر أحسن مساق، تحلَّت بالإنفاق، وقع الإطراق، سوَّدت الأوراق، امتطيت الأعناق، وقع السباق، التفَّت الساق بالساق، فإذا السباق لساق المساق، زجَّ البراق، خرج عن الطباق، التقت الأحداق، تذكَّر عهد وميثاق، كان التلاق، اتَّحد الافتراق، وقع الاتفاق على ترتيب الإنفاق، وجه نجمٍ براق، لصيحة مالها من فواق، همت سحب بغيداق، حلَّت الوثاق، جَادت بالإطلاق، حصل العناق، نبتت الأوراق، درَّت الأرزاق، شنشنة أعرفها من رزَّاق:

جسم بلا روح ضجيج الردى ... غصن ذوى يابس أورقا
روح بلا علم وهي بيته ... لرؤية الأغيار إذ أخلقا
افتقر الكل إلى جوده ... أهل الأباطيل ومن حققا
فوجه الأنوار سيَّارة ... أنارت المغرب والمشرقا
فأشرق الجسم بأنواره ... وأظهر الأسرار إذ أشرقا
فالحمد للَّه الذي قد وقى ... من شرِّ ما يحذر أو يُتقى

المرتبة الثالثة

في عمل الولاية

الفلك السابع الإسلامي، الموقع الثالث العملي، موقع نجم ولاية وقع بقلب الإمام المدبر في عالم الشهادة وقعنا قال اللّه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [الزمر: 74] أخبر تعالى، أن أصحاب الأعمال الحافظين حدود اللّه، الموفّين لما عاهدوا اللّه عليه، المشتغلين بكل عمل، توجه عليهم منه في أوقاتهم، أن لهم الآخرة والأولى، أعطاهم ملك الدارين ونزَّههم في العاملين، وذكرهم بلسان صدق فيمن عنده، وفي كتابه العزيز: منة وطولاً واللّه ذو الفضل العظيم.

فاعلم يا بني أصلح اللّه شأنكم، أن اللّه تعالى ما أثنى على أحد من عباده في كتابه العزيز، ولا على لسان نبيه في حديثه، إلاً كان الثناء عملاً من الأعمال، ما مدحهم إلاً بأعمالهم، فأعمالهم هي التي ردّ سبحانه وتعالى عليهم، مع تولّيه لهم فيها وهذا غاية الكرم والجود، أن يمنحك ويعطيك، ويثني عليك بعد ذلك بما ليس لك.

فإنه سبحانه آخذ بناصيتك، قائدك إلى كل فعل أراده منك، أن يوجده فيك وعلى يدك، وأنت في غفلة لا تشعر. فمن شعر بتولّي الحق سبحانه وتعالى له في أفعاله، فهو من الذين قال اللّه تعالى فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: 23] لأنهم في مشاهدة الفاعل ومناجاته، ومن لم يشعر، فهو من الذين قال اللّه تعالى فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: 5].

فيقول العبد صليت وصمت، وتصدَّقت وجاهدت وعملت، وسابقت

إلى الخيرات، وشهدت الجماعات، وقد استغرقتك المنن، وسبحت في بحر نعم إلهية لا ساحل له، والله لو فتح لك باب إلى مشاهدة تولّيه لك فيها، وأخذه بناصيتك إليها، لبهرك المقام ولخرست، وما أعطاك الحال أن تقول صليت ولا صمت، ولا كتبت عن نفسك بشيء من هذه الأفعال.

ألا ترى الخليل ﷺ وقوله في هذا المقام: الذي خلقني فهو يهديني، والذي هو يطعمني ويسقيني، وإذا مرضت فهو يشفيني. فانظر إلى أدبه في قوله في مرضه مرضت، وانظر إلى الحكمة النبوية في يقظته، حيث قال: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: 82].

فابحث تولاك الله بما تولّى به عباده الصالحين، فطائفة أثنى عليهم بالتقوى، وطائفة بالإيمان، وطائفة بالعلم، وهو من جملة الأعمال فقال تعالى: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: 133] ثم فصَّل أعمالهم اعتناءً بهم، وشرفاً وتعليماً لنا، وهداية وبياناً وموعظة فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: 134] الآيات.

وقال تعالى: ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [الحديد: 21] فما وصفهم لما وصفهم إلاَّ بأعمالهم التي خلق لهم، ثم أنه سبحانه وتعالى ما نصَّ على مقام يناله العبد عنده، إلاَّ قرنه بالعمل الصالح كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [يونس: 63، 64] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: 30].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾ [القمر: 54] في حق أصحاب الرسول ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ [القمر: 55] كناية عن أصحاب الهمم ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ [القمر: 55] كناية عن العلماء، وهم الأقطاب والرسل والورثة، إلى أمثال هذه الآيات النيرات.

فقد شاء الله سبحانه وتعالى، أن لا تنال المقامات على تفاضلها، بتفاضيل بعضها على بعض إلاَّ بالعمل، فإن قيل قد يرتقي الإنسان بالبلاء

مقامات، لا يوصله إليها عمل والبلاء ليس بعمل، وهذا غلط، فإن البلاء ا
يعطي مقاماً أصلاً، ولا يرقى أحداً عند الله درجة.

ولو كان البلاء بما هو بلاء، يرفع درجات من قام به عند الله، وينال ب
السعادة الأبدية، لنالها أهل البلاء من المشركين والكفار، بل هو في حقه
تعجيل لعذابهم كما قال تعالى في المحاربين: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّ
وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّ
خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [المائدة: 33] ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِ
ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: 33].

فما يعطى لأهل البلاء مقامات، إلاَّ بالصبر عليه والرضى به، كل عل
حسب مشربه، والصبر والرضى من جملة أعمال الأحوال المشروعة لن
المأمور بها شرعاً كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النحل: 127
وما يكون الصبر إلاَّ على بلاء ومشقة، وأصل والسعادة الجامعة، موافقتن
الحق تعالى فيما أمر به، ونهى عنه شرعاً كما تقدم في نجم العناية، وموافقت
توحيداً في باطنه ببقاء الأغيار، وتلك الموافقة عناية من الله ببعض عباده.

ولكنه يا بني، ينبغي للعبد أن يعتقد، أن أعماله لم توصله إلى نيل تلك
المقامات، وإنما أوصله إلى ذلك رحمة الله، الذي أعطاه التوفيق للعمل
والقدرة عليه والثواب، فحصول السعادة، أعني دخول دار الكرامة ابتداءً
إنما هو برحمة الله تعالى قال ﷺ: «لا يدخل الجنة أحد بعمله»، قيل: ول
أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلاَّ أن يتغمدني الله برحمته.

فالدخول برحمة الله، وقمة الدرجات بالأعمال، والخلود بالنيات
وهذه ثلاث مقامات. وكذلك في دار الشقاوة دخول أهلها فيها بعدل الله
وطبقات عذابها بالأعمال، وخلودهم بالنيات، وأصل ما استوجبوا به العذاب
المؤبد المخالفة، كما كانت السعادة للموافقة. وكذلك من دخل من العاصير
النار، لولا المخالفة ما عذَّبهم الله شرعاً، نسأل الله تعالى لنا ولك ولجمي
المسلمين، أن يستعملنا بصالح العمل ويرزقنا الحياء منه تعالى.

واعلم يا بني، أسعدك الله تعالى سعادة من اصطفاه، أنه أول ما يجب

عليك إن رزقت الموافقة والتوفيق، العلم بالأمور التي مهدناها لك في نجم العناية، فإذا علمتها، توجه عليك بها خطاب الشارع، وإن كان طالب العلم في عمل من حيث طلبه، ولكن يعطيك العلم أنوار أُخر، يتوجه عليك بها خطاب الشارع.

كما أن العلم لم يصلح طلبه إلاً بالعلم، فمن حصل له العلم بالأحكام التي يحتاج إليها في مقامه، فلا يكثر مما لا يحتاج إليه. فإن التكثير مما لا حاجة فيه، سبب في تضييع الوقت عما هو أهم، وذلك أنه مما يعوَّل، أن يلقي نفسه في درجة الفتيا في الدين، لأن في البلد من ينوب عنه في ذلك، حتى لا يتعين عليه طلب الأحكام كلها في حق الغير، طلب فضول علم فيأخذ منها ما توجه عليه في الوقت.

من علم تكليف ذلك الوقت، والعلم الذي يعمّ كل إنسان، في الحال عند البلوغ على أحد أنواعه وشروطه من الإسلام، وسلامة العقل علم العقائد بواضحات الأدلّة، إن كانت فطرته تعطى الأدلة والنجح فيه، ومن لم يكن ذلك في فطرته وكان جامداً، يخاف عليه إن فتح له باب النظر، لا يراد شبهات الملحدة.

فمثل هذا يعطى العقائد تقليداً مسلمة ويزجر عن النظر إن أراده في ذلك العلم بأشد الزجر، فإذا صحّت عقيدته بالعلم أو التقليد يعرف بقواعد الإسلام، فإذا عرف ترتب عليه أن يعرف أوقات العبادات، فإذا دخلت عليه وقت الصلاة مثلاً، تعين عليه أن يعرف الطهارة، وما تيسر من القرآن، ثم يعلم أن لا يحتاج إلى غير هذا.

فإن أدركه رمضان، وجب عليه أن ينظر في علم الصيام، فإن أخذه الحج، وجب عليه حينئذٍ علمه، فإن كان له مال وحال عليه الحول، تعين عليه علم زكاة ذلك الصنف من المال لا غير.

فإن باع أو اشترى، وجب عليه علم البيوع والمصارفة وهكذا سائر الأحكام، لا تجب عليه إلاً عندما يتعلق به الخطاب، فذلك وقت الحاجة إليها. فإن قيل: يضيق الوقت عن نيل علم ما خوطب به في ذلك الوقت

قلنا: لا نريد عند حلول الوقت المعين، وإنما نريد بقربه، بحيث أن يكون له من الزمان، قدر ما يحصل له ذلك العلم المخاطب به، ويدخل عقبه وقت العمل.

وهكذا ينبغي أن تقرأ العلوم، وتنظر المعارف، ويربط الإنسان نفسه بما فيه سعادته ونجاته، ولا يكون ممن قال سبحانه وتعالى فيهم: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: 1]. ليقال فقد ذم اللَّه ذلك في كثير العلم وقليله، وليعمر أوقاته بما هو أولى به، وليحذر العبد أن تفتح له خزائن الغفلات، أوقات تصرفه في المباحات، وليملأها بالذكر وأشباه المندوبات، وهذا لا يصح له ما لم يعرف الواجبات، حتى يسارع إليها ويؤديها، والمحظورات حتى يجتنبها، والمندوبات حتى يرغب فيها، والمكروهات حتى يحفظ نفسه منها، والمباحات حتى يتعوذ باللَّه من الغفلة.

وتحقق هذه المعاني التي هي أهم أحكام أصول الفقه، ويعرف أيضاً ما تحت كل واحدة منها على التشخيص مما يلزمه كما تقدم، ومعرفة هذا من كتاب اللَّه وسنّة رسوله ﷺ وإجماع العلماء. فإذا عرفت هذا ولازمت العمل فأنت الموفق السعيد.

واعلم أنه إذا تقرَّر هذا عندك، فإنه ينبغي لك أن تعرف، ما يعمّ ذاتك من الأحكام، وما يخصّ وأريد بالعام لذاتك كل عبادة دخلت فيها، حرّم عليك التصرف في غيرها كالصلاة. وأريد بالخاص كل عبادة تختصّ ببعض الجوارح دون بعض، أو كل عبادة لا تمنعك من إتيان بعض الأفعال المباحة.

واعلم أن عدد الأعضاء المكلَّفة ثمانية وهي: العين، والأذن، واللسان، واليد، والبطن، والفرج، والرجل، والقلب. فعلى كل واحد من هذه الأعضاء تكليف يخصّه بأنواع من الأحكام الشرعية، ثم تصرّفها على الوجه الشرعي في محلّين خاصة، إما في ذاتك، وإما في غير ذاتك، فالذي في ذاتك ما يلحقك عليه المذمة الشرعية، أو المحمَدة عند اللَّه تعالى.

فالمحمودة كالصلاة والصوم وما أشبههما، والمذمومة كضربك نفسك بسكين لتقتلها. ومنها مالا يلحقك فيه مذمة ولا محمَدة كصنف المباح، ولا

يجوز لك هذا الفعل إلاَّ في ذاتك. وأما في غير ذاتك فلا إلاَّ بشرط، فالذي لذاتك كنظرك إلى عورتك، والذين هم غيرك ثمانية أصناف خارجون عنك، الولد، والوالدان، والزوجة، وملك اليمين، والبهيمة، والجار والأجير، والأخ الإيماني، والطيني.

واعلم أن اللّه تبارك وتعالى، إذا أيدك بالتوفيق للعلم والعمل على الإخلاص، فتح عليك باباً إلى ملكوته، يمنعك مشاهدة ما تجلّى لك وراء ذلك الباب، من طوارق الغفلات، والرجوع إلى عالم الشهوات، واشتغلت بموارد الحق عليك، من لطائف وأسرار وكشف حقائق. وذلك هو علم التدلّي وعلم التلقي.

فاسرح في تحصيله بمداومة الذكر والخلوة، وطيب الأطعمة وقلة الأكل، والورع في النطق، وتصرف القلب في فضول الخواطر، ولتستجب نفسك تحت أمر آمر، يأمرك وينهاك، وتلمذ له واتخذه شيخاً مرشداً، فإنه لم تجر أفعالك على مراد غيرك، ولم يصح لك انتقال عن هواك.

ولو جاهدت نفسك عمرك بما ترتبه عليها، وإن صعب لم تزل عن هواها، فإنها المترتبة على نفسها، وإن فتح لها في لطائف المشاهدة وضروب المكاشفة، لم تزل بذلك عن رعونتها ورياستها، إلى ما لا يمكن خروجها منها، إلاَّ بالانقياد إلى طاعة نفس أخرى مثلها، وتصرفها تحت أمره ونهيه، وذلك لكثافة حجابها وعظم إشراكها، حتى ترتقي إلى الأمر على الإطلاق، ويكون ذلك سلّماً لها إليه.

ولذلك قال المحقق: كل عمل لا يكون عن أثر فهو هوى النفس، وآخر ما يخرج من قلوب الصدِّيقين حب الرياسة. وقال الحق لأبي يزيد البسطامي في بعض مشاهدة معه، تقرب إليَّ بما ليس لي، الذلة والافتقار، وهذه إشارة إلى إزالة الرياسة. فاسع يا بني في طلب شيخ يرشدك، ويعظّم خواطرك، حتى يكمل ذاتك بالوجود الإلهي، وحينئذٍ تدبّر نفسك بالوجود الكشفى الاعتصامي.

باب علامات من تحقق بأعمال أعضائه الشرعية

اعلم يا بني، أنه من ادّعى مراعاة التكليفات المتوجهة عليه شرعاً، في بصره علامته، الغض عن المحرمات والإطراق، وقاية عن النظرة الأولى المعفو عنها، وكل عمل توجه عليه في بصره شرعاً، ومن لم يشاهد في أحواله مثل هذا فدعواه كاذبة، ومن ادّعى مراعاة التكليفات المتوجهة عليه في سمعه، علامته ما قال اللّه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر: 18].

وسماع العلم، ومواظبة مجالس الذكر، والعمل بكل خير يسمعه، وكل من ادّعى هذا المقام، لم يزل يحن إلى الأوطان والحداة، وعلامة صدق حنينه إليها العمل، بما يسمع على قدر الاستطاعة، فمن نوديَ من جهة قد تعشق بها، وكلف لكونها منزل حبيبه، حنَّ إلى ذلك النداء، فمن ناداه حبيبه من جهات، حنَّ إلى تلك الجهات، ولم يرَ بها بدلاً، فمن ناداه الحق من الخلوة، حنَّ إليها فاستوحش من المخلوقات، وآثرها على جميع المقامات، ومن ناداه من الحكم يباشر الناس ولا يباشرونه، ومن ناداه من التأثيرات المرقية، يباشره الناس حتى يؤذوه.

وكل صاحب مقام فرح بمقامه مسرور به، يدعو نفسه وغيره إليه كل حزب بما لديهم فرحون، بخلاف المكمل، فإنه لا يحنّ إلى مقام أصلاً على الاختصاص، ولهذا لا يقتصر على مقام، وإنما هو صاحب الوقت، ورئيسه جامع الحكم، لا يدعو غيره أبداً، إلاً من حيث يرى قوته تميل إليه، فمن هناك يدعوه، إما بالموافقة أو بالمخالفة على ما يرى أنه حسب الأصلح به، ولا يدعو نفسه إلاً من حيث حكم الوقت.

ومن ادَّعى مراعاة التكليفات المتوجهة عليه، في لسانه علامته قلة الكلام، إلاَّ فيما يعرض عليه من نصح وتبليغ رشد وغيره، ودوام الذكر واسترساله على التلاوة، إن كان من أهل القرآن، وصدقه في الحديث، وخجله إن كان من أهل الإلقاء، فيما يخبر به عن الحق، وبطؤه في الجواب عن المسألة إذا سألها. وإذا سأل أن لا يسأل، إلاَّ فيما فيه فائدة سعادة وأشباه ذلك.

ومن ادعى مراعاة التكليفات المتوجهة عليه، في يده علامته، أن لا يبطش بها في محرَّم من لمس امرأة لا تحلُّ له، أو قتل إنسان ولطمه، أو سرقة، أو لمس ذكره بيمينه عند البول، وأن لا يستنجي بهما، وأن لا يدخلها في الإناء عند القيام من النوم، أعني في وضوء وأشباه ذلك.

ومن ادّعى مراعاة التكليفات المتوجهة عليه، في باطنه علامته الورع، والاكتساب، والبحث عن الكسب، وإذا أكل، لا يمتلئ من الطعام ولا من الشراب، حذَراً من كسل الجوارح عن الطاعة والإيسار بقوله، فما ملئ وعاء شر من بطن، ملئ من طعام حلال.

ومن ادّعى مراعاة التكليفات المتوجهة عليه في فرجه، فعلامته الحفظ من التحرك إلى غير أهله من أحرار وإماء، وهو أمر يقع في قلب العبد، المعتنى به على حسب مقامه، فيسمّى ذلك الأمر في حق شخص خوفاً، وفي حق شخص قبضاً، وفي حق شخص هيبة، وفي حق شخص جلالاً، هذا مع الحضور إن كان غائباً كان في حقه إما سكراً، أو محواً، أو محقاً، أو فناً، على اختلاف المقامات:

وهذه كلها على تفاصيلها إذا تحقق شخص ما بأحدهما، منعته قطعاً من أن يتعدى حدود سيده ومولاه، وأن لا يراه حيث نهاه، ولا يفقده حيث أمره، فإذا شاء سبحانه إنفاذ قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: 38] على عموم الأفعال في العبد بإيقاع ذلّة ما منه، قبض عنه ذلك المقام بغفلة تحصل مكانه، حتى ينفذ فيه الأمر، ويجري عليه القدر بما أراده الحكيم.

قيل لأبي يزيد: أيعصي العارف فقال: وكان أمر اللّه قدراً مقدوراً.

ثم يرد إلى مقامه بعد ذلك، إن كان من أهل العناية والوصول، فتكون توبته من ذلك على قدر مقامه، فيرجى أن يكون في قوة تلك التوبة، وعلو منصبها ما يجبر عليه وقت الغفلة، حتى تكون له وكأنه ما خسر شيئاً. وما انتقل كتوبة ماعز، الذي قال فيها رسول اللّه ﷺ لو قسمَت بين أهل السموات والأرض لوسعتهم.

ومن ادّعى مراعاة التكليفات المتوجهة عليه في رجله، علامته السعي في مصالح العباد المسلمين والإخوان، والسعي إلى العبادة، والسعي على العيال، وكثرة الخطى إلى المسجد، والنزول في الحرب، والثبات يوم الزحف وغير ذلك.

ومن ادَّعى مراعاة التكليفات المتوجهة عليه في قلبه، علامته الانتباه واليقظة، والفكر والهيبة، وترك الحسد والغل، والتنغيص بالاجتماع، إن كان من أهل الأحوال الموقوفة على الخلوة، وإن كان في خير ودوام الحزن مقام المحزون عليه، والتوكل والتفويض والتسليم والفرح بموارد القضاء والمراقبة، والتنزُّه في العالم. وفعل اللّه فيه وفيهم وأشباه ذلك، مما لا يحصى كثرة وكل فعل حسن للجوارح أسُّه انتباه القلب.

وهذه الأعمال كلها يا بني، مبادئ الإرادة والسلوك، وليس لها زوال عن شخص حتى يموت. فإن عدمها السالك المريد في أحواله وطريقه فهو مخدوع، وأما الواصل فلا يتصوّر منه ترك لها أصلاً، وإن ادّعى الوصول، وفارق المعاملات استصحاباً، فدعواه كاذبة، ولو فتح له في علم التكوين، وسرّ العالم فمكر واستدراج، فلا سبيل إلى الوصول إلى نهاية صحيحة، عن الشوب الإبليسي، خالصةً عن الغرض النفسي، ما لم ينزل المريد أولاً، عن رعونة النفس وكدورة البشرية.

وعلامة المدّعي في الوصول، رجوعه إلى رعونة النفس وأغراضها. ولهذا قال أبو سليمان الداراني: لو وصلوا ما رجعوا، وإنما حرموا الوصول لتضييعهم الأصول، فمن لم يتخلق لم يتحقق، وعلامة من صحَّ وصوله، الخروج عن الطبع والأدب مع الشرع واتباعه حيث سلك، والشفاء الشافي

والدواء الكافي لهذا الداء العضال، العلم بشرط التوفيق، فإذا اجتمعا، فلا حائل بينك وبين التحقيق، فافهم ترشد إن شاء اللّه تعالى.

منازل هذه الأعضاء
وكراماتها لأربابها للمتحققين بها

اعلم يا بنيّ، أن كل من تحقق بهذه الأعمال ورسخت قدمه فيها، وصح إتصافه بها، فإن اللّه سبحانه وتعالى؛ قد أجرى عادته لأهلها المتحققين بحقائقها، أن يهبهم أسرار الاختصاص، التي هي حرام على غيرهم، الموقوفة على هذه الأسباب؛ وتسمى شواهد، الحال الغيبي والتحقق الملكوتي وهو السر الخفي المرموز في قوله تعالى، على لسان رسول اللّه ﷺ ولا يزال العبد يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به الحديث. وأن ينزلهم سبحانه وتعالى المنازل العليَّة ويوقفهم عليها، وأن يكرّمهم بكرامات في ظاهر الكون، ولكن ليست عند القوم بشرط لازم ووقوع واجب.

فلنذكر في هذا الباب، ما يصل إليه كل عضو من هذه الأعضاء الثمانية من البركة، وما يصل إليه من الكرامات التي ذكرناها في عالم الملكوت الروحاني، كالجن والملائكة، والملكوت الترابي المُتَروْحِن البشرى. وهذا السر خفي، إذ هذا الرجل إذا تحقَّق بهذه الأعمال، حتى بلغ بها المنازل التي أذكرها يَتَرَوْحَن باطناً، ويجري على العادة ظاهراً، لسبب ذكرناه شافٍ في مشاهدة الأسرار القدسية، ولنبدأ بذكر ترتيب الأفلاك العضوية فلكاً فلكاً إن شاء اللّه تعالى. شعر:

يا صاحب الفلك المحجوب ناظره غمض لتدرك من لا شيء يدركه
واعلم بأنك إن أرسلته عبثاً فإنه خلف ستر الكون يتركه

اعلم يا بني، أشهدك اللّه ذاته في دار القدس، أن الإنسان إذا زكت خواطره وأحواله، وطابت أقواله وحسنت أفعاله، وكان هذا حاله حتى قبضه اللّه إليه، فذلك الموفق السعيد، فإذا تحقَّق العبد في مراعاة ما توجهَ عليه من

التكليف في بصره، ووقف عندما حدَّ له الشارع، وصرفه في بعض ما أباحه، وإن استطاع أن لا يصرفه إلاً في واجب أو مندوب فلا يقصر.

فذلك عندنا صاحب بصر على الحقيقة، وأن اللّه تعالى إذا حصل العبد في هذا الباب، ولم يتعدَ الحد المشروع له في بصره، إذا شاء يكرمه بكرامات يختص بها بهذا المقام، وينزله أيضاً منازل مختصة به، لا ينالها أبداً إلاً صاحب بصر منَّة منه سبحانه وتعالى.

فالمنازل قطعاً لا تحصل، إلاً لأهل الوصول المحققين أهل العناية، وأما الكرامات، فمن حيث هي كرامات هي لهم، ومن حيث هي خرق عوائد، قد ينالها الممكور به والمستدرج، فإذا وقعت لك يا بني خرق عادة، فلا تحجبنك عن نظرك في نفسك، كيف هي مع الحدّ المشروع لك، فإن كنت من أهل الاتباع، وقام الوزن بين نفسك وما كلفت، وجريت مع الشارع بالأدب والامتثال حيث سلك، فخذها كرامة واشكر اللّه تعالى عليها. وادعه واسأله أن لا يجعلها حظ عملك، وأن لا تكون من العاملين لها.

وإن رأيت نفسك حائدة عن السنن، متعدية للحدود الظاهرة في الشرع، فلا تنظرها كرامة في حقك وانظرها منبهة لك، إن لزمت بعدها الاستقامة كابراهيم بن أدهم رضيَ اللّه عنه، حين نودي من قربوس سرجه، وهو غير مستقيم في الحال ثم استقام، فكانت له منبهة، وكصاحب السرجتين وغيرهما، وإن لم تعقبها الاستقامة، فانظرها مكراً واستدراجاً، فأسأل اللّه الإقالة والرجوع إلى الجادة والصراط المستقيم. فإن نبَّهك اللّه لهذا النظر، فهذه الكرامة التي يقال لها كرامة، وكل خرق عادة في ظاهر الكون فأعراض زائلة.

الكرامات أنواع؛ فمنها رؤية الزائر له، قبل قدومه على مسافة بعيدة، أو من خلف حجاب كثيف، ورؤية الكعبة عند الصلاة، حتى يتوجه إليها وما أشبه هذا، ومنها مشاهدة العالم الملكوتي الروحاني والترابي.

والمراد بهذه الكرامات للعبد أن يشهده اللّه من عجائبه ويريه من آياته، ما يزيده رغبةً في مقامه، وقوة فيما هو بسبيله، كما قال تعالى:

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ [الإسراء: 1] فذكر العلة، فإنه إذا صحّ ورث النبي الصادق ﷺ في أفعاله بحسن الاتباع والاقتداء، ليس ببعيد أن يتحف الله عبده الولي بمثل هذه الكرامات التي كانت للنبي ﷺ، بل إن من تتميم شرفه كرامة من اتبعه وأحبه.

وأما قولنا العالم الملكوتي الروحاني والترابي، فالروحاني الملكوتي كالملائكة والروحاني الجبروتي كالجن عند بعض أصحابنا، والروحاني الطيني والترابي كالأبدال، فيشاهد الملائكة والملأ الأعلى، الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: 20] ﴿ وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [السجدة: 15] وقال تعالى: ويستغفرون للذين آمنوا ولمن في الأرض.

فما ظنّك يا بنيّ بحال شخص جليس لهؤلاء السادات الأعلام، المعصومين من فترات الغفلات، هل يكون أبداً، إلاّ ذاكراً ناظراً نفسه بعين التقصير، فيما يأتي به فنون الطاعات، لما يعانيه من علو المقام، ويشاهده من الجلال، فجليس المفلح مفلح ضرورة. وأما الروحاني الترابي، فأعني به كل عبد اتَّصف بأوصاف الملائكة، من الحضور مع الحق تعالى في ميدان الجد والاجتهاد، والإتصاف بأوصاف الكمال، كالخضر عليه السلام وما أشبهه من الأبدال والأوتاد.

ألا ترى الخواص حين اجتمع مع الخضر، كيف جعل اجتماعه به كرامة، وقال له: بماذا رأيتك؟ فقال له: ببركة برِّك أمك. ولو لم تكن رؤية هذا الصنف كرامة ما سأله الخواص.

فبمثل هؤلاء السادات والنجباء وصحبتهم، فليفرح وليتحقق أن ذلك من اعتناء الله سبحانه وتعالى به، حيث جمعه بأهل خاصته وحبّبهم إليه، فأولئك هم الذين انتقلوا عن معادنهم الطينية، وخرجوا عن رعونة البشرية، وطبختهم شمس العناية بأرضهم الطيبة المباركة، المعتدلة المزاج اللطيفة الأمشاج، فأخرجتهم عن مراكزهم وألحقتهم بالعالم الأعلى، فانخرقت

العوائد في الأجسام، وضرب بسور القدرة القديمة في وجه الطبيعة الذميمة، لما تلطّفت الجوهرة، وخفَّت وصفت، طلبت العلو فهفت مع تعلقها بتدبير الجسم، الذي كلفت وسلّطت عليه القوة القهرية متى شاءت، فحجبته عن أعين الناظرين، ولحق بالعالم الأعلى في صفاتهم، كما تطبخ الشمس الذهب في معدنه الطيب، حتى يبرز على وجه الأرض، بخلاف غيره من المعادن النازلة عن هذه الدرجة، لما صفت جوهريته ولطف معناه.

فكما يوجد درجته بعد خروجه عن الأرض، إلى طيب الهواء ويشجر، حتى يزول منه بقية التغيير والامتزاج بالطين، كذلك هذا العبد إذا خرج عن أرضه كما ذكرناه، والتحق بهؤلاء السادات أعني الملائكة، اكتسب منهم صفة لم يكن عليها، حكم فيها الغائب على الشاهد، فخرج عن العادة البشرية بالصفة اللطيفة الملكوتية، والتشجير الذي حصل له من تلك المشاهدات، حتى خفي عن الأبصار، وهذه كرامة أصل وجودها ما ذكرناه.

وسبب الاحتجاب مانع يقوم بإدراك الرأي، حتى يهتف بك وأنت لا تراه، ويمشي على الماء وفي الهواء، ويصير كالهيولي قابلاً للتشكيل والصوَر، كالعالم الروحاني مثل جبريل ﷺ الذي كان ينزل تارة على صورة دُحية، وقد تجلّى له ﷺ وهو قد سدّ الآفاق وله ستمائة جناح، وتشكل الروحانيين غير منكور عندنا.

وهكذا رجع الخضر عليه السلام، يتشكّل على أي صورة أحبَّ أن يُرى فيها، وهي على قدر مقامك، فالملكة التي أعطي، إنما هو فعل يشخصّه لك في ذاتك، وهو على صورته التي خلقه اللّه عليها، ويغلط في هذا المقام، جماعة من المتطفلين على الطريقة.

وكل ما أتاك يا بني من هذا المقام، فهو عائد عليك والمانع فيك، غير أن لهم عليك سلطاناً، وعلى جميع الموجودات ليس لغيرهم.

واعلم يا بني، أن أصل النفوس واحد، فإذا ركبت في الجسوم على اختلاف أمزجتها، صارت من طبع المزاج للمجاورة، حتى تضرم عليها نار المجاهدة، ويلقيها في أبواط الرياضة، فإن كانت تلك الأرض معتدلة

المزاج، أعني قريبة الاعتدال تخلصت في الحال، والتحقت بعالمها، ولم يحجبها تدبيرها. كذلك الجسم.

وإن بعد الاعتدال كثر التعب في التخليص والمشقة وطالت الشقة، وهذا أيضاً راجع للعارف بالتخليص، فواصل، ومقارب، ومدلس. فالمدلس المدعي، والواصل صاحب الحقيقة، والمقارب المجتهد، الذي قد لاح له بارقة من مطلوبه عرفها وسكن إليها، فالرجال الأمجاد رضيَ اللَّه عنهم، ما اشتغلوا بتدبير نفوسهم، أن يخلصوها من رعونة الطبع، حتى يلحقوها بعالمها، ألا ترى سهلاً التستري، وهو من رؤساء الطريق وساداته، لما قيل له: ما القوت؟ فقال: ذكر الحي الذي لا يموت. قيل له: هذا قوت الأرواح. فما قوت الأشباح؟ قال رضي اللَّه عنه: دع الدار إلى بانيها، فإن شاء عمَّرها وإن شاء خربَّها. فما أحرم عبداً لم يوفقه اللَّه لتخليص جوهرته، نعوذ باللَّه من الحرمان.

منازل هذا العضو

اعلم يا بني، أن الإنسان ينتقل من مجالسة العالم الملكوتي الخارج عنه، إلى رؤية عالم ملكوته الخاص به، الذي هو غيبه أو باطنه. وهذه الرؤية عبارة عن فتح عين بصيرته، إلى مشاهدة ما أقرَّ اللَّه فيه من الأسرار، ورتَّب فيه من الحكم، وأودعه من الفوائد.

وهذه الحضرة عليها باب مقفل، وعلى كل سرّ فيها ساكن يحجبه، وعلى عين البصيرة غطاء في حق من فتحت له عيناً، وصدأ في حق من فتحت له مرآة، على حسب ما نذكره، فإذا زال الغطاء والصدأ، وانحلَّ القفل، وانهدم الكنّ، وطلعت شمس الحقيقة، على مرتبة ما من مراتبها على تفاصيلها، فاجتمع نور تلك الشمس مع نور العين أو صقالة المرآة، نتجت بينهما رؤية وإدراك وانطباع.

وجاءت العناية العلمية فأزالت القفل عن باب الحضرة الإلهية، فدخل الحكيم فوجد الأسرار قد خرجت من أكنّتها، والأنوار قد تقشعت عنها

سحائبها، وبرزت مستبشرة بقدوم الحكيم عليها، فلا يزال يلتذّ بها على قدر كشفه ونظره.

وذلك أن النظر إذا انسدّ بالسدّ عن المحرمات، والوقوف عند الحدّ، وانفتح باطن إدراكه إلى خزانة الخيال الصحيح، الذي حصلته القوة المفكرة، فصفت مرآة تلك الخزانة، وكحِّلت عينها وجليت، فتحت لها طاقات، لخزانة المعاني السرارية، الراسخة في القلب، المحجوبة بالريون المحمودة، فترفع هذه الحجب.

وهي عبارة عن فتح الخزائن، فتبرز المعاني الإلهية والأسرار العلوية، فينجلي في مرآة الخيال، فيراها باطن إدراك البصر؛ وهو المعبر عنه بعين البصيرة، فيكشف له عن غيابات الوجود في هذا المقام.

فينبغي للمتوسم به الكلام على الخواطر والفراسة الرئيسة كيفية. فأما كيفية حصول خواطر الأغيار، في نفس الحكيم الإلهي، صاحب هذا المقام، فإن عين القلب إذا ارتفعت عنه الحجب التي ذكرناها، وانكشف الغطاء، أدركت بحسها، كل قلب يكون مقابلاً لها.

واعلم أن كل قلب كتاب مسطور، لكلّ ما فيه من الخواطر والعلوم، وله طبقات نظير أوراق المصحف، وكل ذي قلب لا يخلو من قراءة مصحفه أو كتابه ساعة، إما ماراً عليه أو متردداً، أعني لا بدَّ أن يكون متردداً في خاطر واحد، أو تمرَّ عليه خواطر شتى، فيتطلّع الحكيم المكاشف إلى مصحف الداخل وكتابه، وينظر في أي صحفة هو وفي أي آية هو منها، وذلك لا يشعر إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

فإن شاء الحكيم بعد تحصيله لما في نفسه أظهر، وإن شاء ستر على حسب الوقت وما يعطيه من المنفعة والمصلحة، فعلى هذا الحد هو الكشف لبعض العارفين غيوب العالم.

كيفية أخرى

وبعضهم يرتقم في مرآة قلبه انطباعاً، الذي في نفس الغير، على وجه المقابلة لصفائها، وذلك أن يكون منزهاً عن الخواطر العرضية، عارفاً بخواطر

المقامات، محققاً لموارد خواطر مقامه، وإذا وجد من هذه صفته، خاطراً لا يقتضيه مقامه، يعلم على القطع، أنه خاطر بعض الحاضرين، ومتى فرَّق بين المقامين، قد يعرف الخاطر ولا يعرف لمن خطر، فيتكلم هذا الموصوف في ميعاده، على ما وجد في نفسه، فيعرفه من قام به، فيجد شفاءه.

ورجل آخر عندما يقوم به ذلك الخاطر، يعرف صاحب ذلك الخاطر حتى يواجهه بالكلام دون غيره، وأصل معرفته، أن بين القلوب مناسبة في الأصل، فإذا خطر الخاطر في قلب الوارد أو المريد، فإن كان قبيحاً انبعث من القلب، فكان يجيء منه سحابة على قلب الشيخ فإذا قابل الشيخ، بوجهه من قام به ذلك الخاطر، تكاثف ذلك الدخان، فإذا خرج عن مواجهته، مرّ عليه متقطعاً، فيعرف ذلك الشيخ، وإن كان حسناً، كان بدل الدخان بخاراً لطيفاً طيب الرائحة، يجد طيبها في أنفه والحال كالحال.

هذا إذا كان صاحب الخاطر حاضراً، فإذا كان غائباً كعابد قاعد بالجامع مثلاً، فخطر بأهل داره شهوة اللحم، فوجد ذلك في نفسه، وهو طاهر النفس عن الشهوات، ثم يجد في نفسه أنه لا يحمل ذلك الشيء إلاَّ لمنزلة، فإن تمناه شخص مجهول في حق العارف، فأراد اللَّه أن يكون قضاء ذلك الشيء على يديه، فإنه يشتري تلك الشهوة.

ومتى يتفق أمران، الواحد قد يحصل له مثال وارد ذلك الشخص، حتى يعرف أو يمثل له الشخص، إن كان يعرف منزله، وإن لم يكن من هذا الصنف، فإنه ينصرف حيث حمله اللَّه تعالى، لا يقصد طريقاً معيناً وخاطره متحرك أبداً، فإذا قابل صاحب ذلك الخاطر أو داره، كان حاله معه كحال الخاطر المتقدم، فيدفعه له وينصرف.

كيفية كشفية

وهذه من لطائف المكاشفات فأكتف من ذلك هو أن يخطر لك خاطر، فيجيء المكاشف، ويجده مرقوماً في ثوبك، النهي عنه أو الأمر به. كما اتفق للشيخ أبي مدين رضي اللَّه عنه، حين خطر له أن يطلِّق امرأته، فرأى الشيخ أبو العباس مخطوطاً في ثوب الشيخ أبي مدين، أمسك عليك زوجك.

واتفق لي ألطف من هذا وذاك، أني كنت مشغولاً بتأليف كتاب القائي فقيل لي: اكتب هذا باب يدقّ وصفه، ويمنع كشفه، ثم لم أعرف ما أكتب بعده، وبقيت أنتظر الإلقاء، حتى انحرف مزاجي وكدت أهلك، فنصب قدامي لوح نوري، وفيه أسطر خضر نورية فيها مكتوب، هذا باب يدق وصفه ويمنع كشفه، والكلام على الباب فقيدته إلى آخره، ثم رفع عني.

كيفية فعلية

وذلك أن الرجل يزني ويسرق، أو يفعل فعلاً حراماً، فيدخل على المكاشف، فيرى على ذلك العضو، الذي يكون منه العمل تخطيطاً أسود لا يرى غير ذلك، وكان ذلك المقام غالباً على حال أبي يعزى رضوان الله عليه، وهذه المكاشفة موقوفة على المحققين في مقام الورع.. وثم لمعرفة الخواطر والفراسة مقام غير هذا، يحرّم كشفه، فمن ذاقه يستلذ به وهو أسنى المقامات، لا يناله إلا أهل العنايات من الرجال، مثل نبي أو بعض الصديقين وهو الكشف الملكي، وألطف منه الكشف الوحي، وألطف منه الكشف القلمي، وألطف منه الكشف النوني، وألطف منه الكشف الحقيقي، وألطف منه الكشف الإرادي، وألطف منه الكشف العلمي، وألطف منه الكشف الذاتي.

منزل الحركات والسكنات

أما الفراسة فنوعان: رئيسية ودون ذلك. فأما الدنية فنوعان:

النوع الواحد موقوف على العارفين بالمزاج ونتائجه وهذا يعرفه الحكماء من الفلاسفة، ولا حاجة لنا لبيانه.

وأما الرئيسية، فسببها حكم غير هذا كله، وبها يقطع بخاتمة المتفرس فيه قطعاً، ويعلمه علماً، وذلك بأن يمشي الحكيم المختلف، الواصل إلى عين الوجود والحقيقة، على منازل نفسه وكمالاتها منزلاً منزلاً، وحالاً حالاً، على الترتيب الحكمي الإلهي في النفوس على الإطلاق، مرتبة بعد أخرى على التوالي والتتابع، ولا يصحّ له المشي فيها إلاً كذلك، حتى يعرف

المنازل كلها من طريق مقامات، ثم ينظر نفسه نظراً مكرراً، فلا يجد منزلاً ولا حالاً، إلاً وله حكم وتأثير على ظاهره من حركة أو سكون، وهي منازل مختلفة تنتهي إلى غايات مختلفة. فإذا تحقّق تخلّق بهذه الرتبة، وعرف تأثيرات المنازل وحالاته، صحت له الرياسة المكمّلة.

فصاحب هذا المقام، إذا رأى شخصاً في الوجود، فلا بد أن يكون متحركاً أو ساكناً، بأي نوع كان من الحركات، من لسان أو يد أو غير ذلك، فيعرف من ذلك منزلة ذلك الشخص، ويعرف تلك المنزلة أي ما لها في الوجود، فيقطع على ذلك الشخص بها فيكون كما قال:

وقد اتفق لشيخ الشيوخ أبي مدين هذا رضي اللّه عنه، في حقّ شخص تحرك في مجلسه، فأمر بإخراجه وقال: سترى ما يكون بعد كذا سنة، فاستفصله بعض الحاضرين عن الأمر فقال رضي اللّه عنه: أنه يدَّعي الهداية، فكان كما قال الشيخ رضي اللّه عنه بعد عشرين سنة. وهذه العلوم كلها من عين اليقين وحق اليقين، وهي من العلوم الإلهية الإلهامية والذاتية، والزيادة على حسب الفتح.

ومن مقامات هذه العلوم فرقان بين منزل عالٍ، ثم ترتقي من هذه المنازل، إلى أن يحصل له رؤية الحق من جهة صفة الكمال، فإن كل رؤية تقدمت، إنما هي من حضرات الأفعال، فلا يزال يرتقي في صفات أطوار مشاهدات الانفعالية، إلى مشاهدة صفة الكمال البسائط، ثم إلى مشاهدات الجلال التي هي السبب، وهي المشاهدة الذاتية المشار إليها في قوله ﷺ: «إن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». وجنتنا في هذه الدار ما وصل إليها، وهي الطاعة فيما ينتج دخول الجنة، هناك نتيجة الطاعات هنا لمن اختصه اللّه بها.

واعلم أن العلم المتعلق بالذات، إنما يناله كل من نال منه شيئاً، من جهة السلب، لا من جهة الإثبات مثل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11] و ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: 180]، وهذا مقام الحيرة والعجز، وفيه قال الصدّيق الأكبر أبو بكر رضيَ اللّه عنه.

العجز عن درك الإدراك إدراك

وقال النبي ﷺ: «لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك». جعلنا اللّه ممن استمرت حالته على الاستقامة، فإنها أكبر كرامة.

الفلك الأذني السمعي

يا صاحب الأذن إن الأذن ناداكا	رفع الخطاب إذ الرحمن ناجاكا
فإن وعيت الذي يلقيه من حكم	عليك كانت لك الأسرار أفلاكا
وإن تصاممت عن إدراك ما نثرت	لديك كانت لك الألوان أشراكا

اعلم يا بني، وفقك اللّه، أن السمع لا يحضر إلاَّ مع الحضور، أعني حضور القلب، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37] فحقيقة السمع الفهم عن اللّه فيما يتلوه عليك سبحانه وتعالى، ولا تظن يا بني، إن تلاوة الحق عليك، وعلى أبناء جنسك من هذا القرآن العزيز خاصة، ليس هذا حظ الصوفي، بل الوجود بأسره ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ [الطور: 2، 3] تلاه عليك سبحانه وتعالى، لتعقل عنه إن كنت عالماً، قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43].

ولا يحجب عن ملاحظة المختصر الشريف من هذا المسطور الذي هو عبارة عنك، فإن الحق تعالى تارةً يتلو عليك من الكتاب الكبير الخارج، وتارةً يتلو عليك من نفسك، فاستمع وتأهب، لخطاب مولاك إليك في أي مقام كنت، وتحفظ من الوقر والصمم، فالصمم آفة تمنعك من إدراك تلاوته عليك، من الكتاب الكبير المعبر عنه بالقرآن، والوقر آفة تمنعك من إدراك تلاوته عليك من نفسك المختصرة، وهو الكتاب المعبَّر عنه بالفرقان، إذ الإنسان محل الجمع لما تفرق في العالم الكبير. ومعنى التلاوة أذكرها في عضو اللسان بعد هذا إن شاء اللّه تعالى.

فصل

وعلامة السامعين

المحققين في سماعهم، انقيادهم إلى كل عمل مقرّب إلى اللّه تعالى من جهة سماعه، أعني من التكليفات المتوجهة على الأذن من أمر ونهي، كسماعه للعلم والذكر والثناء على الحق تعالى، والموعظة الحسنة، والقول الحسن، ومن علامته أيضاً، التصامم عن الغيبة، والنميمة، والبهتان، والسوء من القول، كالخوض في آيات اللّه تعالى، والرفث والجدال وسماع القيان، وكل محرّم حجرَ الشارع عليك سماعه:

وقد وصف اللّه تعالى من هذه أوصافه في كتابه العزيز، في معرض الثناء عليهم، ليقتدي بهم ويعرف أنَّا إذا سلكنا مسلكهم، كان لنا نصيب من ذلك الثناء، الذي صح لهم من الحق جلَّ اسمه. قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [القصص: 55].

لما يئسوا من إرشادهم وفلاحهم، سلَّموا الأمر للَّه تعالى، واشتغلوا بما يزلفهم لديه، فأعرضوا شرعاً وسلَّموا حقيقة. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: 83 ـ 85] فانظر كيف جعل اللّه تعالى السامعين من الكتاب الخارج عنك، ممن حاله البكاء لمعرفتهم بما سمعوا، ومقامهم الإيمان، ومأواهم الجنّة مع المحسنين من عباده. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: 36] فأثنى عليهم، لما سمعوا داعية بالإجابة الذي أمرهم بها سبحانه في قوله تعالى: ﴿يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: 31].

وكرامةً عنده سبحانه وتعالى، إجابته لهم إذا دعوه، لارتباط الحكمة في المناسبة فلا يُجَاب إلاَّ من يجيب، ألا تراه سبحانه وتعالى كيف قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾ [البقرة: 186] فإذا صحَّت لهؤلاء الإجابة لما دعاهم إليه وهو حقيقة السماع، صحّ لهم إجابته إذا دعوه واللّه ذو الفضل العظيم.

وقال تعالى: ﴿ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [النساء: 140].

فانظر قوله تعالى: إذا سمعتم، فمن لم يحضر عند الكلام بسمعه لم يعرف، هل كفر بها أم لم يكفر، ولا يصدق في دعواه أنه سمع، فإنه لا يغنيه سماع الأذن من اللّه شيئاً.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال: 21] وقال تعالى: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ ﴾ [فاطر: 14] وقال تعالى: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: 171] فلا يعقل إلاَّ من سمعَ ولا يسمع، إلاَّ من حضر، فلما أخبر سبحانه وتعالى: إن الذين يخوضون في آيات اللّه إذا قعد معهم سمَّاعاً لهم، أنه في مقامهم، وأنه يجزى من جزائهم للاشتراك، ولا يرضى بهذه المنزلة إلاَّ منافق، ولهذا قال في نفس هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: 140].

فالكافر الخائض، والمنافق الجليس المستمع لخوضه كذلك، فمن جالس الصدِّيقين والعارفين، في مجالسهم المطهَّرة وأنديتهم المقدسة، فإنه شريك لهم في كل خير ينالونه وقد قال ﷺ فيهم: «هم القوم الذي لا يشقى جليسهم».

فالمرء مع من جالس، لأن المجالسة والاستماع ينتجان عن المحبة. وقال ﷺ: «المرء مع من أحب». وهذا سرٌّ، وفي صوفي يريد ﷺ في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالطاعة والأدب الشرعي، وفي الآخرة بالمعاينة والقرب المشهدي، فمن لم يتحقق بما سمع، وادَّعى أنه عقل، فدعواه كاذبة. ولهذا السّماع المبارك كرامات ومنازل، كما تقدم للحسن البصري.

الكرامات

ومن كراماته إثبات البشرى له، بأنه من أهل الهداية والعقل عن اللّه تعالى وهي الكرامة الكبرى فإنه كما سمع أيضاً إجابة الحق له بالبشرى، بأنه من المهتدين، فتفطَّن لهذا المعنى فإنه حسن قال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ

يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: 17، 18] وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ﴾ [يونس: 63، 64].

والإيمان لا يكون إلاّ بعد سماع الخير وعقله وقال ﷺ: «من خلق للنعيم فسييسر لليسرى» وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل: 5 ـ 7] ولا يكون هذا كله إلاّ بعد السماع والعقل.

ومنها سماع نطق الجمادات على مراتب، نطقها في العوائد وخرقها، وخرق العادة فيها على قسمين: قسم راجع إليك، وقسم راجع إليها، فالراجع إليك فهمك لحقائقها، والذي يرجع إليها، نطقها في نفسها على طريق الإعجاز والكرامة.

وكيف ما كانت، فالفائدة بذلك التحريض على الطاعة، والدوام على الاستقامة لترقّي الهمم في المنازل العلية، وهذا آخر الميراث النبوي، من تسبيح الحصى في كفّ النبي ﷺ، ومن شاء اللّه من الصحابة، وحنين الجذع، وسلام الحجر عليه، وكتف الشاة المسمومة، وقال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: 44].

فإذا تحقّق به، يطرأ عليه حالة لا يشاهد فيها شيئاً من الموجودات، إلاّ مسبحاً بلسان ناطق كنطق زيد وعمرو، يفهمه صاحب الحال المشاهد له، لا بالحال كما يراه بعض المنكرين، الذين لم يذوقوا من الطريق إلاّ رسمه، فإن سمعت نطقها، وهي غير ناطقة في نفسها فذلك قوة خيال، وهي عندك تخيلت أن الأمر خارج عنك وهو فيك، وإلى هذا المقام يشير المنكرون الذين ذكرناهم، وهذه حالة أكثر المؤيدين في زماننا هذا، لكنهم لا يشعرون بذلك، وقد شاهدناه في أنفسنا في بدايتنا وللّه الحمد على ذلك.

ومنها أن يكون صاحب هذا المقام محدّثاً، ولا يرى من يحدّثه من جهة هذه الحضرة، فإن رآه فمن جهة حضرة تحققه بالبصر، فيلحقك السماع بدرجة المحدّثين ويهتف بك، وتسمع الخطاب إما بديهاً وإما جواباً عن سؤال منك، وردّ السلام عليك، وقد شاهدنا هذه الأمور كلها.

وأخبرني غير واحدٍ عن أبي العباس الخشاب رضي اللّه عنه، أنه كان محدَّثاً اشتهر هذا عنه. ومن هذا الباب سماع سارية صوت عمر من المدينة وبينهما أيام. فكل كرامة يكون خطاب فيها، فهي من هذا الباب. فإن زاد على الخطاب أمر آخر، فمن تحقّقه من حضرة أخرى، إذا طلبتها وجدتها.

وهكذا ربط اللّه سبحانه وتعالى العادة عندنا في الطريق، واقتضته مناسبة الحكمة مع جواز التبدل عقلاً، فإذا صحّ ما ذكرناه وليس يشترط وجوده، بل يكون التحقيق والولاية مع عدم هذه الكرامات، ولكن أردنا في هذا الكتاب أن نبين مراتبها إذا ظهرت، ليعلم من ظهرت، له من أين صحّت له، وأين مقامها في الحضرات الوجودية، وإذا تقرّر هذا، فلننتقل إلى ما تيسر من المنازل لهذه المقامات واللّه المستعان.

منازل هذا العضو

أصل حصول هذه المنازل، تفريغ الخاطر من كل شاغل يشغلك عن تحقّقك بما سمعت، أو رأيت، أو تكلمت، في أيِّ مقام كنت من أعمال الجوارح، فإن لم تتفرغ الخواطر للسماع، لم تتفرغ الأعضاء للتخلّق، وإذا لم يصح التخلّق، لم يكن التحقّق. والتحقّق له مقامات متفاضلة، وهو الذي أردناه بالمنازل.

فاسعَ يا بني، في تفريغ الخاطر، للسماع المراد منك، في أي مكان كنت، من خلأ أو ملأ إن لم يضرّ الملأ، ووجدت، فلا حرج عليك في مجالسته، وإن حرمت من أجله، فالزم الخلوة، فهي خير جليس حتى يتقوَّى حالك، فإذا مازجك السماع امتزاج العرض اللازم للجوهر، حينئذٍ لا تبالي بالملأ ولا غيره، فإذا انتقلت إلى المنازل تولاك الحق بعنايته، وطرد عنك كل خطاب خارج حتى لا يحجبك، وصار الخطاب لك من نفسك، على قدر مقامك منزلة بعد منزلة، وحالاً بعد حال طبقاً عن طبق ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الإنشقاق: 20] بما يستمعون ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الإنشقاق: 21].

ناداهم الحق في أنفسهم من أحوالهم تشريفاً بأسرارهم، فعرفوا حقائق العبودية، فوجب عليهم السجود والنزول إلى ذواتهم، فترزق حينئذٍ الفهم عن اللَّه منك به. فلا تنادي بأمر من الأمور بسرٍّ أو حال منك، إلاَّ وهبت روح ذلك المنادي به، فتكون صاحب سماع.

وما حظك منه، وما حظه في الوجود، وعلى كم مرتبة ينقسم، فلا يزال هكذا تترقَّى في أطوار السماع، من المقامات المحمديّة الحاصلة في الإنسان، هكذا ينتهي بك إلى سماع الأشياء، من إيضاءٍ على المقامات الإلهية مقاماً بعد مقام، حتى ينتهي بك إلى ما قدّر لك في هذه الدار.

ثم هذه الصفة لا تزال بك، حتى تسمع الكلام القديم، حيث أراد سبحانه وتعالى من الوجود. فإن قلت، وإذا كان غداً ويسمع كلام اللَّه سبحانه القديم، شاركني فيه كل سماع هناك. فأين الاختصاص الذي أورثني هذه الصفة، حتى أزالتني عن درجة البلَه.

فاعلم أن الذي قلت لك صحيح، غير أن الاختصاص والفائدة، ليس في أن الحقَّ تعالى يكلمنا فقط وإنما الفائدة فيما يكلمنا به وفيما نفهم عنه، واللذّة على قدر الفهم. فهنالك يقع التفاضل ويتميز المختصّ من غيره، وكل حزب بما لديهم فرحون، وكل من تحقّق بسماعه من وراء حجابه، تخلّق على ذلك القدر بسمعه على الكشف وارتفاع الوسائط.

فكن من أيِّ حزب يراد بك بمشيئة التكليف، فالعبد المحقّق في السماع، لا يزال يسمع بالحق، حتى يسمعه الحق وحتى يسمع الحق به، حتى لا يستمع ولا يسمع فيه، فيبقى الحقّ يسمع للحق على وجه ما، والعبد في الحق موجود في حقيقته مفقود. حقَّقنا اللَّه بحقائقه.

الفلك اللساني وهو عضو اللسان

إن اللسان رسول القلب للبشر ... بما أودعه الرحمن من درر
فيرتدي الصدق أحياناً على حذرٍ ... ويرتدي المين أحياناً على خطر
كلاهما علم في رأسه لهب ... لا يعقل الحكم فيه غير معتبر

فانظر إلى صادق طابت موارده وكاذب رائج غاد على سفر
مع اتحادهما والكيف مجهلة من سائل كيف حكم الحق في البشر

اعلم يا بني، وفقك اللّه وعصمك من آفات اللسان وزيادة الحديث أن اللسان أملك شيءٍ للإنسان سريع الحركة، حركة أقرب إلى الهلاك منها إلى النجاة، كثير العثرات قال ﷺ: «هل يكب الناس على مناخرهم في النار إلاّ حصائد ألسنتهم». وهو ترجمان إرادة الحق، بما شاء أن يجزيه في علم الشهادة، لا ترجمان الأمر إلاّ بالموافقة، فإما صادق وإما دجّال، لكن الحكيم العارف يقول: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 191] وإن كان كاذباً، أخذ الحكيم منه حكمة، وبقي على الكاذب كذبه، على أنه ليس في الوجود باطل أصلاً، وإنما الوجود حقّ كله، والباطل إشارة إلى العدم، إذا حققته.

واعلم أن اللسان قلم القلب، تكتب به يمين القدرة، ما تملي عليه الإرادة من العلوم في قراطيس ظاهر الكون، وإلى هذا المقام أشرت بقولي:

قلمي ولوحي في الوجود تمدُّه قلم الإله ولوحه المحفوظِ
ويدي يمين اللّه في ملكوته ما شئت أجري والرسوم حظوظِ

وقلت: العبد هو محل الإلقاء الإلهي، من خير وشر شرعاً، وهو لوح المحو والإثبات. ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: 39] فيخطر للعبد خاطر أن يفعل أمراً ما من الأمور، ثم ينسخه خاطر آخر، فيمحو الأول ويثبت الثاني، وهذا ما دام العبد مهتماً لخواطره، محجوباً عن كشف الإلقاء الإلهي الخصوصي، فإذا أيد بالعصمة إن كان نبياً، أو بالحفظ إن كان ولياً، عاد قلبه لوحاً محفوظاً مقدساً عن المحو.

فإن ظهر ممن هذا مقامه، محو في ظاهر الكون بعد إثبات، وهو عن أمر يقوم بالقلب من الحق، فلا يُقال فيه أنه لوح محو وإثبات، لأنه صاحب كشف، وإنما وقع المحو في ظاهر الكون، وبقيت حكمته في القلب.

وإنما سمَّينا هذه المقامات بهذه الإسمية، لكون الإنسان نسخة من العالم الكبير فأردنا أن نعرِّفك أين موضع اللوحين في الإنسان، المقابلين

للوحي العالم الأكبر وكيف يكون، ومتى يكون، فالكلام عافاك اللَّه تعالى، من موارده عمل من الأعمال، يحصيه الملك كما قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 18].

ثم يصعد به في المساء والصباح، إلى الواحد جلّ جلاله، فما كان خالصاً له سبحانه ألقاه في عليين، وما كان غير خالص بنوع ما من أنواع الكدر، مثل الزيادات في الحديث والكذب؛ والرياء والمراء؛ والجدال في نصرة الباطل ألقاه في سجّين. وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: 18] وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين: 7] وسأذكر منزلة الكتابين، وبقيَّة الكتب في آخر هذا العضو إن شاء اللَّه تعالى، وأين مراتبها في الوجود، وأنه حيث ما كان نوديت يوم القيامة، أن تقرأه حيث هو، إلاَّ أن يعصم اللَّه وهو خير الحافظين.

واعلم، أن اللسان إذا تحقَّق، في مراعاة ما توجه عليه من الشارع، ووقف عند ما حدّ له فاشتغل بالواجب عليه فيه، كشهادة التوحيد وقراءة القرآن في بعض المواطن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح ذات البين، وشهادة التعيين، وتبيين العالم، وإرشاد الضال، ورد السلام إلى ما أشبه ذلك كله.

وهذا كله من الترغيبات في النطق المقرب إليه؛ كتلاوة القرآن، ودوام التسبيح والتحميد، وجميع الأذكار والمواعظ، كما يجب عليه الكف عن التضريب بين الناس، والفرية والجهل من القول، والنميمة، والغيبة، وكل نطق مذموم شرعاً.

فإذا تحقق العبد بهذه الأوصاف على ما حدّ له كان مالكاً للسانه، وشهاباً ثاقباً للشيطان. ويسمّى هذا صاحب لسان وله كرامات ومنازل، كما تقدم في أصحابه من الأعضاء، ومنازله العالية المرادة بالعبد، منزلتان عظيمتان لا شيء فوقهما.

المنزلة الأولى: أن يتلو عليك الحق جلّ جلاله كتابه، على ما حدّ وضعه ورسمه للعارفين المتحققين، كما سنبين لك في داخل الباب.

والمنزلة الثانية: هي أن يتلو الحقّ عليك كتابه، على حد يريده وأنت تسمعه، وكان الأولى على ما اشترطنا، أن نلقي هذه المنزلة في إدراك السمع، فإنَّ العبد هو سامع لا متكلم، لكن الاشتراك الإلهي في التلاوة التي تقف عليها إن شاء اللّه تعالى، أخّرناها إلى هذا الفصل.

الكرامات

فمنها مكالمته للعالم الأعلى، ومحادثته لهم، فإن العبد قد يتحقّق بالسماع، فيكون ممن ينادي ويهتف به، وإذا تكلم لا يردُّ عليه، فإذا صحّت المكالمة بينه وبينهم، وتنازعوا الحديث، فما كان من حديثه لهم، فمن جهة تحققه بلسانه، وما كان من حديثهم له فمن جهة تحققه بإذنه، وما كان من مشاهدته لهم فمن جهة تحققه ببصره، وهكذا في جميع الأعضاء المذكورة. وذلك للمناسبة التي بينهم والترتيب الحكمي الاختياري، فمن ترتَّب ورتَّب فذلك الحكيم.

ومنها أيضاً؛ نطقه بالكون قبل أن يكون، والإخبار بالمغيبات والكائنات، قبل حصول أعيانها في الوجود، وهي عند القوم رضي اللّه عنهم على ثلاثة أضرب: إلقاء، وكتابة، ولقاء، وكان تقي بن مخلد رحمه اللّه، قد جمعها وكان صاحباً للخضر عليه السلام شهر عنه هذا. وعاين من الرجال، الذين صفتهم هذه جماعة وشاهدناها من ذاتنا غير مرة.

ومن هذا المقام ينتقلون إلى مقام كريم، يقولون فيه للشيء كن فيكون بإذن اللّه تعالى مقام كريم، ومشهد عظيم، قاله عيسى عليه السلام، في إحيائه الموتى، وإبرائه الأكمه والأبرص، كل ذلك بإذن اللّه تعالى، وكذلك إبراهيم ﷺ حين صار الأطيار، جعل على كل جبل منهن جزءاً، بعدما قطعهن ومزج لحومهن بعضها ببعض، ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً، ثم دعاهن فأتينه سعياً، كل ذلك بإذن اللّه تعالى.

وليس في قضية العقل ببعيد، أن يكرّم اللّه ولياً من أوليائه بهذه الكرامة، ويجريها على يده، فإن شرفها راجع للنبي ﷺ فإنه باتباعه ووقوفه

عند حدوده، صحَّ له ذلك الأمر، وهذه المسألة فيها خلاف بين العلماء. منهم من يثبت معجزة النبي ﷺ كرامة للولي، ومنهم من ينفي ذلك، ومنهم من يثبت للولي، كل كرامة لم تكن معجزة لنبي.

وأما أصحابنا فلم يتمكن لهم أصلاً نفيها لمشاهدتهم إياها في أنفسهم وفي إخوانهم، فهم أصحاب كشف لها وذوق، ولو ذكرنا ما شاهدنا منها، وما بلغنا عن الثقات منها، لبهت السامع وربما نرمي به، وذلك لقصوره بنظره، لنفس من أظهرها اللّٰه على يديه وشخصه واحتقاره له، فلو تكمل بأن ينظر للفاعل القادر المختار سبحانه، الذي أجراها سبحانه على يديه، لم يكن ذلك عنده بكبير.

ولقد رأيت شخصاً من فقهاء زماننا يقول: لو عاينت أمراً من هذه الأمور على يد أحد، لقلت أنه طرأ في دماغي فساد، وأما أنه جرى ذلك فلا. مع جواز ذلك عندي، أنّ اللّٰه تعالى إذا شاء أن يجري ذلك على يد من يشاء إجراءه، فانظر يا بني، ما أشد حجاب هذا وما أشد إنكاره وجهله، أخذ اللّٰه بأيدينا وبيده آمين ونور بصيرته.

ثم نرجع إن هذه الانفعالات الإلهية المختصَّة بالوجود، على يديّ هذا الشخص الإنساني، على مراتبها أصلها الذي ترجع إليه قوى نفسية تسميها الصوفية الهمَّة، ويسميها بعضهم الصدق، فيقولون: فلان أحال همته على أمر، فانفعل له ذلك، وفلان صدق في أمر ما فكان له ذلك، وهذه الصفة يشترك فيها النبي والولي.

واثنتان لهما الواحدة العلم الكسبي، يحصل للنبي والولي من غير اكتساب، بل يعطي الدليل والمدلول، ابتداء من غير نظر فكري، والآخر أن الذي يراه الناس في النوم يراه النبي والولي في اليقظة. والثالثة الهمَّة التي نحن بسبيلها، وأنه كل ما لا يتوصل إليه شخص إلاً بجسمه أو بسبب ظاهر، يتوصل إليه النبي والولي بهمته وزيادة، وهي الأمور الخارجة عن مقدور البشر رأساً، كالأمور التي تقدم ذكرها.

واعلم أن وجود هذه الهمَّة في العبد على نوعين ولها مرتبتان: همة

تكون في أصل خلقة العبد وجبلته، وهمة تحصل له بعد إن لم تكن. ومن أصحابنا من يراها في الجبلة رأساً، فإن قال قائل كيف هي في الجبلة ونراها لا تكون له، إلاَّ حين حصول التمييز، والتخلّق والنطق، ولهذه مقامات؟ قلنا له: ليس الأمر كذلك؛ بل هي في جبلة من أراد أن يخلقه اللّه عليها، لكن لا يشعر بها الفهم أنه عليها، ويصرفها في غير ما ذكرناه من الخارق للعادة، فإذا علمها من نفسه، صرفها فيما أراد من الموجودات، كنطق عيسى عليه السلام في المهد بأمر اللّه، وهمّة مريم، وشاهد يوسف عليه السلام، ألا ترى صاحب العين يتقوّى عنده تخيلاً حاكماً به، حصول الجمل في القدر، والطفل في القبر فيكون ذلك.

وهذه صفة أثبتها الشرع ونعود منها، ولكن الفرق بيننا وبين طائفة أخرى، أنها عندنا كلها أسباب، يفعل الحق سبحانه وتعالى الأشياء عندها لا بها، وغيرنا يعتقد خلاف هذا، وإن الأسباب هي الفاعلة.

ومن هذا الباب، أعني انفعال الأجسام للهمم، التي هي القوى النفسية إنا نرى شخصاً، قد ملكه الوهم في أمر ما، حتى قضى عليه، مثال ذلك: شخص نصب له لوح عرض شبر أو شبرين، من حائط إلى حائط بينهما فراغ بعيد، فتكلّف المشي عليه، فعندما يرى الهواء تحته، يتخيَّل في نفسه. السقوط في الأرض، فإذا تقوّى عليه هذا الوهم وغلب، سقط الجسم لحينه في الأرض، وقد كان ذلك الشخص يمشي على عرض كف، أو أصبع ولا يقع، ولا يسقط، ومثل هذا كثير، ومنها أحوال المريدين والقشعريرة ولو رأيت بعين العلم، لرأيت أن كل حركة في الوجود أصلها هذه النكتة لكنه يغمض.

فهذه القوى الإلهية المركبة في النفوس، خرق العوائد على مراتبها، ومن هذا الباب ما نشاهده من بعض أشخاص جبلهم اللّه على الدعاء به، بحيث إذا تكلموا أثَّروا في نفوس السامعين، لهم طرباً شديداً وضحكاً، حتى يظهر ذلك على أجسامهم، يضحك الملوك في حال توقيرهم ولا يستطيعون أن يملكوا ذلك الطرب، والفعل للأجسام تنفعل له انفعالاً عظيماً، لانطباعه

في النفس انطباعاً لم ينظر منه إلى سواه، وقد نجد من يأتي بذلك الكلام بعينه، ولا يكون عنده هذه القوة بل يستثقل.

وأعجب من هذا، أن يوجد عن هذه القوة همم فعّالة على السماع، من غير مشاهدة لها كقوم أخبروا عمن هذه صفته، فاستظرفوا أخباره، وتاقت نفوسهم إلى سماعها منه، فيأتيهم شخص يُقال لهم هذا فلان الذي كنتم تتمنونه وليس هو، فعندما يتكلم بكلام مستثقل، وجد عند ذلك طرب عند أولئك، وليس طربهم بما تكلم في التحقيق، وإنما طربهم تخيلهم الثابت في نفوسهم، المانع لهم من النظر فيما تكلم هذا الشخص، وقياسه على ما سمع من أخباره، بل كان ذلك السماع كسماعهم أصوات الموسيقى الذي هو صوت مجرَّد وتأثيره منه.

وهذا هو التعشُّق النفساني الذي يعرفه الحكيم، فإن قيل أن الساحر، وصاحب القوة النفسية التي هي أثر لخرق العوائد عندك، إذا ادّعى النبوَّة، وأراد خرق عادة لصدق دعواه بقوته النفسية. وقد دلَّ الدليل، أن ذلك الأمر لا يقع على وفق دعواه أصلاً، فلو صحَّ أن خرق العوائد أصلها القوة النفسية، لوقع الأمر لهذا المدّعي، إذ هو صاحب قوة، قلنا القوى ليست على مرتبة واحدة، بل تتفاضل تفاضلاً بيِّناً عند العقلاء، فإذا كان هذا التفاضل، فقوى الأنبياء التي وهبهم الحق سبحانه وتعالى لم يعطها غيرهم.

قال المعترض يدَّعي هذا الكاذب في نبوته، خرق عادة تكون تحت قوته، بحيث يصدق في دعواه.

قلنا: لمَّا دلَّ الدليل على إحالة ذلك، لا بدَّ من وجود أحد أمرين؛ إن كانت في الجبلة تلك القوة، حجبه اللَّه سبحانه وتعالى عن إيقاع ما ملكها إياه، بأمر عارض لم يشعر به هذا المدَّعي، وإن لم تكن في الجبلة، وكانت مكتسبة كما يرى بعضهم، فإن اللَّه تعالى قد أعدمها من ذلك المحل، بخلق ضدها كما فعل بإبراهيم ﷺ فقال: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: 69] فلو ترك لأحرقته، إذ حقيقة النار الإحراق، فأعدمها وأوجد البرد، كذلك تلك القوة فلا سبيل إلى قلب تلك الحقائق، فإنه لو صحَّ أن

ينقلب من عين حقيقة ما، لانقلبت الحقائق كلها جوازاً عقلياً يقضي به.

وما بقي بأيدينا علم أصلاً، لعله قد انقلبت حقيقة المعلوم، ولم يثبت توحيد في قلب أصلاً، لعل من قام الدليل، لا على توحيد أمر ما، قد زال عن وحدانيته، وهذا لا سبيل إليه، ومما يؤيّد ما ذكرناه قول رسول اللّه ﷺ: إذا أراد اللّه إنفاذ قضاء وقدر، سلب ذوي العقول عقولهم، حتى إذا مضى قدره فيهم، ردّها عليهم ليعتبروا. فلو بقي لهم العقل لبقي لهم النظر.

منازل هذا العضو

اعلم يا بني، أنك لا تعرف منازل التلاوة، ما لم تعرف الكتب المتلوّة بأعيانها، فإذا عرفتها عرفت حينئذٍ كيف تتلوها، وكيف تسمعها ممن يتلوها عليك، فتحقّق واللّه المرشد أسماء الكتب المنزلة: الكتاب المنير، والمبين، والمحصي، والعزيز، والمرقوم، والمسطور الظاهر، والمسطور الباطن، والجامع تعيين أربابها القائمين بها: فالمنير لأهل الحجج، والمبين لأهل الحقائق، والمحصي لأهل المراقبة، والعزيز لأهل العصمة، والمرقوم الحكيم للمرسلين والورثة، والمسطور الظاهر تأويلاً واعتباراً لأهل الإيمان، والمسطور الباطن اعتباراً أيضاً لأهل الإباحة، والجامع للروحانيين الملكيين.

علامات التالين لها على الحضور

فمن ادَّعى أنه تلى المنير، علامته المكاشفة، ومن ادَّعى أنه تلا المبين، علامته التميز والترتيب، ومن ادَّعى أنه تلا المحصي، علامته الوقوف عند الحدود، ومن ادّعى أنه تلا العزيز، علامته أنه يجهل مقامه، ومن ادَّعى أنه تلا المرقوم الحكيم، علامته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتسليم للّه في كل حال، ومن ادَّعى أنه تلا المسطور الظاهر علامته المجاهدة، ومن ادَّعى أنه تلا المسطور الباطن علامته الزندقة، ومن ادَّعى أنه تلا الكتاب الجامع، علامته الخروج عن البشرية، ولحوقه بهيولانية ملكية كأبي عقال وغيره، علامات من تلاها الحق عليه وليس من هذا الباب، وإنما هو من باب السمع.

فاعلم يا بني، أنه من تلا الكتاب المنير عليه قمع هواه، ومن تلا عليه المبين شاهد معناه، ومن تلا عليه كتاب المحصي سلك طريق هداه، ومن تلا عليه كتاب العزيز اجتنب رداه، ومن تلا عليه المرقوم الحكيم بلغ مناه، ومن تلا عليه ظاهر المسطور فاز برحماه، ومن تلا عليه باطن المسطور كان الشيطان مولاه، ومن تلا عليه الجامع لم ينظر إلى سواه.

المنزل الأول

تلاوة العبد على الحق تبارك وتعالى

لعلك تشتهي يا بني، أن ترسم في التالين لهذه الكتب على الحق تعالى، بأن تمر على حروفه وتكون فيه حالاً مترحلاً، وأنت لا تعقل معناه، ولا تقف عند حدوده، أو تتخيَّل أن يقول لك الحق تبارك وتعالى، عند قولك الحمد للّه رب العالمين حمدني عبدي، لا واللّه يا بني، ما يراجع الحق سبحانه وتعالى بقوله حمدني عبدي، وأثنى علي عبدي، إلاَّ أهل الحضور معه عند التلاوة، بأنه مناج نفسه بفعله والمناجي بإحاطته وذاته، وأهل التدبير والتذكير، لما أودع في كتابه العزيز من الأسرار والعلوم، بفهم كل عبد على قدر مقامه وذوقه وكشفه.

قال تعالى: ﴿لِيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: 29] وقال تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ﴾ [البقرة: 60] بل أقول أن كل من قعد على منهج الاستقامة، وكانت حيلته الطاعة، وكان اللسان صامتاً عن تلاوة القرآن، فإنه حامد للّه بحاله، شاكر له بأفعاله، ويقول اللّه فيه حمدني عبدي، فإذا كان اللسان يقول الحمد للّه، والقلب في الدكان أو في الدار أو في عرض من الأعراض، متى عرف من هذه صفته أن يحمد اللّه.

وكيف ذلك والقلب غافل بما هو عليه، عما جرى به لسانه، فإذا وفّقك اللّه، وتريد أن يسمع الحق جلَّ اسمه منك تلاوتك، ويرسمك في ديوان التَّالين، ويقول لك على الكلمات حمدني.

فاعلم منازل التلاوة ومواطنها وكم التالين منك، وذلك أن تعلم أن

على اللسان تلاوة، وعلى الجسم بجميع أعضائه تلاوة وعلى النفس تلاوة، وعلى القلب تلاوة، وعلى الروح تلاوة، وعلى السر تلاوة، وعلى سرّ السرّ تلاوة.

فتلاوة اللسان ترتيل الكتاب، على الحد الذي رتَّب المكلّف له، وتلاوة الجسم المعاملات على تفاصيلها في الأعضاء التي على سطحه، وتلاوة النفس التخلّق بالأسماء والصفات، وتلاوة القلب، الإخلاص والفكر والتدبّر، وتلاوة الروح التوحيد، وتلاوة القلب الإخلاص والفكر والتدبّر، وتلاوة الروح التوحيد، وتلاوة السرّ الاتحاد، وتلاوة سرّ السرّ الأدب، وهو التنزيه الوارد عليه في الإلقاء منه جلّ وعلا.

فمن قام بين يديّ سيده بهذه الأوصاف كلها، فلم يرَ جزءاً منه، إلاّ مستغرقاً فيه على ما يرضاه منه كان عبداً كلياً، وقال له الحق تعالى: إذ ذاك حمدني عبدي، أو ما يقول على حسب ما ينطق به العبد قولاً أو حالاً، فإن كان فيه بعض هذه الأوصاف، وتعلّقت غفلة ببعض التالين فليس بعبد كلي، ولا يكون فيه للحق تعالى من عبودية الإختصاص، إلاّ على قدر ما اتّصفت به ذاته.

فثمَّ عبد يكون للّه فيه السدس ولهواه ما بقي، وللّه فيه الخمس ولهواه ما بقي، والربع، والثلث، والنصف، على قدر ما يحضر منه مع الحق تعالى، من حيث هو نوري كما جاء في الصلاة، أنه لا يقبل منها إلاّ ما عقل منها، عشرها، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها، فإن حضر في الكل حصل له الكل، فإن مجيء الحق لك على قدر مجيئك له، أليس اللّه تعالى يقول: من تقرَّبَ إلي شبراً، تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرَّبَ إلي ذراعاً، تقرَّبت منه باعاً، ومن أتاني يسعى أتيته هرولة، فالسعي إلى السعي هرولة.

وفي هذا الحديث فائدتان الواحدة أن يعطي فوق ما يتمنى العبد مصداق ذلك، أن في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فقد أعطانا ما لا يدخل تحت علمنا والإرادة شرط في العلم.

والفائدة الأخرى المتعلقة بما كنا بسبيله من أن مجيء الحق لك بالجود على قدر مجيئك له.

فإذا تقرَّبتَ إليه شبراً، تقرب اللّه سبحانه إليك بجوده ذراعاً، ولكن بمن تقرَّبتَ إليه شبراً، فهو الذي تقرَّبَ إليك عناية منه بك بهذا الشبر، الذي تقرَّبتَ إليه به، وتقرَّبَ إليك ثواباً وجزاءً، على ذلك الشبر الأول شبراً آخر فضلاً أيضاً، فكان من كلاهما ذراعاً وهكذا. ما بقي فهو المتقرب به إليه بفضله، فكأنه ينبِّهك، ويقول لك بقوله تقربت إليك ذراعاً يا عبدي، إذا تقرَّبتَ إليّ، واشهدني في تقريبك تقرباً لك إليَّ، آخذاً بناصيتك، وأنت كالميت لا فعل لك، ثم أجاز بك على ذلك بمثل ما جئتَ به، فإن جئتَ بك إلى خير، جئت إليك بخير، وإن كان ما سوى ذلك فأنا الحكم العدل، وإنما هي أعمالكم تردُّ عليكم.

وهذا الوجه غامض جداً، يتصور عليه اعتراض، ولكن إذا حققتَ ما أشرنا إليه، ارتفع الاعتراض، فابحث عن ذلك وتحققه في نفسك، فإنه من أرفع المنازل في هذا المقام.

فانظر يا بني أين تجعل همتك، وكيف تكون مع الحق الذي إليه مردك، فإنك لا تجد عنده إلاً ما قدمت، وقد علمتَ المنازل. فإما عبداً كلياً وإما جزء عبد، فتدبّر هذه التلاوة، والزمها نفسك في حركاتك وسكناتك، فلا تتحرّك إلاً باللّه، وللّه، ومع اللّه، وفي اللّه، وإلى اللّه، وعن اللّه، ولا تسكن إلاً على هذا الحدّ، فباللّه حيث توليه لك في ذلك، وللّه من أجله لا من أجلك، ومع اللّه من حيث المشاهدة والمراقبة، وفي اللّه من حيث التدبّر والتفكّر، وإلى اللّه من حيث التوجه والقصد، وعن اللّه من حيث التكليف.

وهكذا فلتكن في تلاوتك فإنه سبحانه: ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: 7] فلا يطلع عليك في سرك وعلانيتك، على ما لا يرضاه منك، وإن كان هو الفاعل سبحانه الموجد الفعل، فالزم ما كلفت من الأدب، وما تقتضيه الحضرة الإلهية من الإجلال والتعظيم.

واعلم أن اللّه تعالى خلق الأفعال كلها، ثم قسمها سبحانه وتعالى إلى

محمود ومذموم، فانظر حيث يقيمك، فإن أقامك في مذموم، فاعلم أنك في الوقت ممقوت، فاستدرك بالإزالة والتفرُّغ والإنابة، وإذا أقامك في محمود، فاعلم أنك في الوقت محبوب، فإن فعلتَ يا بني ما لا يرضى الحق منك، فارجع على نفسك بالمذمة والتقصير، فإنك مأجور في هذه الشركة، بل هو حقيقة التوحيد.

فإن توحيداً بغير أدب ليس بتوحيد، فإنك إن لم ترَ العيب من نفسك، ولا رجعت عليها بالذم، ولا ندمتَ على فعلك، لم يصح لك توبة، وإذا لم تتب لم تكن محبوباً، ولا تنفعك تلك الحقيقة في الدنيا ولا في الآخرة.

ثم تعلّم يا بني، إذا كان فعلك الذي عبّرنا عنه تلاوتك باللّٰه فإنك مشاهد صاحب محو، وإذا كنت مع اللّٰه فأنت مريد صاحب حال، وإذا كان في اللّٰه فأنت صاحب إثبات، وإذا كان عن اللّٰه فأنت صاحب وقت، وإذا كان إلى اللّٰه فأنت عارف صاحب همَّة، جمع اللّٰه لنا ولكم هذه المقامات، وعصمنا من الآفات بكرمه آمين.

منزل تلاوة الحق على العبد

لعلك يا بني، تشتهي أن يتلو الحق عليك كتابه وأنت ملاحظ نفسك، موجود مع أبناء جنسك هيهات إذا أراد الحقّ أن ينزلك هذا المقام، ويسمعك تلاوته على حسب ما يريده، إما من حيث صفته، وإما من حيث فعله على اختلافه، فمتى شاء هذا بك أفناك عنك، وجرَّدك منك، وبقيت في الوجود شبحاً مفقوداً، فإذا فعل بك تلاه عليك، وتلاوته عليك على ثلاثة أضرب:

الأول: إيجاده المحامد فيك، فإذا أوجدها فيك، وظهرت أحكامها عليك، وتحقَّقت بكل صفة محمودة، فكان بحق قد قال لك بآثار فعله فيك لك الحمد يا عبدي، فيقول العبد عند مشاهدة ذلك الخطاب الحالي الوصفي حمدني ربي، ثم يرجع العبد بالحمد على اللّٰه لما أولاه، فيقول الحمد للّٰه رب العالمين، فيقول اللّٰه عند ذلك حمدني عبدي.

وهكذا تناسب الصفات مع الثناء، صفة بعد صفة حتى ينتهي حيث

ينتهي بك، فالحق الحامد والمحمود، والعبد حامد ومحمود، وليس إلاَّ اصطفايته إلاَّ ثنية الآلهية، وهذا المقام يفصل بين العبد والرب، فإن الحقَ تعالى ليس له حامد يحمده من ذاته، محدث ما لم يوجد سبحانه في ذلك الحامد صفة الحمد، التي يكون بها حامداً.

وإذا كان الأمر على هذا، فيكون سبحانه وتعالى إذ ذاك الحامد نفسه بفعل لا العبد، فلهذا ما أثبتنا العبد لنفسه فما محمود إلاَّ حامد، فإن اللّه تعالى يصفه، وهو ليس بواصف في هذا المقام، فتدبَّر في هذا الضرب قبل التلاوة ترَ عجباً.

الضرب الثاني: الذي يحصل للعبد، بعد هذا الضرب الأول من التلاوة، هي تلاوته عليه بما ينتجه في العبد، عند حصول تلاوة المحامد التي ذكرناها، من الأسرار والحكم وعلوم الترتيب، وتلاوته عليه تلاوة الإطلاع الاختصاصي بالتجليات السببية، فإذا اتصف بهذه الأوصاف، كان الحق يقول له مثل الرحمن الرحيم حالاً، فيقول العبد عند ذلك تخلقاً أثنى علي ربي، بأن وهبني ما يوجبه الثناء، والحمد مما لا تدركه العقول، حتى ترتفع الهمة لطلبه اختصاصاً واصطفاءً وجوداً مطلقاً، جعل لي بذلك لسان صدق في الآخرين، فهو الرحمن الرحيم على الحقيقة، فيقول الحق عند ذلك أثنى علي عبدي، فيصير الأمر دورياً بين العبد والحق.

والفرق بين التلاوتين في هذين الضربين، أن التلاوة التي في الضرب الأول تلاوة تخلق، والتي في الضرب الثاني تلاوة تحقق، لا يجوز الاتّصاف بها، فإن الحقيقة تأبى ذلك، وهو وهب رباني، وجود إلهي وتدبّر أيضاً هذا الضرب، ترَ عجباً.

الضرب الثالث: تلاوة خارجة من الخلق والاختراع والابتداع، ينالها بعض العبيد في هذه الدار حقيقة واطلاعاً، وينالها بعضهم في الدار الآخرة، وهذا فضل منعنا عن كشفه، لقلة احتمال بعض عقول الخلق من العلماء والعارفين، فتركناه لك، حتى تكشف عليه من نفسك، إن كنت منهم. كمل الجزء الأول والحمد للّه وحده.

الفلك اليميني

لعلك تسأل عن يدك؛ أين جعلها في الوجود، وأين مرتبها في حضرة الجود، فاسمع أيها الإبن السعيد:

من كان يبطش بالرحمن فهو فتى كـان الـتـكـرّم هـجـيـراً لـه فـعـلا
فسله أن يقبض الدنيا ويبسطها يـداك تـفـعـل كـلا ربـكـم فَـعَـلا

وهذه يا بني درجة شريفة، لا تنالها أبداً ما لم تلحق، ولا تلحق حتى تمحق، ولا تمحق حتى تحقّق، ولا تتحقّق حتى تتخلّق، ولا تتخلّق حتى توفّق، ولا توفّق حتى تصحب ذا الخلق الموفق، فإن صاحبته وفِّقت، وإذا وفِّقت خلقت، وإذا خلقت حقَّقت، وإذا حقَّقت محقت، وإذا محقت ألحقت، وإذا ألحقت نفضت ما بيدك من الكائنات، وخرجت عن ملك يمينك وعن هذه الصفات، وكانت يدك يد الطول تعطى وتمنع بيد حق.

واعلم يا بني، أن العبد الموفق المراد، إذا تحقّق في مراعاة التكليف المتوجه عليه شرعاً في يده، فصرفها فيما أبيح له، وبسطها فيما وجبَ عليه أو ندب إليه، وقبضها عما حرّم عليه، أو كره له، أو أبيح له ورعاً وهمة فمن حسن إسلام المرء، تركه ما لا يعنيه.

فالواجب كإخراج الزكاة وما أشبهه، والمندوب كصدقة التطوع والمحظور كالسرقة، ولمس ما لا يحل له لمسه، والضرب في غير حق وأشباه ذلك.

والمكروه كلمس الذكر باليمين عند البول، والاستنجاء باليمين وغير ذلك.

والمباح كجليس خيَّاط أو نجار، فيمد يده لبعض ما عونة، فيمسكه في يده من غير حاجة، أو يقلّب ثوباً. وأنواع ذلك هذا كله.

فإذا وقف عند الحدود، ووفى بالعهد، أثمر ذلك الوقوف السخا والزهد وبذل المال، كما قال ﷺ: «إلاَّ من قال هكذا وهكذا». يعني بماله ولا يفعل هذا ما لم يتخلق بأسرار أسماء يده وما جاورها، فذلك يؤدي إلى

رمي الدنيا وأعراضها، وذلك بأن يثني بثنائه التسبيحات، ويظفر بأظفاره على ماله فيوجّهه في سبيل البر، ولو أعطى الكنزين، لا يلتفت إليهما تعشقاً، ويخرجهما إن ملكهما ويزهد فيهما، كما فعل من سلك أثره، أسوة له ﷺ حتى تبذل له أسرار الوجود، ويكفَّ كفَّه عن المحارم، وبعصمته يعتصم عن المحظورات والمكروهات.

ويلاحظ فيها عصمة اللَّه، له ابتداءً بالوجود من العدم، وتقلُّبه العصمة في أطوار وجوده بالإسلام من الكفر، وبالتوحيد العام من الشُّرك العام، وبالتوحيد الخاص من الشرك الخاص، وبالإيمان من النفاق، وبالإحسان من الحجاب، وبالإحسان من الإحسان، الذي تراه من الإحسان الذي يراك، وبالحياة الخاصة والعامة من المؤثّر الخاص والعام، وبالإنسانية من البهيمية، وبالصفات من الآفات، وبالعلم من الجهل، ومن الزهد بالرغبة.

ثم إن ارتقى بالتخلّق، نظر إلى عصمته بالصبر من الجزع، وبالرضا من الصبر، وبالشكر من الكفران، وبالعدل من الجور، وبالانتباه من النوم، وبالذكر من النسيان، وباليقظة من الغفلة، وبالصحو من السكر، وبالرجا من الخوف، وبالبسط من القبض، وبالجود من الوجود، وبالأنس من الهيبة، وبالجمال من الجلال، وبالاعتدال من الجمال، وبالوصال من الشوق، وبالرجوع من الوقف، وهكذا في جميع الأحوال والمقامات.

وأن يدرع بدراعة ذاته مع التكلُّفات، لإقامة الوزن وإظهار العدل، وأن يترفق بالاعتبار مرفقة بمولاه، ويعتقد به بعضده، وأن يساعد الأوامر الإلهية بسعادة، وأن يكتفي بمعرفته ومشاهدته بكنفه، وأن يتأيَّد في الأسباب الموصلة إلى سعادته بيده، وأن يتماض في ذلك كله بيمينه، وأن يؤثّر على إخوانه بيساره، وأن يشمل جميع الخيرات والمحامد في نفسه بشماله.

وهكذا إلى جميع أسرار ما يتعلق بأسمائه من الحكَم والاعتبارات، الموصلة إلى السعادة الأبدية صاحبها المتصف بها، فإن اللَّه تعالى ما وضع شيئاً باطلاً: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: 191]. ﴿وَمَا خَلَقْنَا

ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [ص: 27]. ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰ
وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ [الدخان: 38].

فما في الوجود شيء إلاَّ لحكمة علمها من علمها، وجهلها جهلها، فالوجود كله ما انتظم منه شيء لشيء، ولا انضاف منه شيء إ شيء، إلاَّ لمناسبة بينهما ظاهرة أو باطنة، إذا طلبها الحكيم المراق وجدها. كما حكي عن الإمام أبي حامد الغزالي رحمه اللَّه، وهو ، رؤساء هذه الطريقة وساداتهم، وكان يرى المناسبة ويقول بها، فرأى يو بالقدس حمامة وغراباً، قد لصق أحدهما بالآخر وأنس به، ولم يستوح منه فقال الإمام: إجتماعهما لمناسبة بينهما، فأشار إليهما بيديه فدر وإذا بكل واحد منهما عرج.

وكذلك اتفق لشيخ الشيوخ بمغربنا، أبي النجا المعروف بأبي مدين اتفق له يوماً أنه علق خاطره بالغير، فماشاه شخص وهو على ذلا الخاطر، فاستوحش منه الشيخ فسأله، فإذا به مشرك باللَّه تعالى، فعا المناسبة وفارقه.

فالمناسبة في سياق الأشياء صحيحة، ومعرفتها من مقامات خواص أه الطريقة رضوان اللَّه عليهم، وهي غامضة جداً موجودة في كل الأشياء، حت تبين اتساق الإسم والمسمَّى. ولقد أشار أبو زيد السهيلي، وإن كان أجنب عن أهل هذه الطريقة، ولكنه أشار إلى هذا المقام، في كتاب المعارف والأعلام له في اسم النبي ﷺ محمد، وأحمد، وتكلم على المناسبة، التي بين أفعال رسول اللَّه ﷺ وأخلاقه، وبين معاني اسميه محمد، وأحمد.

فالقائلون بالمناسبة من طريقنا عظماء، أهل مراقبة وأدب واشتغال بنفوسهم وبأحوالهم، ولا يكون إلاَّ بعد كشف علمي ومشهد ملكوتي، ولا سيما للملامتيين من المشايخ من أهل طريقتنا، كشيبان الراعي، وأبي يزيد البسطامي، رضيَ اللَّه عنهم، ومن لقينا من المشايخ كالعربي، وأحمد المرسي وعبد اللَّه البرجاني وجماعة.

فإذ تخلَّقت وفقك اللَّه، بكل ما قصصناه لك في أسمائك إسماً إسماً،

وما أشرنا إليه آنفاً، فيجب عليك إماط الغطاء الذي هو أصل الوجود الظاهر والباطن، وهو سبب كشف الغطاء عن عين العبد في هذه الدار، وهو الجود والكرم والسخاء والإيثار، فالجود عطاؤك ابتداءً قبل السؤال، والكرم عطاؤك بعد السؤال، عن طيب نفس لا عن حياء، إلاَّ عن تخلُّق إلهي، وطلب مقام رباني، والسخاء عطاؤك قدر الحاجة للمعطى إليه لا غير، والإيثار عطاؤك ما أنت محتاج إليه.

واعلم أن بالعطاء صحة الخلّة، على ما قيل لإبراهيم عليه السلام، وذلك أن اللّه تعالى أرسل إليه جبريل على صورة شخص، فقال: يا إبراهيم أراك تعطي الأوداء والأعداء، فقال: تعلَّمت الكرم من ربي، رأيته لا يضيعهم، فأنا لا أضيعهم فأوحى اللّه تعالى إليه أن يا إبراهيم أنت خليلي حقاً. فإذا صحّ منك الزهد، وكان اللّه الملك، وأنت العبد حصلت تحت الملك لا تملك، وتيقَّنت أنك واسطة فيما صرفت، وتبين فيك سقوط الدعوى والافتقار، ويرقى بك إلى منازل المقربين والأبرار، فشاهدت من الأسرار، على قدر ما وهب لك الواهب، قال اللّه تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ [طه: 69].

فمن ألقى إرادة نفسه في بحر إرادة مورده وميدانها، تولاَّها بلطف حكمته، وأجرى عليها سابق عنايته، فأحياها حياة السعادة والتمليك، فامتحق كل زور وباطل، وخنس من دلاه بغرور، وردَّت إليه بعدما ألقاها، وحصل لها الشرف الكامل على أبناء جنسها، فتلك النفس المطمئنة الراضية المرضية، الداخلة في عباد الاختصاص، وفي الفراديس العليَّة جوار الرحمن، وكانت يداه مبسوطتان، تنفق كيف تشاء لأنها في محل الكشف، لا تتحرك إلاَّ عن الإذن.

ومن كرامات صاحب هذا المقام، إدخاله يده في جيبه، فتخرج بيضاء من غير سوء، كما كان هذا لموسى عليه السلام، ونبعَ الماء من بين الأصابع، كما كان هذا لمحمد ﷺ، ورمى التراب في وجه الأعداء فانهزموا، وقبض من شاء اللّه تعالى من الأولياء في الهواء، فيفتح عن

فضة وذهب، إلى أمثال هذا المنزل يرتقي العبد بعد تخلّقه، بما وصفناه آنفاً إلى عالم الغيب، فيشاهد اليمين ماسكة قلمها، وهي تخطّط العالم في لوح الوجود المحفوظ حرفاً حرفاً، مشكولاً، منقوطاً، لتمييز الحقائق بين المتماثلات والأشكال، كالأنواع مثل صبغة الإنسان مثلاً، والنوع ذوات الأربع، وذوات الجناح، وكذلك أصناف الجمادات مع الحيوانات، والحيوانات ما بين الناميات وغير الناميات، فأمثال متفرقة بذواتها لم تحتج إلى نقطة. وما اشترك في النوع احتاج إلى فصل في الأشخاص بأمر عرضي كالزاهد، والعابد، والصوفي، والفاسق، والكافر، والمؤمن، وفي طريقتنا كالرباني، والرحماني، والإلهي، وفي المقامات كالملكوتي، والجبروتي، والملكي.

فلا يزال صاحب هذا المقام ينظر في ذلك التخطيط والتشريف وإيجاد تلك الحروف على أبدع نظام بأحسن رقم في أحسن لوح.

فإذا طال عليه النظر، في جزئيات الكون هي كثيرة والعمر قصير، والوقت عزيز والعبد مشتغل بتحصيله له، بثَّ اللّه في نفسه التضرع، والابتهال، والرغبة إلى اللّه تعالى، إلى أن ينقله إلى مقام، ينحصر له فيه جميع الموجودات كلها، ليأخذ الحكم دفعة فيعيش بها في أوقاته، فإذا صدقَت هذه الهمَّة منه، وتعلَّقت بالحق لذلك، وقالت لو اختصرت لي معانيه على الكمال في شيء محصور، تحيط به العين في لحظة واحدة على الدوام لا فقده، فإنك قد تردَّني لعالم الشهادة، فأغيب عن هذه المنازل العليّة.

قال اللّه تعالى: يا أيّتها الهمّة لك ذلك، فينفتح له باب إلى مشاهدة نفسه، فيشاهد اليمين تصقل نفسه الزكية ومرآة قلبه الكريم، فما زال يشهدها، حتى إذا صُقلت وزال صدأها ورانها، امتدت يد البسط إلى باب المشيئة، ففتحت ما بين باب جزئي، وباب كلي، وجعلت المرآة الكريمة الصقيلة تجاه الباب الكلي، فانطبعت فيه الصور الكائنة خلف ذلك الباب الكلي، وهي منازل العالم الكبير بأسره وحقائقه، فتقعد عين البصيرة، تتفرج في شيءٍ واحدٍ، لا يتحيز ولا يردُّ رأسه لا يميناً ولا شمالاً، ولا إلى جهة من

الجهات، فإذا قرن ما تجلّى في مرآة القلب مع المتجلّي نفسه، جاءت صورة المرآة ألطف، وأحسن، وأحكم، وأبدع من ذوات المتجلّيات، وعلى قدر اللطافة والحسن والجمال، تعظم اللذة في نفس المشاهدة.

وأما الباب الجزئي، فهو باب حكم التجلّي وأسرار المتجليات، وما أبدع في طيّها من المعارف القدسية، والمعالم الربانية المتعلقة بالحضرة الإلهية، وهي التي لا تتناهى لكونها غير حاصلة في الوجود، لأن ذلك راجع إلى فهمك، وإلى ما يوجده الحق فيك، عند مشاهدتك إياها لا إلى ذواتها، فغايتها السببية في تحصيل الأسرار، التي تدلّ عليه عندك، فهي حروف وألفاظ، جاءت لمعنى يوجدها الحق فيك مقترنة بشهودها.

ولا يكون فتح ذلك الباب، إلاَّ على قدر ما يريده الواهب، أن يفتح منها على من يشاء من عباده، لكنه في المزيد على الدوام فمقامات العوالم محصورة، ومعالمها وأسرارها محصورة.

ثم لا يزال كذلك، يأخذ من هذا العالم المواهب الإلهية على مراتبها، ويدفعها للفقراء ممن دونهم على مراتبهم ومنازلهم، وحجاب غفلة الكون دونه مسدول، حتى تمتدّ له اليد المقدّسة، فكل شيء هالك إلاَّ وجهه، فيلوح له عند ذلك حجاب الكون وسدّ الغفلة أمامه، فترفع الهمة لخرق ذلك السدّ، ورفع الحجاب، فينادي من خلف الحجاب، لا يصل إلينا من استمسكت يده بشيء من غير حضرتنا، فازهد تجد الغنى والراحة، واترك العالم وموجدهم.

أي: لا تتعرض عليه فيهم، أتريد أن تكون رباً ثانياً؟ فيتوب القلب عند سماع ذلك الخطاب، ويستغفر ويتضرع، ويغمض عينيه عن ملاحظة نفسها، ومشاهدة مرآتها، فتطوي اليمين عند ذلك سماء القلب، وتميط عنه أكوانه، وتبدو العين السليمة فإذا بدت شهدت اليمين اليمين، والنعت النعت، والإسم الاسم، والذات الذات، واجتمع الكل وانتظم الشمل، واطلع على الملك بأسره، فوجده في قبضته، مرتقماً في حقيقته، حقيقته اللطف منه في مرآة قلبه، لأنه شاهد في مرآة موجده، فارتقم فيه من لطف إلى لطف، وإلى

هذا المقام أشرت بقولي في قصيدتي، التي كتبت بها إلى أبي العبا الرقاشي رضي اللّه عنه:

فمنها وجود الخلق في الحقّ فاعتمد عليه ولا تبدو لديك تفوز

وهذه الغاية القصوى والمستوى الأعلى فمن حصل فيه ووقف ع حقائقه ومعانيه، فهو الذي تشدُّ إليه الركائب، وتقطع لرؤيته السباسب، و ميقات المبايعة الإلهية، الذي قال اللّه فيه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10] وقد أفردنا لهذا المقام بما يجب، كتاباً ك سميناه مبايعة القطب. لم أذكر فيه سوى هذا المقام، خاصة فيه قيد ه الإمام، المرتقى به إلى هذه المرتبة حجرة الأسود، وقلبه كعبته المقصود وجسده حرمة المطهّر، وسره عرفانه، ونفسه محصّبه وأنشدت:

هذا المقام وهذه أسراره رفع الحجاب وأشرقت أنوارهُ
وبدا هلال التم يسطع نوره للناظرين وزال عنه سرارهُ
فأنا روض القلب في ملكوته وأتت بكل حقيقة أشجارهُ
عند التنزّل صحّ ما يختاره قلب أميطت بالردا أستارهُ
وبدا النسيم ملاعباً أغصانه فهفت بأسرار العلى أطيارهُ
جادت على أهل الروائح منّةً منه بريا طيبها أزهارهُ
هذا الفؤاد بحبه فتقدّست أوصافه وتنزّهت أفكارهُ
وتنزّل الروح الأمين لقلبه يوم العروبة وانقضت أوطارهُ
إنَّ الفؤاد مع التنزّل واقف ما لم يصح إلى النزيل مطارهُ
من كان يشغله التكاثر لم يكن يغنيه يوم وروده إكثارهُ
من ينتمي لحقيقة يصبر على بأسائها حتى يرى مقدارهُ
لا كالذي أمسى لذاك منافراً والمنتمي من لا يخاف نفارهُ
من يدّعي أن الحبيب أنيسه في حاله فدليله استبشارهُ
من يدَّعي حكم الكيان فإنه قد تيمته بحبها أغيارهُ
من كان يزعم أنه من آله سبحانه فمشهودة أذكارهُ
شهداء من قال الوجود شعاره أمر يعرف شرعه ودثارهُ

وأنينه مما يراه وصمته ... عنه وعبرة وجده وأوارهُ
ما نال من جعل الشريعة جانباً ... شيئاً ولو بلغ السماء منارهُ
الحال إما شاهد أو وارد ... تجري على حكم الهوى آثارهُ
والناس إما مؤمن أو جاحد ... أو مدعٍ ثوب النفاق شعارهُ
المنزل العالي المنيف بناؤه ... واهِ متى ما لم يقم عمارهُ
العقل إن جاريته في ذاته ... فلك على نيل العلوم مدارهُ
لو كان تسعده النفوس فإنما ... حجبته عن نيل العلى أوزارهُ
فإذا أتته عناية من ربه ... في الحال حفَّ ببابه زوارهُ
ورأيته لما يخلص روحه ... من سجنه أسرى بها جبارهُ
وقد امتطى رحب الديار مدبراً ... يدعى البراق فما يشق غبارهُ
تهوي به الهوج الشداد فيرتمي ... نحو الطباق وشبههن شعارهُ
ما زال ينزل كل نور لائح ... من جانبيه فما يقرُّ قرارهُ
حتى بدت شمس الوجود لقلبه ... وبدا لعين فؤاده أضمارهُ
وتلاقت الأرواح في ملكوته ... فتواصلت ببحاره أنهارهُ
مدَّ اليمين لبيعة مخصوصة ... أبدا لها وجه الرضا مختارهُ
لما بدا حسن المقام لعينه ... عقدت عليه خلافة أزرارهُ
ثم التوى يطوي الطريق لحبسه ... ليلاً حذاراً أن يبوح نهارهُ
وأتت ركائبه لحضرة ملكه ... بودائع تعتادها أبرارهُ
وتوجهت سفراؤه بقضائه ... في كل قلب لم يزل يختارهُ
وحمت جوانبه سيوف عزائم ... منه وطاف ببابه سمَّارهُ
أين الذين تحقَّقوا بصفاتهَ ... هذا العداة فأين هم أنصارهُ
من يدَّعي حب الإمام فإنما ... قذفتَ به نحو المتون بحارهُ
وسطى على جيش الكيان بصارم ... عضب المضارب لا يفلُّ غرارهُ
من يهتدي أهل النهي بمناره ... ذاك الخليفة تقتفي آثارهُ
إن الذين يبايعونك إنهم ... ليبايعون من اعتلت أسرارهُ
فيمينك الحجر المكرَّم فيهمُ ... يا قبضة خضعت لها اخيارهُ
يا بيعة الرضوان دمت سعيدة ... حتى تعطَّل للإمام شعارهُ

إن الديار بلاقع ما لم تكن صفو اللجين يزيلها ونضارهُ
المال يصلح كل شيءٍ فاسدٍ وبه يزول عن الجواد عثارهُ

الفلك البطني

في شهوة البطن سر ليس يعلمه إلاَّ الذي شاهد الرزق رزَّاقاً
لولا الغذاء ولولا سرُّ حكمته ما لاح فرع ولا عاينتَ إعراقاً
وكل حلالاً إذا كان المحلل مو جداً بقلبك وهابا وخلاَّقاً

اعلم يا بني، أن اللَّه تعالى، لما أراد أن يرتقي عبده الخصوصي، إلى المقامات العلية، قرَّب منه أعداءه حتى يعظِّم جهاده لهم، وليشتغل بمحاربتهم أولاً، ثم بمحاربة غيرهم من الأعداء، الذين هم منه أبعد. قال اللَّه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةًۚ ﴾ [التوبة: 123].

وحظُّ الصوفي، وكل موفق من هذه الآية، أن ينظر فيها إلى نفسه الأمَّارة بالسوء، التي تحمله على كل محظور ومكروه، وتعدل به عن كل واجب ومندوب للمخالفة، التي جبلها اللَّه عليها، وهي أقرب الكفَّار والأعداء إليه، فإذا جاهدها وقتلها أو أسرها، حينئذٍ يصلح له أن ينظر في الأغيار، على حسب ما يقتضيه مقامه، وتعطيه منزلته.

فالنفس أشدّ الأعداء شكيمة، وأقواهم عزيمة، فجهادها هو الجهاد الأكبر، فمن ثبَّت قدمه في ذلك الزحف، وتحقق بمعنى ذلك الحرف، انتهض بهم في الملكوتي مليكاً، وكان له الملك جليساً، غير أن هذه النفس العدوَّة الكافرة الأمارة بالسوء، لها على الإنسان قوة كثيرة، وسلطان عظيم بسيفين عظيمين ماضيين، تقطع بهما رقاب صناديد الرجال وعظمائهم، وهما شهوتا البطن والفرج، اللتان قد تعبدتا جميع الخلائق وأسرتهم.

ومن عظمهما وكبير فعلهما، حتى أفرد لهما الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رضيَ اللَّه عنه، كتاباً سمَّاه كسر الشهوتين، في إحياء علوم الدين له، وكذلك اعتنى بهما كبار العلماء رضيَ اللَّه عنهم، والذي يتوجه

عليك في هذا الباب، أن تبدأ بالحسام الواحد، الذي هو البطن، ثم يليه الفرج بكراماته ومنازله، كما تقدم في الأعضاء التي ذكرناها.

فاعلم يا بني، أيَّدك اللّه بجنود التأييد، ونصرك على إحياء كلمة التوحيد، أن اللّه تعالى قد سلَّط على هذا العبد الضعيف المسكين، المسمَّى بالإنسان شهوتين عظيمتين، وآفتين كبيرتين، هلك بهما أكثر الناس هما: شهوة البطن والفرج، غير أن شهوة الفرج، وإن كانت عظيمة وقوية السلطان، فهي دون شهوة البطن، فإنها ليست لها تأييد لأمر سلطان شهوة البطن، فإن غلب هذا العدو البطني، يقل العتب مع الفرج، بل ربما يذهب له ذهاباً كلياً، فهذه الشهوة البطنية، تجعل صاحبها أولاً يمتلئ من الطعام، مع علمها أن أصل كل داء البردة دينياً كان أو طبيعياً.

فالداء الطبيعي الذي تنتجه هذه البردة، هو فساد الأعضاء من أبخرة فاسدة، يتولَّد منه آلام وأمراض مؤدية إلى الهلاك. كما حُكي عن سليمان بن عبد الملك بن مروان، وكان ذا نهمة في الطعام، فخرج يوماً، فوجد دابة عليها زنبيل فيه بيض طبيخ، فدعا بتين وهو راكب، فما زال يقرن التين بالبيض، حتى أتى على آخر ما كان في الزنبيل، فوجد لذلك ثقلاً في معدته، أهلكه وأورثه القبر. فانظر هذه الشهوة كيف ساقت إليه حتفه، نسأل اللّه العافية في الدين والدنيا والآخرة. قيل للشبلي رضي اللّه عنه، أن ابنك يشمُّ البارحة من كثرة ما أكل فقال: لو مات ما صلّيت عليه. كأنه يقول تعنيفاً له، فإنه قاتل نفسه فهذا هو الداء الطبيعي.

وأما الداء الديني، الذي يؤدّي إلى هلاك الأبد فكونه يؤديك إلى فضول النظر، والكلام، والمشي، والجماع وغير ذلك من أنواع الحركات المؤذية، وإذا كان على هذا الحدّ، فواجب على كل عاقل، أن لا يملأ بطنه من طعام ولا شراب أصلاً، فإن كان صاحب شريعة، طالب سبيل النجاة، فيتوجه عليه وجوباً تجنب الحرام، والورع في الشبهات المظنونة، وأما المحققة فواجب عليه تجنّبها كالحرام على كل حال من الأحوال، فإنه ما أتى أحد إلاَّ من بطنه، منه تقع الرغبة، وقلة الورع في المكسب، والتعدّي لحدود اللّه تعالى.

فاللّه اللّه يا بني، التقليل من الغذاء الطيّب في اللباس والطعام، فإن اللباس أيضاً غذاء الجسم كالطعام، به يتنعَّم حيث يحفظه من الهواء الحار والبارد، اللذين هما بمنزلة الجوع والامتلاء، والظمأ والري، فكل واشرب والبس، لبقاء جسمك في عبادتك لا لنفسك، فإن الجسم لا يطلب منك إلاّ سدّ جوعته، بما كان وقاية من الهواء الحار والبارد، بما كان سواء كان خبز سهيد أو لحم، أو قبضة بقل، كلاهما يسدُّ جوعته، سواء كان حلَّة أو عباءة، ليس عليه في ذلك شيء، إنما المراد أن يصان من البرد والحر.

وأما النفس، فلا تطلب منك، إلاّ الطيب من الطعام الحسن الطعم والمنظر، وكذلك المشرب والمركب والمسكن والملبس، إنما تريد من كل شيء أحسنه، وأعلاه منزلة، وأغلاه ثمناً، ولو استطاعت، أن تتفرَّد بالأحسن من هذا كله، دون النفوس كلها لم تقتصر في ذلك، والذي يؤديها إلى ذلك طلب التقدم والترؤس، وأن ينظر إليها ويشار إليها، وأن لا يلتفت إلى غيرها، ولا تبالي حراماً كان ذلك أو حلالاً.

والجسم ليس كذلك إنما مراده الوقاية مما ذكرناه، فصار الجسم في هذه طالباً لما يصونه، خاصةً من أكل، وشرب، وملبس، ومسكن، وأشباه ذلك مما يصلح به، وصارت النفس أو العقل الشريعة الكاسية والمطعمة له، فإن كانت النفس المغذّية له، والناظرة في صونه، خاض في الشبهات، وتورط في المحرمات، لأنها أمارة بالسوء، مطمئنةً بالهوى، فهلكت وأهلكته في الدارين، لأنها ربما لا تبلغ مناها وطلبها، لأن الأمر الإلهي رزق مقسوم معلوم، وأجل مسمًّى ومحدّد. وإن كان العقل الشرعي المغذي له، تقيَّد وأخذ الشيء من حله ووضعه في حقه، وترك الشهوة من الطعام، وإن كان حلالاً كقبضة بقل وكسرة شعير، رغبة فيما هو خير منه، وآثر الجوع على الشبع، والخشن على اللين، ففراشه ثوبه، ووساده ساعده، وغذاؤه ما تيسَّر، وهمّته فيما عند مولاه، من رؤيته إلى ما دون ذلك مما يبقى.

بخلاف النفس، فإن همتها وإن تعلقت بما هو أحسن في الحال، فانظر مآل ذلك، فإنها إن نظرت في المنكح، نظرت إلى ما يكون مآله، إلى جيفة

نتنة قذرة، وإن نظرت في الغالي من الملبس، نظرت إلى خرقة مطروحة في المزبلة إلى هذا مآلها، وإن نظرت إلى مسكن عال مشرف، حسن الصنعة والتنميق، نظرت إلى ما يكون مآله إلى خرابة موحشة، وإن نظرت إلى مطعم لطيف، نظرت إلى ما يصير عذرة نتنة، يسدّ أنفه حين يطرحها من شدة نتنها، وكذلك شربه، وأمثال هذا.

وليته لو وقفة الحال هنا ولا، يبقى عليه تبعات ذلك في الدار الآخرة، حين يسأل ممن كسبت، وفيم أنفقت، يسأل في الفتيل، والقطمير، بل في مثقال ذرة.

فانظر ما أمحن باطن الدنيا؛ مساكنها خراب، وملابسها خرق، ومناكحها ومراكبها جيَف، ومطاعمها ومشاربها عذرتان، نسأل اللّه العافية. والحجة عليها في هذا بيِّنة، لأنه لو كان خيراً كان بعض عذر، وإنما هذا كله معاين منا لتغيّر هذه الأحوال مشاهدة.

فالحجة قائمة للعاقل على نفسه، وإن طلبت منه هذا، وليت مع هذا كله لو تركت معه، وإنما الداء العضال والطامة الكبرى، والداهية العظمى، أنها في أشرّ ما يكون فيه من هذه الأحوال، إن قضى لها به، ويعطيها اللّه مرادها كما شاءت، يسلب عنه وعن هذه الدار بالموت، وينقل إلى منزل لا يجد فيه شيئاً، إلاّ ما قدمته في دنياها بعمل صالح عملته، وإن لم تفعل ذلك، فليس لها مسكن تأوي إليه، إذ لم تشتره في حياتها، ولا سعت في كسبه، فبقيت مسجونة في البرزخ في مشيئة اللّه تعالى.

فإذا تقرر هذا يا بني، فاعلم أن ما يجب عليك في الطعام، من اجتناب المحظور فيه، والمتشابه يتوجه عليك في اللباس، والتقليل من هذا، كالتقليل من هذا، وهاتان المرتبتان يحتاج إليهما كل مريد، وما زاد من مسكن وغير ذلك، فلا يحتاج إليه كل أحد، فإن الغيران والكهوف والمساجد، قد أوجدها اللّه تعالى لهم، وإنما الحاجة التي تعمّ كل الناس، إنما هو اللباس والطعام. ولهذا قال اللّه تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: 118، 119] ولم يزد، لأن الضرورة ما ذكرناه، وما زاد

فليس بضروري إلاَّ في وقت ما، إذا كانت الحاجة إليه بخلاف هذا؛ فسبحان الحكم العدل.

قال إبراهيم بن أدهم رضي اللَّه عنه: اللقمة تتركها من عشائك، مجاهدة لنفسك، خير لك من قيام ليلة. هذا إذا كان حلالاً، وأما الحرام فلا كلام فيه، إذ لا خير فيه البتة، فما ملئ وعاء شر من بطن ملئ بالحلال، وهذا قوله في التقليل، وهو من رؤساء المشايخ في طريق النجاة، وقال أيضاً في طيب المكسب: أطب مطعمك ولا تبالِ، ما فاتك من قيام الليل وصيام النهار وفَّقك اللَّه تعالى، طيب لا ينتج إلاَّ طيباً قال اللَّه تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾ [النور: 26].

ففي هذا من الاعتبار للصوفي، وأهل النظر الإلهي بعض ما نذكره الآن. وذلك أن من كان عند اللَّه خبيثاً، فلا يغذّيه اللَّه إلاَّ بالخبائث من المطاعم، ولا تصدر الأفعال الخبيثة إلاَّ من الخبيثين، وكذلك الطيبات من المطاعم وهي الحلال، لا يغذي بها اللَّه تعالى، إلاَّ من كان عنده من الطيبين، وكذلك الطيِّبون عند اللَّه تعالى، لا يصدر منهم إلاَّ الطيبات من الأفعال، أو تلك المطاعم بأعيانها؛ إنما أهِّلت الخبائث التي هي الحرام، للخبيثين كما أهّلوا لها، وكذلك الطيبات مع الطيبين، فإنه من أُهِّل لشيء، فقد أهِّل له ذلك الشيء.

فإن اغتذى الإنسان من الحلال، وقلَّل منه كما قال ﷺ: لحسب بن آدم: لقيمات يقيم بهن صلبه. تنشط الجوارح إلى الطاعات، وتفرغ القلب إلى المناجاة، وتفرغ اللسان للتلاوة والذكر، والعين للسهر، فذهب النوم لقلة الأبخرة المرطبة الجالبة للنوم، فيؤديه أكل الحلال إلى الطاعة، والتقليل منه إلى النشاط في الطاعة لا يذهب عنه الكسل، وأية فائدة أكبر

الفوائد، وكل عمل لا يصحبه ورع فصاحبه مخدوع، فاسعَ جهدك، في أن تأكل من عمل يدك إن كنت صانعاً، وإلاَّ فاحفظ البساتين والفدادين، والزم الاستقامة فيما تحاوله على الطريقة المشروعة، والورع التام الشافي، الذي لا يبقى في القلب أثر تهمة، إن أردت أن تكون من المفلحين.

وهذا لا يصح لك إلاَّ بعد تحصيل العلم المشروع بالمكاسب، والحلال والحرام لا بدَّ لك منه، هذا إذا كنت موكلاً بنفسك. فإذا كنت بين يديَّ شيخ محفوظ، في عموم أحواله ورع قد شهد بفضله، وقيل به، وحاله مطابق ما يشهد فيه، وتجد في نفسك الاحترام له والتعظيم، لحقه الذي هو أصل منفعتك ونجاتك على يديه، فإن حرمت احترامه، فاطلب غيره، فإنك لا تنتفع به أصلاً، ما لم تصحبه بالحرمة، كان أفضل الناس وأعلم الناس وتسيء به الظن، فإنك لا تنتفع به أبداً.

فإذا وجدت من تحصل في نفسك حرمته فاخدمه، وكن ميتاً بين يديه، يصرفك كيف يشاء، لا تدبير لك في نفسك معه تعيش سعيداً مبادراً لامتثال ما يأمرك به وينهاك عنه، فإن أمرك بالحرفة فاحترف، فهو أعرف بمصالحك منك، عن أمره لا عن هواك، وإن أمرك بالقعود فاقعد، عن أمره لا عن هواك، أعرف بمصالحك منك، وأرغب الناس إلى اللّه في مصالحك على يديه منك، فإنك تكون من أنواره، التي تسعى بين يديه، ومن حيث الآخرة الإيمانية، بالنصح المندوب إليه شرعاً الذي هو الدين، وكذلك أيضاً من حيث أنه يجدك في ميزانه ترجح ما خف منه، ومن حيث أنه يكاثر بك تلامذة الشيوخ، ويكثر بك اتباعه فإن العلماء ورثة الأنبياء وقد قال النبي ﷺ: «إني مكاثر بكم الأمم».

فإذا رغب هذا الشيخ في إصلاحك وإصلاح غيرك، حتى يودُّ أن الناس كلهم صلحوا على يديه، فإنما يرغب في ذلك لتكثير أتباع محمد ﷺ، لما سمعه يقول: إني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة، وهذا مقام رفيع لغنائه عن حظه في إرشاده، وإنما غرضه إقامة جاه محمد ﷺ وتعظيمه، وإذا تعلقَت نية الشيخ بهذا، يجازيه اللّه تعالى على ذلك من حيث المقام.

فكيف يتهم شيخ في قلة نصح لطالب، مع هذه الوجوه التي ذكرناها، وما ذكر من المنافع له على حسب قصده ونيته، والسبب الذي يتَّهم من أجله الشيخ إما في قلة نصحه، وإما في تقصير مقامه، أن يشاهد الفتح لتلميذه قد تباعد، وقد خدمك سنين.

وإنما ذلك لعلل يعرفها الشيخ من جانب الطالب، أو من جهة جانب المقام، الذي يريد الشيخ أن يرقيه إليه وخُلقَ الإنسان عجولاً، والطالب يبطئ، ويحب الإسراع إليه، هيهات وأين هو من قول الجنيد رضيَ اللَّه عنه حين قيل له: بمَ نلتَ ما نلت؟ فقال: بجلوسي تحت تلك الدرجة ثلاثين سنة، وأشار إلى درجة في داره.

وكذلك أبو يزيد البسطامي رضيَ اللَّه عنه كان حداد نفسه اثنتي عشرة سنة، ثم كان قصارها خمسين سنة، ثم عمل في قطع زناره الظاهر ثماني سنين، ثم عمل في قطع زناره الباطن كذا سنة، ثم بعد هذا كله بقيت له عقبات جازها.

فما لك أيها الطالب، لا تنظر أين حالك من أحوال السادات، فأين اجتهادك من اجتهادهم، فتنظر نفسك بالتقصير، وأنك لست أهلاً للفتح، وترجع على نفسك بالمذمة، وتقول لها لو أردتِ مقاماتهم، لنهجت مناهجهم، وتنظري شيخك بعين التعظيم، وغاية الحمد والنصح، وتقول لها: لو علم فيك خيراً لأسمعك، ولو أسمعك وأنت على هذه الحالة السيئة، لتوليت وأنت معرضة، ولكن ينبغي لك أن تفرحي بإقباله عليك، وجريه معك وهذه بشرى من اللَّه إليك.

فإن الشيخ لو تخيَّلَ فيك أنك عمل غير صالح ما قربك ولا أدناك، ولكنه قد رجا فيك وتوهم فيك المصلحة، فجدّي واجتهدي، وأعينيه عليك، عسى اللَّه أن يأتي بالفتح، فتكوني من المفلحين، وأزجرها مثل هذا الزجر ولا تقطع إياساً، فإنه لا ييأس من روح اللَّه إلاَّ القوم الكافرون.

فإذا رأيت أن اللَّه تعالى، قد ألهمك لهذا الزجر والتعيّف لنفسك، فاعلم أنك مراد، وأن اللَّه تعالى قد ألهمك لهذا، إلاَّ وقد قدَّر اللَّه تعالى أن

يأخذ بيدك، فإذا رأيت أن اللَّه تعالى لم يوفقك لهذا، ولا جرت أفعالك عليه فلا تلومنَّ إلاَّ نفسك، ولا تقع في شيخك، فيجتمع عليك خزي الدنيا والآخرة. فتحفظ يا بني مما نهيتك عليه، واشتغل بما حرضتك عليه، وما أبقيت لك من النصيحة فانتظر أيها الطالب فتح اللَّه ولو عمرك كله، ولا تيأس من روح اللَّه.

واعلم يا بني أسعدك اللَّه؛ أن الحلال عزيز المنال، على جهد الورع قليل جداً، ولا يحتمل الإسراف والتبذير، بل إذا تورَّعت عما لزمه أهل الورع في الورع، فبالحريّ أن يسلِّم لك قوتك على التقصر، كيف أن تصل به إلى نيل شهوة من شهوات النفس، كالمحاسبي الحرث بن أسد من أئمة القوم، الذي مات أبوه، وترك كذا كذا ألف درهم، فما أخذ منها شيئاً، وقال إن أبي كان يقول بالقدر وقال رسول اللَّه ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين».

وكبعضهم الذي ترك له أبوه مالاً كذا كذا ألف دينار، فأبى أن يأخذها، وقال إن أبي كان تاجراً، وكان لا يحسن العلم، فربما دخل عليه رِباً وهو لا يشعر.

وكان هذا المذكور ابن القاسم تلميذ مالك بن أنس رضي اللَّه عنهما، وهو الذي اكترى دابةً يسافر عليها، فجاءه إنسان برسالة وقال: تحمل هذا معك لفلان، فقال رضيَ اللَّه عنه: ما اشترطت على صاحب الدابة حمل هذا. وكأبي يزيد رحمه اللَّه حين ردّ الثمرة، وهو على كذا وكذا فرسخاً، التي كانت وقعت من ثمر البقَّال على ثمره. وكأبي مديَن رضيَ اللَّه عنه في زماننا هذا، الذي ما أكل هذه البقلة التي يقال لها القطف ورعاً، لأنها تسمى بقلة الروم، وهذا من أكمل ما سمعته في الورع إلى أمثال هذا مما سلك عليه القوم رضي اللَّه عنهم.

فاللَّه اللَّه يا بني، حافظ على نفسك، أن لا تصاحبها في شهواتها لهذه المطاعم العالية الأثمان، فإنك إن صحبتها عليها، وتقوى في خاطرك أنك لو نلتها لعدوتها، وأن تأخذها على وجه الاعتبار، أعمت بصيرتك ودلَّتك بغرور، وأدخلت عليك ضرباً من التأويلات في مكسبك، لتكثر دراهمك بما

تلحق به تلك الشهوات، يعني تؤديك إلى التورط في الشبهات وهي تريد الحرام، فإن الراتع حول الحمَى يوشك أن يقع فيه، فسدَّ عليها هذا الباب، ولا تطعمها إلاَّ ما تقوى به على أداء ما كلفته وتكليفه، على الشرط الذي ذكرت لك من التقليل.

وهكذا في اللباس، وإياك والإسراف في النفقة، وإن كانت حلالاً صافياً، فإنه مذموم وصاحبه مبذر ملوم، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: 27] وقال تعالى: ﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31] فهذا قد عمَّ اللباس والطعام والشراب، فالبطن يا بني؛ أكبر الأعداء بعد الهوى والفرج بعدَهما. عصمنا اللَّه من الشهوات وحال بيننا وبين الآفات.

واعلم أن لهذه الأعمال المتعلقة بهذا العضو، كما كان لإخوانه من الأعضاء كرامات ومنازل، فمن كراماته التي لا يدخلها مكر ولا استدراج، أن يحفظ عليه طعامه، ولباسه، وشرابه، بعلامات يلقيها اللَّه تعالى له، إمَّا في نفسه، أو في الشيء الذي قامت به صفة الحرام والشبهة، حتى لا يتناول إلاَّ طيباً، وعلاماتهم مبدَّدة تكاد جزئياتها لا تنضبط، وأصولها ترجع لما ذكرنا.

وكان الحارث بن أسد المحاسبي رضيَ اللَّه عنه، إذا قدمَ له طعام فيه شبهة، ضرب عرق على أصبعه، وكأبي يزيد البسطامي رضيَ اللَّه عنه ما دامت أمه حاملة به، لا تمتدُّ يدها إلى طعام حرام، وآخر ينادي يقال له تورع، وآخر يأخذه الغثيان، وآخر يصير الطعام أمامه رصاصاً، وآخر يرى عليه سواداً، وآخر يراه خنزيراً، إلى أمثال هذه العلامات، التي خصَّ اللَّه بها أولياءه وأصفياءه. وهي راجعة إلى ثلاثة أصول: أصل واحد أن تكون العلامة في نفسك، وأن تكون في المتورع منه، والثالث أن تكون داعياً من خارج أو داخل، منبهاً على تلك الشبهة.

وهذه الأصول على أنواع في كيفياته، ذكرناها في شرح أحوال أبي يزيد البسطامي، في الكتاب الذي سميناه مفتاح أقفال التوحيد.

ومن كراماته، أن يشبع القليل من الطعام الرهط الكثير، كما حُكي عن

بعضهم، أنه جاءه إخوان وكان عنده ما يقوم برجل واحد خاصة، فكسر الخبز وغطاه بالمنديل، وجعل الإخوان يأكلون من تحت المنديل، حتى أكلوا عن آخرهم، وبقيَ الخبز كما كان ما انتقص منه.

وهذا ميراث نبوي من فعل رسول اللّه ﷺ حين بسط النطع، وجاءه ذو البُر ببُره، وذو النواة بنواته، حتى اجتمع ذلك شيء يسير، فدعا فيها بالبركة، ثم أخذ الناس في أوعيتهم، حتى مَلَؤها كما جاء في الحديث الصحيح في مسلم.

وفي مثل هذا، ما حُكي في اللباس، وهو من هذا الباب كما قدَّمنا، عن أبي عبد اللّه التاوري رحمه اللّه، أنه أخذ الشقَّة، وسلّها تحت غفارته، وأخرج طرفها للخيَّاط وقال: خذ حاجتك؛ فما زال الخيَّاط يفصِّل ما شاء اللّه ما هو خارق للعادة، حتى قال له الخيَّاط: ما تمت هذه الشقة؟ فرماها من تحت غفارته، وقال: قد تمَّت فياليته سكت. وقيل أنه كان الخيّاط بنفسه، وكان المتعجب من ذلك صاحب الشقّة فرماها له وقال قد تمت.

ومن كرامات هذا المقام أيضاً، أن ينقلب اللون الواحد، الذي في الصحن ألواناً من الطعام في حاسة الآكل، إن اشتهاه بعض الحاضرين.

أخبرني من أثق به، عن سيِّدنا شيخ الشيوخ أبي مدّين رضيَ اللّه عنه، أنه شاهد هذا من بعض الرجال في سياحته، وذلك أنه خرج في بعض الأوقات على وجه السياحة، فلقي رجلاً من أولياء اللّه تعالى، فمشى غير بعيد، فدخل عند عجوز في مغارة في حكاية طويلة، ثم عاد الشيخ إلى العجوز آخر النهار فَقَعَدَ عندها، حتى وصل ابن لها، كان يعبد اللّه في تلك الجبال، فدخل وسلَّم على الشيخ أبي مدّين رضوان اللّه عليه فقدمت العجوز صفرةً، فيها صحن وخبز، فقعد الشيخ والفتى يأكلان، فقال الشيخ: تمنيت لو كان كذا، وكان خاطر ذلك في نفسه، فقال له الفتى: قلْ باسم اللّه يا سيِّدنا وكلْ ما شئت، فسمّيت اللّه وأكلت، فإذا به طعم ما تمنيت، فلم أزل أقصد التمنيَّ، وهو يقول مثل مقالته الأولى، وأنا أجد الطعام ما تمنيت، وكان الشاب صغيراً كما عذر. ألحقنا اللّه بأوليائه.

ومن كراماته أيضاً أن يأتي لصاحب المقام الجن أو الملك، بغذائه من طعامه وشرابه ولباسه، أو يعلّق له في الهواء، كما اتفق لبعضهم لما احتاج إلى الماء في الصحراء، فسمع على رأسه صلصلة، فرفع رأسه فإذا هو بكأس معلّق بسلسلة ذهب، فشرب منه وتركه.

ورأى بعضهم شخصاً في الهواء يناوله رغيفاً، فسأله فقال: هو ملك الأرزاق. ورؤى بعضهم، قد ساقت له امرأة طعاماً لم تعرف، فسئل عنها، فقال: هي الدنيا تخدمني، ومن كرامات هذا المقام أيضاً، شرب الماء الزعاف والأجاج عذباً فراتاً، شربته من يديّ أبي عبد اللّه بن الأستاذ الموروزي الحاج، من خواص طلبه الشيخ أبي مدين رضيَ اللّه عنهما، وكان ما يسمّيه الحاج المبرور.

ومنها أن يأكل زيد عن عمرو طعاماً، وعمرو غائب فيشبع عمرو، الذي أكل عنه زيد في موضعه، ويجد ذلك الطعام بعينه وكأنه أكله، ولا يدري الذي أكل عنه ما جرى. وقد اتفق هذا أيضاً، للحاج المذكور أبي محمد الموروزي رضي اللّه عنه، مع أبي العباس بن الحاج أبي مروان بغرناطة، وحدَّثني بها أبو العباس المذكور، الذي أكل عنه بدار الشيخ الزاهد المجتهد العابد أبي محمد الباغي، المعروف بالشكاز على الوجه الذي أخبرني به، أبو محمد المذكور صاحب الكرامة.

ومن هذا ما لا يُحصى كثرة. وتحقيق هذا، أن من تحقَّق في هذا المقام من الغذاء الحلال، إما بالكسب، أو بورع التوحيد، والذي قال فيه العارف: من لا يطفىء نور معرفته نوَّر ورعه، فإذا حصل الحلال فالقليل منه كما ذكرنا.

فإذا تحقق بهما هذا، نشأت في باطنه همَّة فعالة قاضية، يوجدها اللّه تعالى في نفس هذا العبد، كرامة به وتخصيصاً لمقامه، وصدقة. وتلك الهمَّة تصدّق جميع ما ذكرناه آنفاً وأمثاله، وكرامات أيضاً أخر من هذه الكرامات التي ذكرناها، مما لم يخطر للعبد فيها خاطر، لا تحفه بديهية من اللّه تعالى، والحمد للّه وحده.

منازل هذا المقام

المنزل الأول الإبراهيمي: ولا يزال العبد يتحقق في ترتيب هذا الغذاء الجسماني، حالاً بعد حال، ومقاماً بعد مقام، إلى أن يرتقي إلى الغذاء الروحاني، الذي به بقاء النفس، ويغني عن هذا الغذاء الجسماني، ومن ملاحظته الذي هو الحس والمحسوس، إلاَّ قدر ما يبقى منه ذاته خاصة، إذ ببقائها يتمكن له تحصيل الغذاء الروحاني.

فأول مقام يطرأ عليه من هذه المنازل، أن يقف على سرِّ الحبة وإلقائها في الأرض، ثم المطر في سحابه، الذي هو عبارة عن تحليلها، ثم الريح السائق للمعصرات، فتؤدى ما عندها، وما أمنت عليه لتلك الأرض، ثم تنبسط الشمس فتغذيها غذاء آخر، بما فيها من الغزارة المنمّية، وفي ذلك الغذاء، كمال لوجودها لما تراد إليه.

وهذه كلها، وما تركناه من المتصرفين في خدمة هذه الحبة، وإخراجها إلى الوجود، وتقلُّبها من حالة إلى حالة، وفي الأدوار والأطوار وأملاك متصرفون تحت قدرة الموجد المطلق تعالى، ومبعث هذه الموجودات من خزانة الوجود، ولولاها ما ظهر شيء أصلاً.

فالصوفي إن وقف هنا فبها ونَعِمَت، فإن معرفة هذا علم كبير، وثمرة عظيمة، وللنفس فيها غذاء شاف، وإن أراد أن يرتقي بملاحظة الأشياء المذكورة لأنفسها، ويجعلها دلائل لما هو في نفسه وعالمه، فيرتقي إلى منزل آخر في نفسه، فيشاهد فيه نفسه أيضاً، قد طيَّبتها العقائد الصحيحة والتوفيق، وحرثها الخلق والتخلّق.

هذا على حسب ما جعلت عليه فروع الحكيم، إذ فيها حبة الحكمة الخاصة، المحركة لطلب الحكمة الإلهية الوجودية المطلوبة الغائبة، التي يقع الثواب بين الأنبياء والعلماء.

فإذا زرعها الحكيم كما ذكرنا، أمطرها بالعمل في سحائب الورع، تسوقها أرياح العناية، فتثمر إذ ذاك سنبلة إخلاص التوحيد، فيتغذى بها جميع أعمال الجوارح الزكية، فتتقوّى على إنتاج الأسرار الإلهية، والحكمة الربانية

الفرقانية، والأنوار الفواتية، وفي هذا المنزل تصلح الخلَّة لمن صحت، والحمد للَّه.

المنزل الميكائيلي: هو منزل العدل، وهو عبارة عن مشاهدته للملك، الموكل بأرزاق العباد بالوسائط، كل على مرتبته وما قدر له، فيحصل له من مشاهدته هذا المنزل، وضع الحِكَم في مواضعها، وإعطاء كل ذي حق حقه على الوزن العقلي والشرعي، وفي هذا المقام فائدة عظيمة وهي التي ندبنا اللَّه تعالى إليها بقوله: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: 2].

وفي هذا المنزل بكى رسول اللَّه ﷺ على إبنه إبراهيم وقال: تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلاً ما يرضي ربنا، وأنَّا بك يا إبراهيم لمحزونون.

ونهاية هذا المنزل المبارك، مشاهدة العبد الخصوصي للحق سبحانه وتعالى، في حضرة إسمه الرزَّاق، العدل، الحكيم، المقسّط، الجامع، وتوليّه باليدين المبسوطتين، من غير تكييف ولا تشبيه، وقسمته الأشياء والمراتب على أصحابها، فيأخذ الولي ولايته على مراتبها ومراتبهم، والعدو عداوته على قسط معلوم وحد مرسوم.

ويأخذ العالم علمه، والجاهل جهله، والظَّان ظنَّه، والشَّاك شكَّه، والغافل غفلته، والمؤمن إيمانه، والمنافق نفاقه، والعين نظرها، واللسان نطقه، واليد بطشها، وكل موجود فاغر فاه، متهيئ لقبول ما به بقاؤه وحياته، حتى الجسم تأليفه، والجوهر عرضه، والموصوف صفته، والنبي نبوته، والرسول رسالته.

فمنها ما يكون فيه إفتقاره طبيعي، ومنها ما تعطيه حكمة الوجود، وكل جنس يتفاضل في مقامه، وعلى حسب ما تعطيه حقيقته، وإن كان لكل جنس أنواع حقيقية تخصّه، وأن لكل شخص تحتها حقيقة، إلى ما يقتضي مرتبة ما عرضية لا ذاتية، فالنوع الأخير مع الشخص، كالجنس مع النوع، فافهم وتحقق واللَّه المرشد المؤيّد.

منزل: ثم قد ينفعل العبد، إلى أن يجذبه الحق من هذه المنازل، فإن

فيها ملاحظة الأغيار، ومباشرة الأكوان، وينقله إلى ألطف من هذه الأغذية وهو غذاء الأغذية، ومعنى هذا أن الغذاء سبب إبقاء كل متغذٍ عقلاً وشرعاً وعادة، فعقلاً كالعلة والمعلول، وشرعاً كالثواب للمطيع، والعقوبة للعاصي، وعادة كالشرب مع الريّ، والأكل مع الشبع، كما دلَّت عليه الأشعرية رضيَ اللّه عنهم ونور بصائرهم، فإذا فقد المتغذّي غذاءً، فهو عبارة عن عدمه، وسرُّ غذاية الأغذية لطيف، ومعناه دقيق، وهي النسبة التي علقت اللطيفة التي يكون منها الغذاء للمتغذي، والمناسبة التي بين الغذاء المخصوص، بالمتغذي المخصوص، إذ الأغذية متشعبة كثيرة ومختلفة، والسر الذي يمسك المتغذي بالغذاء واحد، كما أن السبب الذي به يضطر المتغذي إلى الغذا واحد، فالعارف العالم نظره في هذا، وهو مقام شريف، فاعلم.

تنبيه

اعلم أن سرَّ كل شيء، عبارة عن حقيقته أو عن ثمرته، فإن كان عن حقيقته فلم يفدنا أمراً زائداً على الشيء، وإذا كان عبارة عن ثمرة الشيء، أعطانا فائدة لم تكن عندنا فنقول على هذا، إن سرَّ الغذاء ابتداءً إنما هو الحياة، وسرّه بعد وجود الحياة بقاء الحياة، فالبقاء والحياة أمران متولّدان عن الغذاء، فالغذاء أجلُّ في مرتبة الوجود من الحياة، وفلكه أعظم إحاطة من فلك الحياة، وهو الساري في جميع الموجودات جماد وغيره.

لكن يظهر في أشياء عيناً ويظهر في أشياء معنى، وأكثر ما يظهر في الجسم الإنساني البهيمي، وأخفى من ذلك في النبات، وأخفى من ذلك في الجماد، وأخفى من ذلك في العقول، وإن كانت حيَّة، ولكن الوقوف على غذائها صعب من طريق العلم، سهل من طريق العين، وكل غذاء أعلى من حياته المتولّدة عنه، فلا يزال من العالم الأدنى، يرتقي في أطوار العالم أغذية وحياة، حتى ينتهي إلى الغذاء الأول، الذي هو غذاء الأغذية وهي الذات المطلقة، وإذا علمنا قطعاً، أن الغذاء سبب لوجود الشيء في موجوده عقلاً أو عيناً، فكنّ غذاء الكائنات، إذ كنّ لإيجاد التشكل والتصوير لا إلى الأمهات فكنّ والأمهات، متساوياً معنى لا عيناً، ويجمع الأمهات أم واحدة،

وهي المقارنة للأزل لا يتصور ارتفاعها، وهي لا موجودة ولا معدومة ولا غذاء لشيء.

فوجودها عيناً وَقْفٌ على وجود التصوير، والعلم بحقائق التصوير وَقْفٌ على معرفتها، فقد صحَّ في حقها افتقارها بنسبة ما، لما في حقه افتقارها نسبة ما، حتى لا يصحَّ الغني مطلقاً إلاَّ اللَّه تعالى، فإن جعلتها من هذا غذاء أو متغذية، كان كل ما دون الحق متغذٍ، وغذاء أمر ينافي وجوده حكمي عقلي قدسي، فتحقّق هذا السرّ، فإن فيه نفس العالم وسرّ مبتدئه.

واعلم؛ أن بعض الأغذية شروطه حياتها السعادية، التي هي نتيجتها بشرط كغذاء الجوارح بالمعاملات الظاهرة، فليس للمتغذّي بها بقاء في الحياة السعادية، ما لم يصحّ لها الإيمان، لكن لها البقاء الدنياوي، بالعصمة في الأموال والدماء، فإذا مات هلك.

ثم غذاء النفوس بالخلقيات فلا يصحُّ بقاؤها منعَّمة في الحياة المطلوبة إلاَّ بها، ولكن لا يصحّ لها على الكمال، ما لم يتغذَّ القلب بالإخلاص والفكر، ولا يصحُ أصلاً بقاؤه على الكمال، بل لا يصحّ له هذا الغذاء ولا يتصف به، ما لم يتغذَّ الروح بالتوحيد، وهو ناقص ما لم يتغذَّ السرّ بالتعلّق في التوحيد، وهو ناقص ما لم يتغذَّ سرّ السِّر بالأدب.

وجميع ما ذكرناه الإنسان، المعبَر عنه بالحيوان الناطق، المشارك للملك في هذه الحقيقة، المفارق له بهذا الهيكل الترابي، ولهذا معلوماته أكثر، فإنَّ له الحس والمحسوس، فإذا تغذّى بهذه الأغذية على الكمال، صحَّت له السعادة الأبدية. وهو ناقص ما لم يتغذَّ على الجملة بالإرشاد، والهداية والنصح للأغيار، وهذا مقام الرسول ﷺ والوارث، فإذا صحَّ له هذا الغذاء بكمال تلك الأغذية، فذلك المذكور المشار إليه بالهمم صاحب الوقت والزمان، مصرِّف الأكوان، وموضع النظر، ومحل برج الأسرار، وسرّ الأوامر، وسر القدر، فتمت له السعادة في الدارين والتدبير في العالمين.

الفلك السادس وهو فلك البروج

الفرج يحمل في الأنثى وفي الذكر   على حقيقة لوح العلم والقلمِ
فذا يخط حروف الجسم في ظلم   وذا يخط حروف الجسم في همَمِ
كلاهما يدُّل من ذات صاحبه   عند الوجود فلا تنظر إلى العدمِ

اعلم يا بني، أن شهوة الفرج ضعيفة جداً في ذاتها، إذ ليس لها حركة من نفسها، وإنما هي من خاطر يقوم بالقلب للنكاح، ينتج ذلك الخاطر ويولّده نظرة بالعين، أو لمس بيد، أو سماع بأذن، من منازعة حديث. وهذا كله مولَّد من الامتلاء والشبع، وهو أصل الأشياء المحركة لهذه الشهوة، فمتى ما وقع شيء من هذه، حينئذٍ فارت الشهوة وتقوى سلطانها، فحرَّكت العضو ذكراً كان أو أنثى، فطلب وقوع ما تحرك إليه، فإن عُصمَ واقدر عليه واقع حلالاً، وإن خذلَ واقع حراماً، فإذا سدَّت له المسالك لم تتحرك هذه الشهوة.

وأصل هذا كله كما ذكرناه الإمتلاء من الطعام، فإنه إذا امتلأ البطن، قامت خواطر الفضول في النفس، فتحركت الجوارح بحسب حقائقها بأنواع فضول، وإذا جاع البطن، غشيت العين، وخرس اللسان، وصمَّت الأذن، وانقبضت اليد والرجل، وانعدمت شهوة الفرج وفنيت خواطر الفضول، ولهذا قال السيد الصادق ﷺ: الشيطان يجري من ابن آدم، مجرى الدم فسدُّوا مجاريه بالجوع والعطش. أي هذه الأشياء معينة له، على ما يأمر به من السوء والفحشاء وقال ﷺ: «عليكم بالباءة فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» وقال ﷺ: «الصوم جنة». فنبه ﷺ في هذه الأخبار كلها، أن السبب المولّد لفوران هذه الشهوة الخسيسة، إنما هو الطعام والشراب.

فإن كان جوع مجاهدة استنار القلب، وكشف له عن عالم الغيب، لأنه جوع عن همّة طالبةً غايةً ما، فيشاهد من أسرار اللّه، ما شاء اللّه سبحانه وتعالى أن يشهده منها ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: 255] اللّه سبحانه، وإن كان الجوع اضطراراً فليس هو مقصودنا في هذا الكتاب،

إلاَّ أن يكون المضطر من أهل طريق اللَّه تعالى، فجوعه عناية من اللَّه تعالى به وهدية منه إليه. قال بعض الشيوخ رضيَ اللَّه عنه: لو بيع الجوع في السوق، للزم المريدين أن لا يشتروا شيئاً سواه.

فائدة: الجوع والفقر لا تُدرك لهما غاية ولا تحدّ، ولا يعرفها إلاَّ من ذاقها، فإن كانت يا بني شهوة الفرج بهذا الضعف، فلا يُلتفت إليها، وليشغل نفسه بسدّ مسالكها التي ذكرناها آنفاً.

تنبيه وتحقيق: واعلم وفقنا اللَّه وإياك لطاعته، إنك إذا نظرت عالم الكون والفساد حيوانية كله إنسيّه وبهيمه، حروف مخطوطة، قد خطها اللَّه تعالى في لوح الوجود، والقلم المخطط لهذا الشخص الإنساني، والجسم المتغذّى الحساس قلمان، قلم يسمى النفخ، والقلم الذي هو الذَّكَر.

وأول من كتب به أبو البشر في لوح أم البشر، ولكن خط هذا القلم المحسوس هيولي من غير تشكيل ولا تصوير، بل هو كما قال اللَّه تعالى: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ [الإنفطار: 7] وهذا هو حدّه و﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الإنفطار: 8] نسخة بأثر القلم الإلهي الذي هو المتوسط، وهو يُعبر عنه بالطبيعي، الذي هو لتشكيل ما ألقاه المحسوس هيولانياً، وتفصيل ما ألقاه مجملاً قلم النفخ، فامتدَّ كالفتيلة، فخطَّ فيه القلم الإلهي الروحي المعبر عنه بالنفخ، وهذا هو الروح الحيواني ومنها: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: 5] لتصح المشيئة للَّه تعالى في إيجاد العالم.

وهذه كلها أسباب وأغطية على عين بصيرة العمي الذين ﴿يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: 7] والعلم هو الذي يوصلك، إلى رفع هذه الأغطية عن عين بصيرتك، وتولى الحق تعالى لتلك الأشياء عند الأسباب لا بالأسباب ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: 8] والقلم الرّجُل، واللوح المرأة، وقد يكون الرَّجُل لوحاً للقلم، المُعبَر عنه بالنفخ كمريم وعيسى ﷺ أجمعين. فما سلَّم من خط هذا القلم المحسوس، في اللوح المحسوس خاصة إلاَّ ثلاثة:

وهو آدم عليه السلام، خلقه اللَّه تعالى بيده، كما قال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ

أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت ﴾ [ص: 75] وحواء وعيسى عليهما السلام من نصف هذا الخط، إلاّ أن عيسى عليه السلام حصل له درجة النفخ الاختصاصي، حين أحصن الفرج كما قال تعالى: ﴿ ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾ [التحريم: 12] وهذا هو الروح الاختصاصي ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ [الأنبياء: 91]. وفي هذا ردٌّ على من يقول، لا يوجد مولود إلاّ من أبوين.

فلو قال إلاّ عن أمرين لصدق كما سنذكره، فإنه عن مريم ونفخ الملك، فهذا فصل ينبغي أن يتحقق، وممن حصل له درجة نفخ الطير، فإنما هو روحية تنبعث، يكون عنها عصفوراً وزرزوراً، فمنزل الصوفي من تحقُّق علم هذا المقام، إنه إذا حصّن فرجه، أعني أنه من طهَّر لوحه ومحاه، حتى يتركه مهيئاً لقبول ما يخط فيه من الخط الاختصاصي، فإن اللَّه سبحانه وتعالى ينفخ له روحاً من أمره، وكلمة من كلمه يهبه في ذلك النفخ، سرُّ إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وترك كل ما يشغل عن اللَّه تعالى، وهذه كرامات هذا المقام.

وعلامات مدّعيه رفض الدنيا وأهلها، وتأثير كلامه وموعظته في نفس أكثر المستمعين له لا في كلهم، والطلبة والتلامذة للشيخ المتحقق في هذا المقام، ألواح منحوتة منصوبة لرقمه وكتابته، وقبائل مستعدة لنفخه، فلا يزال ينفخ فيهم أرواح الأسرار، ويخط فيهم حروف المعاني القدسية، فيكون إذ ذاك متَّصفاً باسمه الخلاق الحكيم، وهذا الإسم لهذا العضو، وحضرته من الأسماء وما في معناه. فتحقق ترشد.

تتميم: إني أقول؛ أن الحيوان المذكور أجمعه ومحاله، موجودان بين النفخ، وهو القلم الإلهي وبين الفرج والقلم الطبيعي، فالقلم الطبيعي لتخطيط حروف أجسام الأرواح، والنفخ وهو القلم الإلهي لتخطيط أرواح الأجسام قال اللَّه تعالى: ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ﴾ [الحجر: 29] على الإطلاق وهذا منزل لا يعرفه أحد أبداً، إلاّ من وقف مشاهدة من نفسه، على الحقيقة الآدمية والأسرار فيه، فمن شاهد هاتين الحقيقتين، عرف هذين

القسمين القلميين، وكيفية صدور الأشياء عنه. ثم إن النفخ على قسمين: نفخ إحصان، وغير إحصان.

فالنفخ الذي على غير إحصان، يكون عند النفخ الحيواني، والذي على الإحصان الروح القدسي، يكون عنه مع حصول النفخ المطلق الحيواني، فنفخ الإحسان ينتج المنازل العليَّة، والاستشراف على الكائنات الانفعالية والمقامات الروحانية القدسية، والنفخ على غير الإحصان ينتج وجود الأرواح الجسمانية خاصة إلاَّ أن هناك نفخاً آخر بين النفختين، وهي صورة شعيرة نفخ الإحصان، ملحق بالملأ الأعلى، والبقاء السرمدي في النعيم الأبدي، ونفخ غير الإحصان ملحق بعالم الكون والفساد مطلقاً، ثم النفخ الإحصاني الاختصاصي على ثلاث مقامات: نفخ ولاية وهو على ثلاث شعب شعبة منبئة، وشعبة مرسلة، وشعبة معلقة بالمرسلة لا غير، ولها شعب كثيرة لا تُحصى، وأعلاها التي هي منوطة بالمرسلة من جميع الوجوه، ونائبة منابها إذا فقدت فتيانها. وهم الصوفية أهل الورث النبوي، والتخلق الرباني، والتحقق الإلهي، فتحقَّق ما مهدناه.

فلقد كشفنا كنوزاً في هذا الكتاب، ما كشفها أحد من أهل طريقتنا، إلاَّ صانوها وغاروا عليها، ولكنني لما علمت، أن الطفيلي ليس له منها إلاَّ الذكر ومعرفة الإسم، لم أبالِ بذكرها، إذ نيلها حرام على من ليس له قلب سليم. وكنا نظهر هنا أمراً، ولكن في هذا تنبيه وغنية، عن إفشاء ما ستر، وفكُّ معماً ما غبر عليه فحجبه.

اعلم وفَّقك اللَّه يا بني، أنك إذا حصنت فرجك وتعفَّفت، نقلك من افتضاض أبكار الحواس، إلى افتضاض أبكار المعاني على سرير المعاملات، في جنة التخلق بالأسماء، ثم ترتقي من هذه المنزلة إلى نكاح الحقيقة الكلية، على سرير التوحيد في جنة التنزيه، فينتج لك أيضاً هذا المنزل منزلاً آخر، تشاهد فيه هذه الحقيقة المجردة، عن الوجود المطلق المختار، ينكحها من شاء اللَّه على سرِّ الفناء في جنة الأرب.

وهذه الحقيقة المعبَر عنها بالحرفين، التي هي سبب في الموجودات،

وعلة للكائنات، إذا قضى اللّه سبحانه وتعالى أمراً سلّطها عليه، وأوجد الشيء عند تسلّطها عليه وتعلقها به، فكان إذا حصل العالم في هذه المنزلة واستوى على عرش الكائنات، لم يشاهد شيئاً في الوجود موصوفاً كان أو صفة، حساساً أو غير حساس، نتيجة لا عن مقدمتين تنكح أحدهما الأخرى، وهو عبارة عن الرابط الذي بينهما، فيتولّد بينهما أمر زائد عليهما، فالمولدات تنبعث بينهما علواً وسفلاً، فإن ذكرا عليا، وإن أنثى انسفلا، غير أن العبارات اختلفت بحسب أصناف المولدات، فقيل هذا طفل بين رجل وامرأة، وهذه نتيجة عن مقدمتين وفرع عن أصلين، ورسالة عن مرسل ورسول، وسنبلة عن زرع، وأرض وإحراق عن نار وخشب، وبيت عن آلات وصانع وهذا موجود عن قادر وقدرة.

وهكذا جميع العالم بأسره نتيجة ازدواج، ليصحَّ على كل جزء من العالم، الفاقة والاضطرار في وجوده إلى من يوجده، حتى يقف له الأمر للناظر المشاهد في العالم، أو الموجودات المقيّدة، ويحصل له في الطريق من الفوائد، بحسب ما مشى عليه من المقامات.

فإذا وقف عند هذا الموجود الأول المقيد، عرفه بذاته أن وجوده نتيجة عن قدرة وقادر، واختصاصه عن إرادة ومريد، وإتقانه عن علم وعالم، فيصحّ اضطراره وفاقته إلى الحق سبحانه وتعالى، وهو الغني الحميد، الموجود المطلق، لا عن أصلين، ولا عن مقدمتين، ولا عن أبوين، بل هو خالق الأصول والمقدمات والآباء والأمهات، المقدّس المنزّه عن غير جواز ما تنزه عنه عليه، بل هو منزَّه عن التنزيه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]:

الروح أصل لكل خلق	بحجة العالم الحكيم
لولا الذي فيه من حدوث	ما دلّ خلق على القديم
إتقانه إن نظرت فيه	فرع عن العلم والعليم
فانظر إلى عالم يراه	وانظر إلى المنهج القديم
ينتج نار الجحيم فيهم	أو جنة الخلد والنعيم

فإذا حصل وفقك اللَّه في هذا المقام وشاهد الحق غاب عن جميع الخلق، وغاب عن مشاهدته وعن جميع الخلق، وغاب عن مشاهدته وعن طلبته وعن كل كون. فلما تجلَّى ربه للجبل، جعله دكاً وخرَّ موسى صعقاً، فمحق الرسوم ودكَّها، وأصعق الهمم فملكها، فبين الحق والصعق كما بين الحق والخلق. عطس رجل بحضرة الجنيد فقال: الحمد للَّه، فقال له الجنيد: أتمها كما قال اللَّه تعالى وقل رب العالمين، فقال: يا سيِّدنا ومن العالم حتى يذكر مع اللَّه الآن، قلت: يا أخي فإنَّ المحدّث إذا قورن بالقديم، لم يبقَ له أثر.

فهذا يا بني قد تعين لك، أنه لم يظهر في العالم موجود محدّث إلاَّ عن مقدمتين هما أصلاً وجوده، فتفهم ما كشفناه لك من الأسرار المحجوبة، في خزائن الغيرة عن الأغيار، وأزل رمد التقليد عن جفنيك، واكتحل بكحل الاجتهاد في المعاملات، والتخلق بالأخلاق السماوية، فطهّر ثوبك ظاهراً وباطناً، فإذا تجلّى البصر تقوّى النظر، فأبصرت الأشياء على ما هي عليه، ووقفت عيناً على ما قلناه، واللَّه يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفلك القدمي

الرجل إن جاريته في علمه ... أربى على حد السوى والمستوى
فاقبض عنان الطرف عن إسرائه ... فالعجزعلمحققعلمأخذالدوى
من عنده في موقف تاهت به ... ظلم الغيوب موجهاً ثم الهوى

لعلك تشتهي يا بني، أن تقف على حقيقة قدمك، وأنت ترجح الأشياء بعقلك، عابد هواك منعكف على صنم لذتك، تتبع خطوات الشيطان، وتمشي في ظلم المخالفة والعصيان، وتسعى على قدم غرور وذهلت عن المصير إلى من إليه تصير الأمور، وهيهات، لا بدَّ من مقدمات مجاهدات، ومراعاة ما تُوجَه عليك في رجليك من التكليفات كسائر الأعضاء، من قبض بتقييد عن السعي في المحرَّمات والمحظورات، وبسط بتكثير الخُطى إلى المساجد ولزوم الجماعات، وكن من المشَّائين في الظُّلم إلى المساجد، تبشَّر بالنور التام في الصامتين، وامشِ في قضاء حوائج إخوانك من المسلمين

والمسلمات، واسع على عيالك، واثبت يوم الزحف ولا تزلّ قدمك، ولا تزال في ذلك اليوم إن استطعت، واسلك بها على الصراط المستقيم، ولا تتبع السبل، ولا تمش في الأرض مرحاً.

واعلم أنك إذا أحكمت المشي على هذه المقدمات وما أشبهها، فقد أحكمت المشي على أحدّ من السيف، وأرقّ من الشعر، بل أدقّ وأخفى. وإن اللّه تعالى إذا سلكت ما ذكرته لك، يكرمك اللّه إن شاء بكرامات، ويطلعك على منازل كما كان في سائر الأعضاء، تكرمة من اللّه بك وعناية، ليثبتَ به فؤادك.

فمن الكرامات المختصَّة بهذا المقام في ظاهر الكون ثلاثة أشياء: المشي على الماء، وطي الأرض، والمشي في الهواء. والحكايات في هذه المقامات عن الأولياء أشهر من أن تذكر، فلم نحتج إلى ذكرها هنا لشهرتها، ولأن الدواوين ملئت منها، فإنَّ للّه تعالى أولياء يفعل معهم هذا كله. وغرضنا الاختصار فلنذكر منازلها العلية.

منازله

اعلم يا بني، أنه لا يزال الموفق السعيد في هذه الكرامات سائحاً، وعلى أسرارها غادياً ورائحاً، وبهذه التخلُّقات المذكورة متصفاً، حتى يُفتح له باب إلى عالم الملكوت، فيكون سعيه فيه، على قدر ما كان سعيه في عالم الشهادة، في المسارعة إلى الخيرات، فعلى قدر سرعته هنا يكون كشفه هناك.

فمن طُويت له هنا الأرض، زويت له في ذلك العالم الروحاني أرض الأجسام، فعلم حقائقها ووقف على طبقاتها ظاهراً وباطناً وعرف سرائرها، وكل ما أودع اللّه فيها، من حكمة لطيفة، وسرّ شريف، عضواً عضواً، ومفصلاً مفصلاً، يحيط بها علماً، أو من سعى هنا في فضيلة وخلق، أورثه المشي على الماء، وفتح له باب في عالم الملكوت عن سر الحياة، والعلم المودع في الماء، فعرف الحياة اللطيفة الموسومة بالعلم، وعرف الحياة الموقوفة على الجسم، لإحساس الآلام واللذات.

ومعرفة الأشياء، ثم جمعَ بينهما بأمر لطيف، يعرفه صاحب ذلك المقام، ويعرفه في هذه الحضرة مرتبة كل علم، وأين حظُّه في الوجود وبمن يتعلّق، وعلى من يتوجه وكيفية صدوره، وبوقوفه على هذه العلوم وتحصيله إياها، تحصل له المعلومات، ويحصل من زويت له أرض الجسوم، تحت قبضته وهو خارج عنه بمرتبته.

فكل وليٍّ أعطاه اللّه المشيء على الماء، وطي الأرض تحت حكمه، عادة أجراها اللّه لهم في طريق عالم الملكوت، لا يكون إلاَّ هذا، ولا بدّ إذا تحقق في ذلك المقام، فإن نقَصَه علم ما من تلك العلوم فليس هناك، فلنرجع إلى سعيه في عالم الشهادة على الماء، وينحدر من الماء إلى الصفة التي أوجبت له ذلك، فيجد نفسه لم يحكم التخلّق بها بسرائرها، فيسعى إذ ذاك في إحكامها، حتى يتخلَّق بها على أتمِّ وجوهها، وليلتفت إلى آفاتها حتى تخلص له، ثم يرجع فيكمل له في عالم الملكوت، ويصح له إعلامه.

ومن سعى في فضيلة وخلق، يوجب له المشي في الهواء، فإنه يفتح له باب إلى عالم الأرواح في الملكوت الأعلى، فيعرف عند ذلك حقائق الأسرار، وكيفية الصعود والنزول والاستواء، وسرّ الاستمداد والتدبير والتلقي والتسخير، ومن أين صدرت التكاليف وما حضرتها، ويقف على عين الاستواء من جهة المستوى عليه، لا من جهة المستوي الذي هو الرحمن، لا يتجاوز صاحب هذا المقام الكرسي أصلاً، والعرش لصاحب القلب الآتي بعد هذا إن شاء اللّه تعالى.

فإن نقصه شيء من هذه الأسرار، فليرجع إلى المبدأ الأول، كما تقدم على حد واحد. فإذا أحكم صفة تخلقه، أحكم له مقامه عنده في عالم الأرواح.

فتبيَّن يا بني سرَّ رمزه، وهو عندنا وعند أصحابنا عسر المنال، وذلك كيف يتوجَه أن لا يحكم عليه مقام في العالم العلوي، ما لم يحكم هنا تخلّقه بالصفة الموصلة إليه، وهل إذا نظرت، ينبعث منها عالم، مدَّ بعمل ما أو بتخلف ما، إلاَّ بمادة الصفة الروحانية، التي يرتقي إليها بعد التخلق، في

عالم الغيب، فإذا كان هذا، كيف يُردُّ إلى عالم الشهادة، لأحكام ما لم يحكم، وهو لا يتحرك، إلاً بحسب تحرك الروح المطلوب له، فيقول عند ذلك الفيض من العالم ابتداء، ليس بواجب عليه، أعني المفيض أن يمنحه أسرار التخلُّق على التتميم بتلك الصفة، التي أفاضها عليه، وإنما هو على قدر ما أراد الواهب، أن يهبه من أسرار أحكام تلك الصفة، التي هو عليها في عالم الشهادة.

وما منها صفة إلاً ولها مراتب، فلو كانت المرتبة متَّحدة لنالها في أول حال، فوقع التفصيل بعدد المراتب، فإن شاء الواهب، أن يهبه أسرار التخلُّق، بكل مرتبة تحويها تلك الصفة الملكية، حصل هنالك الكمال وإن لم يشأ فمن الذي يوجبها عليه.

وقد رأينا من أهل هذه الطريقة، عالماً كثيراً ممن مشى على الماء والهواء، وطويت له الأرض جهراً وعياناً، ثم ردَّ إلى أحكام ما بقي له في تلك الصفة وهنا محل الآفات، فمنهم من تمَّم الأحكام فرجع، ومنهم من طال عليه الطلق فنبذها، وألحقَ بالأخسرين أعمالاً. فهذا محل الآفات. نسأل اللّه تعالى العصمة.

فإن قلت فهذا المستدرج، هل يتَّصف بهذه المقامات أم لا سبيل إلى ذلك لكنه يمشي على الماء والهواء، وتزوي له الأرض، وليس عند اللّه بمكان، لأنها عند اللّه ليست عنده هذه المراتب، نتائج مقدمات إذا ضلَّ، وإنما هي نتائج مقدمات مذمومة قامت به، أراد الحقُّ سبحانه وتعالى أن يمكر به، في ذلك القصد الخارق للعادة، وجعله فتنة عليه، وتخيَّل إنما وصله إلى ذلك الفعل، الذي هو معصية شرعاً، وأنه لولا ما وقف على حقيقة ما اتفق له هذا، وغفل المسكين عن معنى موازنته لنفسه بالشريعة. نسأل اللّه، أن لا يجعلنا ممن زيِّنَ له سوء عمله، فرآه حسناً، فيستمر على ذلك الفعل.

وإما أن يتَّصف، ويصل إلى المقامات الإلهية التي أشرنا إليها، فلأنها حقائق الوراثة النبوية، فلا تثمر إلاً الاستقامة أصلاً، فإنه ضرورة من وقف

على وجه الدليل، أن المدلول حاصل عنده. ألا ترى أبا سليمان الداراني يقول: لو وصلوا ما رجعوا وهو صحيح، وهو من سادات القوم وأئمتهم المُقتدى بهم. فإن قلت وفَّقك اللَّه، فصف لي ما هذه الصفات، التي تجعل المتخلِّق بها والمتصف بأحكامها، يقف على حقائق هذه المقامات.

فلتعلم أن طي الأرض لأصحاب المجاهدات الخارقين، سفينة جسومهم بالاجتهاد والكد في المعاملات، وذلك أن اللَّه تعالى العليم الحكيم، أودع الحكم في المناسبة، وعليها قام عماد هذا الكتاب، فلا يُظهر مقاماً، إلاً أن يكون بينه وبين الصفة، التي تؤديك إليه مناسبة كالعين مثلاً.

إذا وقفت عندما حدّ لها سبحانه، واتَّصفت بما فرض اللَّه عليها وندبت إليه، وبادرت لذلك كله على أتمِّ وجوهه، فثوابها المشاهدة، فإن أُعطيت بدل المشاهدة المناجاة، تنعمت النفس من جهة السمع، لا من جهة البصر، ويبقى البصر غير متنعِّم بشيء، إذ حقيقته النظر ولا يعرف المناجاة ولا الكلام ما هو، والثواب عند العالم الحكيم، مطابق للمثاب مجانس له، لأنه يضع الأشياء مواضعها، فلا يجعل المشاهدة ثواب السمع، ولا المناجاة ثواب البصر، فإن حقائقها تأبى ذلك، وإن جوزنا عقلاً أن يسمع البصر، فليس إذ ذاك على التحقيق بصر، وإنما هو سمع، وإنما هو بصر من حيث الرؤية والمشاهدة، وإن كانت ذات الإدراك واحدة كما قال بعضهم، يسمع بما به يبصر، ويبصر بما به يتكلم.

لكن كما ذكرنا فلا بدَّ أن تكون المقدمتان تتضمن النتيجة، وحينئذ تصح تلك النتيجة عن تلك المقدمتين. كمن يريد مثلاً أن يعلم أن النبيذ حرام، فيقول كل مسكر حرام هذه مقدمة، والنبيذ مسكر هذه المقدمة الأخرى، وبازدواجهما على الشرط المخصوص والوجه المخصوص، أنتجتا أن النبيذ حرام، والإشكال مذكور في المقدمتين، غير أن الحرام فيهما ليس بمحمول على النبيذ، وإنما ظهر حكمه في النتيجة.

وهكذا في جميع الأمر المعلوم حكمه عند المحققين، لأن المعلومات في نفسها على هذه الحالة. وإنما الذي يعسر العلم بها وهو عزيز، فعلم

المناسبة شريف لا يعلمه إلاَّ الراسخون في العلم والعين، فإذا تقرَّر هذا، فأية فائدة تكون للعين، إذا لم تلتذَّ بالمشاهدة.

وارجع فتثبت بهذا كله أنّ طي الأرض للعبد في العالم الكبير، إنما هو نتيجة عن طي العبد أرض جسمه بالمجاهدات، وأصناف العبادات، في إقامته على طوى الليالي ذوات العدد، وهذا جربناه ودلّ عليه العلم، فحصلت معرفتان ذوقية؛ وهي علوم الأحوال وهو مشاهدة الطي خاصة، ويشارك فيه كل من طويت له، غير أن الفضل، إنما يقع بيننا فيما ذكرناه من معرفة السبب المولّد له، إذ لصاحب هذا المقام أعمال كثيرة خلاف هذا، ولكنه لا يدري أي عمل منها، أنتج له طي الأرض. فالحمد للَّه على ما ألهم، وإن علَّمنا ما لم نكن نعلم، وكان فضل اللَّه علينا عظيماً.

فصل

كما أن المشي على الماء، لمن أطعم الطعام وكسى العراة، إما من ماله أو بالسعي عليهم، أو علَّم جاهلاً وأرشد ضالاً. لأن هاتين الصفتين سرّ الحياتين الحسية والعلمية، وبينهما وبين الماء مناسبة بيِّنة، فمن أحكمها فقد حصل الماء تحت حكمه، إن شاء مشى عليه، وإن شاء زهد عنه فيه على حسب الوقت، وكذلك إحياء الموتى بالجهل بالحياة العلمية، ولست أقطع بهذه الكرامات ولا بدَّ، وإنما أقول، إن حصلت فهذه أسبابها، ومن ههنا مأخذها ومنشأها، وإن لم تحصل فليس حظ العارف فيها، وإنما حظه في منازلها وسرائرها.

فصل

كما أن الذي يمشي في الهواء، لم يصحّ له حتى ترك هواه، فيكون إذ ذاك مراداً لا مريداً. ولهذا قيل لبعضهم وقد رؤي يمشي في الهواء: بمَ نلتَ هذه الكرامة؟ فقال رضيَ اللَّه عنه: تركت هواي بهواه فسخَّر لي هواه. وفي رواية فأقعدني في هواه.

والعلم والحكمة إنما هي في معرفة المناسبات قضاءً عقلياً وقضاءً إلهياً حكمياً.

ومن قال أن اللّه تعالى يفعل خلاف هذا، فليس عنده معرفة بمواقع الحكم، فإن اللّه تعالى قال: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: 24] يعني أيام الصوم، ولم يقل إشهدوا ولا أسمعوا، وإنما جوزوا من حيث عملوا وقال تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ [الأعراف: 51] وقال تعالى: ﴿ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: 126] وقال تعالى: ﴿ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود: 38] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ [المطففين: 29] ثم قال في الجزاء: ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ [المطففين: 34] ثم تمم بقوله تعالى: ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين: 36] وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة: 15] لما قال المنافقون: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [البقرة 14].

ورؤي بعض المشايخ في النوم فقيل له: ما فعل اللّه بك؟ فقال: رحمني وقال لي: كلْ يا من لم يأكل، واشرب يا من لم يشرب.

فيا ليت شعري هذا المخالف لنا، لما لم يقل له كلْ يا من قطع الليل تلاوة، واشرب يا من ثبت يوم الزحف، هذا ما لا تعطيه الحكمة، واللّه العليم الحكيم، مرتِّب الأشياء مراتبها، وما أحد أتى على أحد، إلاَّ من قلة معرفته بالترتيب، فلو صحَّ الترتيب ما أتى عليه.

وكل من ذكرنا من أصحاب المقامات، ساداتنا أبرار أتقياء أخيار، رجال اللّه وأوليائه وسراة الوقت وبدلائه، وأما الكبريت الأحمر والأكسير الأكبر، الفعَّال المنزَّه عن القافات، والمالك لجميع الصفات، والعري عن جميع الآفات، فهو العروس العذراء، المخبو عن العين في حجاب الصون، في غيابات الكون، وظلم العوائد المعروفة عند التخلّق، لا يُعرّف ولا يُعْرَف، بل يكشف وقت ما ولا يكشف لأبويه، تجده في الدكان مضطجعاً، تنوشه الكلاب أو بهلولاً، يُرمى بالحجارة لا يُعبأ به، ولا ينظر إليه، حجبه غيرة بل عزه منة، وفي صاحب هذا المقام أقول:

شغل المحب عن الهوى أن يبصره في حب من خلقَ الهواء وسخَّرهُ

العالمون عقولهم معقولة عن كل كون يرتضيه مظهره
فهم لديه مكرَّمون وفي الورا أحوالهم مجهولة ومستره

ولا أقول أن هذا المراد المصطفى في أحواله، كبريت وإسكير وجوده، ليست تكون له هذه الكرامة أصلاً، نعم تكون له وقتاً مالاً مُرمى. وإما أن يستمر له، فلا سبيل إلى ذلك لسرٍّ خفي، يبحث عنه صاحب الهمَّة حتى يجلو حاله، فإن اللَّه تعالى مريد في الوجود، بموافقة إرادة ذلك العبد المقدّس، اختصاصاً منه أن يكون الأمر كذلك، ومن إرادته عرفنا اللَّه، أن لا يستمر له ذلك السر الذي رويناه لك مقفلاً.

ومعنى أن اللَّه تعالى يريد بإرادة ذلك العبد، لأنه الإكسير الأكبر، ولا يريد أصلاً إلاَّ بعد العلم بمراد مولاه فيما يريده، لتكون الموافقة له، فيصحّ له كونه أكسيراً، فإذا لم يقع له المراد، بطلت حقيقة المقام المراد فلا يريد، وليس هو ذاك أبداً أمراً إلاَّ بعد الكشف، فكأنه قارئ في اللوح المحفوظ جميع الكائنات، لكن ليس من شرطه أن يعرف الجزئيات، إنما هو ابن وقته ومكانه، وأكثر من ذلك بشيء وقد شاء اللَّه تعالى ذلك، فإذا أراد اللَّه أمراً، فعل اللَّه ذلك المراد له، فيقال: انفعل عنه بهمَّته كذا، فكان الحق تعالى جازاه على إرادته.

ولهذا حُكي عن بعض الجاهلية في حق رسول اللَّه ﷺ أنه قال: إن اللَّه يحب محمداً، ما يريد منه أمراً إلاَّ أعطاه إياه. إشارة إلى وقوع المراد. وكذلك كل من نطق عن الأذن للورثة من المكملين في الميراث، فمن رسخت قدمه هنا، وسعى في هذا الوجود، وعلى هذا الحدّ في كل عالم، بالمشي الذي يخصُّه، والسعي الذي يليق به.

والرجل الذي ينبغي أن يطلق عليه، عرف حقيقة نزول الحق إلى سماء الدنيا، في الثلث الباقي من الليل، فأخذ حظه من هذا النزول، من طريق النسخة الصغرى، وأنه ثلاثة أثلاث بالنسبة إلى الليل، وسبعة طرائق بالنسبة إلى الأرواح، وسبعة طباق بالنظر إلى الأجسام. وأقام عالمه سطح أرضه فينزل في الثلث الباقي من ليل ذاته، الذي يليه الفجر وطلوع الشمس، إلى

سمائه الأقرب إليه المدبّرة، وأرضه المزيَّنة بكواكب علومها، فينال به حظ من الحق.

هل من عين ساهرة أنعمها بمشاهدتي؟ هل من سمع يصيخ أسمعه كلامي؟ هل من لسان صامت أنطقه بذكري؟ هل من يد مقبوضة أبسطها بنعمتي؟ هل من بطن جائع أغذيه بخلقي؟ أو عاطش فأرويه بعلمي؟ هل من فرج متعفّف أنكحه حكمتي؟ هل من رجل قائمة ألفُّ ساقها بساق السجود؟ هل من قلب منبه أهبه الكل؟

فمن كان متيقظاً من نومه من هؤلاء العوالم، حصل له ما وُعدَ به. فمن وقف على هذه الحقائق، واخترق برجل همته هذه الطرائق، وأسرى به إلى الحكيم الرازق، فذلك صاحب الرجل والساق والقدم، وهو الساعي على الحقيقة، والمتخلّق بأسرار الطريقة، والمتحقّق في أوصافه والمجهول بين إخوانه وأصحابه. أتحفنا اللّه بمن هذه أوصافه.

ولو أرسلنا القلم في نتائج هذا المقام، وتكلَّمنا على الساق والقلم وخلع النعلين وما فيه من الحكم، لخرجنا عن الاختصار والإيجاز، فلنمسك العنان مخافة أن يغلبنا الحال، وتغني عن ملاحظة التقيّيد، حتى نكشف ما حُرِّم علينا كشفه لأكثر العبيد وعلى اللّه قصد السبيل والحمد للّه وحده.

الفلك القلبي

قلب المحقّق مرآة لمن نظرا ... يرمي الذي أوجد الأرواح والصورا
إذا أزال الأكوان واتّحدت ... صفاته بصفات الحق واعتبرا
من شاهد الملأ الأعلى فغايته ... النور وهو مقام القلب إن شكرا
ومن يشاهد صفات الحق فاعلة ... لكل أمر يكن في الوقت مفتكرا
ومن يشاهد مقام الذات يحظ بما ... في الذات من يسلب الأوصاف مفتقرا
فكل قلب تعالى عن أكنته ... لم يدرِ في الملأ الأعلى ولا ذكرا
وكيف يدرك قلب بات محتجباً ... عن الوجود فما صلّى ولا اعتمرا
ما يعرف العين إلاّ العين فاستمعوا ... ما قلب عين كقلب قلّد الخبرا

اعلم يا بني وفقنا اللّه وإياك، أنَّ القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه، فإن أزاغه كان بيتاً للشيطان، ومحلاً للخسران، وموضع نظر المطرود من رحمة اللّه، ومعدن وسواسه، وحضرة أمانيه، ومهبط فواته، وخزانة غروره، وإن أقامه، فذلك قلب المؤمن النقي الورع، الذي قال فيه: ما وسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن. فقلب يسع القديم، فكيف يحسُّ المحدث موجوداً.

وفي هذا المقام، تحقق شيخ الشيوخ أبو يزيد البسطامي رضيَ اللّه عنه. حيث قال: لو أن العرش وما حواه، مائة ألف ألف مرة في زاوية من زوايا قلب العارف، لما أحسَّ به. فقلب العبد الخصوصي بيت اللّه، وموضع نظره، ومعدن علومه، وحضرة أسراره، ومهبط ملائكته، وخزانة أنواره، وكعبته المقصودة، وعرفاته المشهودة.

رئيس الجسم ومليكه، إذا قضى أمراً، فإنما يقول له: كن فيكون. مع السلامة من الآفات وزوال الموانع، بصلاحه صلاح الجسد، وبفساده فسادَه، ليس لعضوٍ ولا جارحة حركة، ولا ظهور ولا كمون، ولا حكم ولا تأثير إلاَّ عن أمره، وهو محل القبض والبسط، والرجاء والخوف، والشكر والصبر، هو محل الإيمان والتوحيد، ومحل التنزيه والتجريد، وهو الموصوف بالسكر والصحو، والإثبات والمحق، والإسراء والنزول، هو ذو الجلال والجمال، والأنس والهيبة، والتجلي والمحق، هو صاحب الهمَّة والمكر، والحرية والوجود، وعين التحكيم والإنزعاج، والعلة والاصطلام، والتداني والترقي، والتدلِّي والتلقِّي، والأدب والسرّ، والسنَّة والوصل والفصل، والغيرة والحيرة، هو حامل المعاني ومدبِّر المغاني.

كما أنه صاحب الجهل والغفلة، والظنّ والشك، والكبر والكفر، والنفاق والريا، والعجب والحسد، والشوب والهلع، ومحل الأوصاف المذمومة كلها، إذا لم ينظر اللّه إليه ولا أدناه منه، وحرمه التوفيق والهداية، وخيبته في الأزل العناية.

هو رسول الحقّ إلى الجسم، فأما صادق وإما دجَّال، إما مضلّ وإما

هاد، فإن كان كريماً أُكرم، وإن كان لئيماً أسلم، فإن كان رسول خير وإما هدى، حرَّك أجناده بالطاعة، وتوجهت سفراؤه إلى أمرائه العشرة من عالم الغيب، التي هي حضرته وعالم الهداية التي باديته، بكتب الإستقامة على السنَّة والجماعة، لكل أمير بما يليق به من التكليف تقتفيه حقيقته. وهم عشرة: خمسة ملكوتية، وخمسة ملكية.

فالأمراء الملكوتيون يسمون أرواحاً، والأمراء الملكيون يسمون حواساً، كحاسة السمع، وحاسة البصر، وحاسة الشم، وحاسة الذوق، وحاسة اللمس.

والأمراء الروحانيون كالروح الحيواني، والروح الخيالي، والروح الفكري، والروح العقلي، والروح القدسي. فإذا نفذ الأمر الإلهي إلى أحد هؤلاء الأمراء، أثر القلب من القلب، بادر إلى امتثال ما ورد عليه على حسب حقيقته، وهؤلاء السفراء هم الخواطر المشهورة.

فصل

اعلم يا بني وفّقك اللّه، ونوَّر قلبك، وشرح صدرك، وطهِّر ثوبك، ونزّه سرك، إن كل كرامة ومنزل ذكرناه فيما تقدم للأعضاء، فإنما ذلك كله راجع إلى القلب وعائد عليه، ولولاه لم يكن من ذلك شيء لتلك الأعضاء، فإن كل عمل صدر عنها، إن لم يؤده الإخلاص الذي هو عمل القلب، وإلاَّ فذلك العمل هباءً منثوراً، لا يصحُّ له نتيجة أصلاً، ولا يورث سعادة أبدية.

فإن اللّه تعالى يقول: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: 5] وقال رسول اللّه ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»، فمن كانت هجرته إلى اللّه ورسوله فهجرته إلى اللّه ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه.

فتبيَّن بهذا، أن الأعمال الظاهرة والباطنة كلها، يزكيها عمل القلب، أو يجرحها، فليس للأعضاء إذاً حركة ولا سكون في طاعة شرعية ولا معصية، إلاَّ عن أمر القلب وإرادته، فأول ما ينبت الخاطر في القلب،

فإذا تحقق وعزم على إمضائه، نظر إلى الجارحة المختصَّة بعمل ذلك الخاطر الذي قام، فيحرِّكها بعمل ذلك الخاطر، إمّا طاعة وإمّا معصية، وعليها يقع الثواب والعقاب.

ألا ترى أن اللَّه تعالى، جعل النظرة الأولى التي هي من غير قصد، ولا للقلب فيها نية بوجه، معفو عنها، والعبد غير مؤاخذ بها. وكذلك في النسيان، إذا عمل العبد عملاً من الأعمال، ناسياً غير قاصد لذلك العمل، فإن اللَّه تعالى قد عفا عنه في ذلك. كما أنه أيضاً، إن أراده القلب وهمَّ بمعصيته، ما لم يكن إصراراً، ولا يكتب عليه ولا يحاسب به ما لم يعمل به، أو يتكلم به هذا في المعاصي.

وأما في الطاعات، فمأجور بنيّته وهمّته، وإن لم يعمل المعصية التي همّ بها، كتبت حسنة. قال ﷺ: «إذا همّ العبد بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشراً، وإن همّ بسيئة فعملها كتبت سيئة، فإن لم يعملها لم تكتب شيئاً». وقال تعالى للملائكة اكتبوها حسنة، فإنه إنما تركها من جراي. يعني من أجلي. وقال ﷺ: «إن اللَّه تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما حدثت به أنفسها».

وكذلك أيضاً، ما استكره عليه الإنسان، ففعله مخافة الموت، فإنه غير مؤاخذ به عند اللَّه تعالى، وذلك لأنه لم يقصد ذلك الفعل بقلبه، وإنما أُكره عليه وقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: 106] وقوله ﷺ في حديث: «وما استكرهوا عليه».

فإذا تقرَّر هذا، فقد ثبت أن القلب رئيس البدن، وهو المخاطب في الإنسان، وهو العقل الذي يعقل عن اللَّه، وهو الملك المطاع الذي قال فيه رسول اللَّه ﷺ: إنَّ في الجسد مضغة إن صَلُحَت صَلُح الجسد، وإن فسدت فسد الجسد ألا وهي القلب.

فإذا كان هذا كما ذكرناه، فقد ثبتَ وصحَّ، أن جميع الكرامات والمنازل التي جعلت للأعضاء، فإنها راجعة إلى القلب، ومتعلقة به وعائدة عليه ولكن مع هذا كله، فله كرامات ومنازل، يختصّ بها في نفسه، لا يقبل

إليها أحد من عمَّاله أبداً. كما أن كل نعمة تظهر في مُلْكِ مَلِكٍ، على يد رجاله وخدمه وحاشيته، ومقام رفيع ومنزلة عليَّة، راجعة إلى الملك. ومع هذا فله أيضاً نعم ومنازل ومقامات، يختص بها ذاته، لا ينالها أحد في مملكته سواء.

وقد ذكرنا هذا الفصل شافياً مستوفياً، في كتابنا الموسوم بالتدبيرات الإلهية، بَيْدَ أن لمنازل هذا القلب شروطاً ليست لغيره من الأعضاء، وذلك أن منازل الأعضاء، قد يحصل لها من غير أن تحصل لها الكرامات المختصَّة بها، والقلب بخلاف ذلك، لا يصحّ له منزل، ما لم يصحَّ له بعض الكرامات المختصّة به، فمنازله موقوفة على بعض كراماته.

ونحن نذكر الآن إن شاء اللّه تعالى، كرامات هذا القلب ومنازله، ممتزجة على حسب ما يعطيه المقام، فاذكر الكرامة والكرامتين والمنزل والمنزلتين والثلاثة، ثم ارجع إلى الكرامات، بخلاف ما تقدم في الأعضاء. وإن هذا يعطي مقام القلب، إذ بعض كراماته منازل لغيره من الأعضاء، فلحلولها وامتزاجها بالمنازل ولطافتها، صارت كأنها هيئة، فلهذا يعسر فصلها عن المنازل.

كرامات القلب

فمن ذلك معرفته بالكون قبل أن يكون، وهذا هو العلم الخفي، الذي فوق العلم السر، وفوقه علم أخفى، وفوق الأخفى أخفى إلى أخفى الأخفى، الذي استأثر اللّه تعالى به دون خلقه.

فالأخفى الأول عمي عنه كل مخلوق، ما عدا هذا الشخص، الذي أطلعه اللّه عليه كرامة منه به، فهو بالنظر إلى الحق فهو من علوم السر، لوقوع الاشتراك في علمه، فهو للحق سبحانه وتعالى من حضرة يعلم السرَّ، وللعالم من حضرة ما خفي. إلاَّ أن أصحابنا رضيَ اللّه عنهم، أطلقوا على هذا العلم سرّ السرّ أدباً مع الحق سبحانه وتعالى، إذ لم يُسَمَّ أخفى، إلاَّ ما انفرد به سبحانه وتعالى. وأنا جار على هذا الأدب، وإنما ذكرت الأخفى هنا

لهذا السرّ، تبييناً للمعنى في حق السامع، فسرّ السرّ هو هذا العلم، وما هو أخفى بما هو فوقه.

ولا يلتفت لمن يقول، إن كل إنسان له سرٌّ يخفيه، لا يعلمه أحد معه إلاَّ اللَّه تعالى، هيهات وأين اللوح والقلم، ولمة الملك والشيطان؟ نعم لكل إنسان سرٌّ مسلم ذوقاً، لا يعلمه أحد من جنسه ولا الألف من غير جنسه، ويعلمه هذا الذي أكرمه اللَّه تعالى به، وما يكون فيه من بعد، مما لم يوجده تعالى في نفسه.

إلاَّ أن إكرامه من اللَّه تعالى لبعض العبيد، وتحقّق ميراث إلهي، فأرباب القلوب يعلمون السرائر بإعلام اللَّه لهم، وما انطوت عليه النفوس والضمائر، وهي المكاشفات التي ذكرناها في عضو البصر، ويعلم واحد من أرباب القلوب، ما لا يعرفه الضمائر ولا الخواطر مما ستعرفه.

فبهذا استأثر صاحب القلب الإلهي، وهذا حائل عقلاً، لا يُعْلِم اللَّه سبحانه عبداً من عباده، ما في نفس عبد آخر، مما سيكون مما ليس هو الآن كائن، وما بقيت الدعوى، إلاَّ في أن هذا الأمر قد وقع، ولا برهان على أنه قد وقع عقلاً، إلاَّ أن المدَّعي في هذا المقام إذا ادعاه ويقول: أنا ذلك الرجل يقال له: هات أخبرنا بما في نفوسنا، وما يكون من بعد مما ليس فيها الآن؟ فإن كان صادقاً في دعواه أخبر بذلك، وإلاَّ فدعواه كاذبة وهذا هو السرّ.

والأخفى الأول الذي هو سر السرّ، فهو أخفى بالنظر إليك مع العالم، ومن جهة أن الحق قد أطلعك عليه سرّ بينك وبين الحق، والحق أخفى منه، وصاحب هذا المقام يعلم ما في نفسك، ولا تعلم ما في نفسه، ولما كان هذا الأمر يحصل لبعض الناس، ولم يحصل للآخرين، من أجل ذلك المقام الذي يحصل فيه، لمن حصل جعلناه كرامة، ولم نجعله منزلاً، لأن أصحاب المقامات، ليست الكرامات شرطاً في تصحيح مقاماتهم، وأما المنازل فشرط في صحة المقامات. ومن ادعى مقاماً ولم يقف على منزل، فدعواه كاذبة وقوله زور وبهتان.

منازل الآمنين

واعلم أن السبب الذي منه تحصل هذه الكرامات، هو أنّ القلب له بابان: باب إلى عالم الملكوت، وباب إلى عالم الشهادة. وعلى كل باب إمام، فالإمام الذي على باب عالم الملكوت، قارع لذلك الباب حتى يفتح له، ولا بدَّ أن يفتح. فإذا فتح ظهر عند فتحه طريقان واضحان: طريق إلى الأرواح الملكوتيات والرحموتيات، وطريق إلى اللوح المحفوظ، فإن سلك هذا الإمام على طريق الأرواح، وقف على أسرار الملائكة، ويصير صاحباً لهم وسميراً، ومن ثم يكثر تسبيحه وتهليله ومعاملاته واجتهاده في العبادات، على حسب الصنف الروحاني الذي يكون معهم.

فثمَّ صنف غلب عليهم التسبيح، وآخر غلب عليهم التحميد، وآخر غلب عليهم السجود، وآخر غلب عليهم القيام، وما منهم إلاَّ وله مقام معلوم، كما أخبر اللّه سبحانه وتعالى، وحدّ مرسوم، وأنهم الصَّافون المسبّحون الليل والنهار لا يفترون. فهذا الإمام النزيل، يغلب عليه حالتهم ضرورة، فتكون عبادته على نوع عبادة الصنف الذين يكون عندهم، وهي الدلائل على كشفه، والبراهين على دعواه، في مشاهدتهم ومؤانستهم ومحادثته لهم.

وأما الطريق الذي يفتح له إلى اللوح، منه يعرف ما ذكرته لك، لأنه قد ارتقم فيه علم، ما كان وما يكون، وما لو كان أن لو شاء الحق أن يكون كيف يكون، فيقابله بذات قلبه فيرتقم فيه، على حسب كشفه كما ذكرناه في فلك اليد. فانظر هناك في الباب الجزئي.

واعلم أن المشاهد لهذا المقام، ساكن الجوارح لا يتحرك له عضو أصلاً إلاَّ عينيه، تحركهما عين البصيرة بقوتها لغلبة المقام عليه، وهاهنا يقع التفاضل بين أهل هذه الطريقة، فمنهم من لا يزال عاكفاً على اللوح أبداً لا ينتفع به، ومنهم من يشهد تارة وتارة، ومنهم من يكون له نظرة واحدة، ويرجع ثم لا يعود، ومنهم من يترك النظر فيما يسطِّر، وهاهنا مرتبتان منهم من ينظر فيما يسطّر، أعني ماذا يسطّر، ومنهم من ينظر في كيفية تخطيط

القلم، وكيف يقلع العلوم من الدواة، التي هي النون مجمَّلة، وينثرها على سطح اللوح مفصَّلة.

فإذا تكلم صاحب هذا المقام، لم يُفهم عنه كلام أصلاً لإجماله، ومنهم من ينظر تحريك اليمين للقلم، ومنهم من ينظر اليمين لا من جهة أنها كاتبة، ومنهم من ينظر صاحب اليمين، ومنهم من ينظر في صفات الجلال السلبية، ومنهم من ينظر الذات من حيث اليمين ومنهم من ينظرها من حيث هي، وهذه أسنى المراتب والمقامات وأعلاها، وليس وراءها مقام ولا منزل يتعالى.

ولكن في هذه المقامات، يقع التفاضل بين أصحابها، فللرسول منها شرب، وللنبي منها شرب، وللصوفي المحقّق الوارث منها شرب، ولكل مقام من هذه المقامات أدب يخصه، وشاهد كمال يشهد له، أضربنا عن ذكره حذراً من المدّعِي أن يلزمه، ويدَّعِي المقام، فيشهد له اللزوم لأدبه في ذلك الحين.

لكني أسوق من الشروط لتحصيل هذه المقامات، ما يفتضح به المدّعِي إذا ادعَى مقاماً منها، ولا أقول متى يكون ذلك ولا كيف يكون، ونتركه مبهماً حتى لا يعرف المدّعِي متى يدَّعِيه، وأما الذَّائق له فصحيح الدعوى، فيعرف ما كتمناه وسترناه واللَّه يصلح الجميع.

فأما من شاهد اللوح، فعلامته أن ينطق عن سرِّك وأنت ساكت، فهذا الذي قال في حقه الجنيد سيّد هذه الطائفة رضيَ اللَّه عنه، قيل له من العارف؟ قال: الذي ينطق عن سرِّك وأنت ساكت. وعلامة من شاهد القلم يكتب، أن يعرف عين ذلك السرّ الذي تتكلم عليه في نفسك، من أيِّ حضرة صدر، وما السبب الذي لأجله وجد.

ومن شاهد اليمين كاتبة، فعلامته الفعل بالهمَّة وهو ساكت، ومن شاهد اليمين غير كاتبة، فعلامته الأنس في بساط الجمال، من غير انبساط بل بأدب، كما قالت المشيخة رضيَ اللَّه عنهم: أقعد على البساط وإياك والانبساط.

ودليل أنسه استبصاره عند الموافقة، بين أفعال المكلفين والشرع، وهذا مقام الغيرة التي قيل للشبلي فيه: متى تستريح؟ قال: إذا لم أرَ له إلاً ذاكراً. ومن شاهد اليمينين، علامته التسليم لأمر اللَّه تعالى والرضا بموارد القضاء، وكلُّ ما يجري عليه من البلاء والمحن والنعم سواء، لا يفرِّق بينهما حالة. وعلامة هذا ما لم يكن الابتلاء في الدين، فإن كان لزمه الأدب والاحترام.

ومن شاهده في الصفات السلبية، فلا تصدر منه نقيصة أصلاً هذا علامته، بل يكون خيراً كله، ومن شاهد الذات من حيث الذات، علامته أن لا يتفق أمر في الوجود، إلاً ويكون ذلك مراداً له وبإرادته، ولا يجري شيء على غير غرضه، فإن بطل له هذا الشاهد بطلتَ دعواه، فإن قلت وهذا المقام يدَّعيه الإنسان، ولا يدري هل يصدق في دعواه أو يكذب.

فاعلم أن الإنسان صاحب غفلات، فإذا ادَّعى لك هذا المقام من ادعاه، فاغفل عن دعواه فيه، بل سلِّمه له، فإذا غفل عن دعواه، أقصد نكايته بأمر ما وجريحه، وانظر إلى حاله في ذلك، فإن كان كاذباً تغيّر ولا بدَّ، وإنما يقع التغيُّر من جهة المخالفة، فلو وافق نكايتك له إرادته فيها لما تغيَّر، كيف وقد وقع مراده.

فهذه وفّقك اللَّه شواهدَ، لا ينفك صاحب هذه المقامات عنها. ومن ادَّعاها دون هذه الشواهد، فدعواه كاذبة، وبعد هذا كله وتصحيحه، فلا شك للإنسان في نفسه، على تصحيح هذه المقامات له، أصحُّ من الاستقامة والتوفيق ظاهراً وباطناً، والوقوف عن ما جاء به سيِّدنا محمد ﷺ جعلنا اللَّه ممن اتبَّع سبيله ثم قال: ذلكم وصَّاكم به، لعلكم تتَّقون، فجعلها وصيَّة، والصوفي أحقّ بسماع الوصيَّة الإلهية من كل أحد، إذ هو المدعى فيه، وصاحب مناجاته ومشاهدته من كل أحد.

صلة وتتميم: ثم لتعلم أن تعدُّدَ الأسرار عندنا، إنما هو لتعدد هذه المقامات الإلهية الغيبية التي ذكرناها، ولكل مقام سرٌ يخصّه. فلهذا تعددت الأسرار، وكثرت إضافتها فقالوا السرّ، وسرّ السرّ، وسرّ سرّ السرّ، وسرّ سرّ سرّ السرّ. وهكذا إلى أن ينتهي إلى ما ذكرت لك، فإذا سمعت إضافات هذه

الأسرار وتكرارها، فلا تتخيَّل إنها راجعة إلى معنى واحد، مع تعريض لك أنها متعددة بالمقامات، وإنما كانت إضافات بعضها إلى بعض لأن بعض هذه الأسرار نتائج عن بعض، ومتوقف وجود بعضها على بعض، فالثاني لا يحصل لك أبداً ما لم يحصل الأول، ولا الثالث ما لم يكن الثاني، فإنه المنتج له، هكذا على التالي والتتابع.

وهكذا الكشف كله لا يحصل إلاً للإمامين اللذين هما وزير القطب صاحب الوقت، ما عدا الكشف الذاتي المطلق، فإنه مما ينفرد به قطب الزمان ومرآة المؤمن، كما ينفرد أيضاً الإمام، الذي على يسار القطب، الذي لا سبيل للإمام الثاني الذي على يمينه إليه، فإذا حصل ما ذكرناه من المقدمات والأسرار على التتميم، فتح للإمام الذي على يسار القطب باب عالم الشهادة، فوقف على أسرار العالم الترابي من البشر، والجبروتي الترابي من العباد والزهَّاد، والروحاني الترابي كالأبدال والأوتاد والنقباء.

في هذا الباب، يعطى سرُّ التدبير وأحكام الرئاسة والسيادة، وصار كل روح مدبِّر لجسده تحت ملكه، وقهره يتصرف عن إذنه. فهم مع كونهم يتصرفون في الأرض والماء والهواء كيف شاؤوا، راغبون في مقام هذا الإمام.

ولقد بلغني عن ثقة أن الشيخ أبا النجا المعروف بأبي مديّن رحمة اللّه عليه، وجه إليه بعض الأبدال في مسألة وهي؛ لأي شيء لا يعتاص علينا، وأنت لا تعتاص عليك الأشياء، ونحن راغبون في مقامكم، وأنت غير راغب في مقامنا؟ وقد كان لهم منهم أشخاص يصرفهم على حكم إرادته، وكان أحد الإمامين اللذين ذكرناهما، وكان يقول هذا عن نفسه، ويشهد له حاله بصدق دعواه، وكان يقول سورتي من القرآن العظيم ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك: 1].

وليس بعد هذا المقام إلاً مقام القطب، وأما مقام الربوبية المقيّدة بالناس في قوله: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس: 1] فهي حضرة الإمام، الذي على باب عالم الملكوت، وفيها يشهد وهي موضع نظره، فإنها ثلاث

حضرات، اختصت بثلاثة أسماء، نالها ثلاث رجال، وهي: حضرة الرب والملك والإله، ورجالها الإمامان والقطب. وإنما أضيف إمام الربوبية للناس وهو مع الملكوتيات، لأنه لا بدَّ له عند موت الإمام الثاني المسمَّى بالملك، أن يرث مقام الثلاث غيره، فإن ثم أشخاصاً يحصل لهم من مقام الربوبية طرف ما يخلق ما، ولكنهم لا يرثون هذا، فلهذا عرى عنهم الحق الإضافة إلى الناس، إذ ليس لهم فيه تدبير، ولا لهم عليه تقدم.

وبلغ إلى بعض الروحانية عند اجتماعي به، أن شيخنا أبا النجا أعني أبا مديّن رضيَ اللَّه عنه، ما مات حتى كان قطباً قبل موته بساعة أو ساعتين. ولقد أتاني بذلك أبو يزيد البسطامي رضيَ اللَّه عنه، في رؤيا رأيتها، وإني لأعلم وارثه الآن في ذلك المقام الإمامي، وأعرفه غاية المعرفة. وللَّه الحمد على ذلك.

نعم يا سيدي، مضى هذا المقام بسبيله فلنرجع. وهذا المقام الذي يحصل للإمام، الذي لعالم الشهادة، الأئمة فيه على نوعين: منهم إمام يصّرف الأبدال على اختياره كأبي النجا ومن أشبهه، ويعرف الأوتاد عينا واسما، ويجتمعون معه، وهذا المقام هم فيه على أقسام: منهم من يستمر له، ومنهم في وقت دون وقت، ثم لا يراهم أكثر إلاَّ عندما يفقد أحد ويخلفه غيره، ويعلم المفقود ومن خلفه.

ومنهم من لا يشاهدهم أصلاً ولا يراهم، ولا يعلم هل في الوجود أبدال أم لا، إلاَّ أن الأبدال يخدمونه بظهر الغيب، ويحضرون ميعاده، وينتفعون به على غير علم منه لحكمة أخفيتها، ووكلناك فيها لنفسك، وهذه الحكمة يعلمها هذا الإمام، إن عرف أن ثمة أبدالاً، فيعرف ما المانع لرؤيته إيّاهم وتصريفه، وإن لم يعلم لا يعلم تلك الحكمة ولكنه قد أهَّله اللَّه تعالى للتقديم، ووشحه عمل رشاد هذه الأمة لتهتدي به عباده وهذه مقامات.

وإيَّاك أن تتخيَّل يا بني في نفسك، أنك ما يحصل لك علماً دون ذوق أبداً، هيهات فازوا وخسروا المبطلون. وإياك أن تتخيَّل أني خرجت عن المقصود بذكرى لهذه الأشياء، إنما سقْتَها تنبيهاً، على أنه لا يكون

صاحب هذا المقام، إلاَّ من فُتح له باب عالم الشهادة من قلبه، كما قدمنا في أول المنزل، فإن فُتح له فهذه حالته في الشهادة. واللّه يرشد الجميع لا رب غيره.

ومن كرامات هذا القلب المختصّ به، اطِّلاع الحق له على ما أودع في العالم الأكبر من الأسرار. ثم أين حظَّه في نفسه من ذلك السرّ الخفي، حتى يعرف أين البحر فيه، وأين البر، وأين الشجر، وأين السماء والكواكب، والأقاليم، ومكة، والقدس، ويثرب، وآدم، وموسى، وهارون عليهم السلام. كما يعرف أيضاً في ذاته الدجَّال ويأجوج ومأجوج، والدَّابة المكلِّمة لخلقه، هكذا حتى لا يشذّ عنه شيء من الموجودات. ولا أريد حصرها، وإنما أريد أن كل ما عرفه من العلم، عرف أين حظه في نفسه وذاته. فهو في هذه الكرامة يقابل كتاب ذاته بكتاب العالم الكبير، فيصبح كتابه الخاص به.

ومنها أن يطلعه اللّه تبارك وتعالى على هذه الأسرار، فعكس المرتبة الأولى، فيكون في هذا يقابل العالم مع ذاته، فيعرف الشيء في نفسه أولاً، ثم بعد ذلك ينظر ما يقابله في العالم من الخارج، فالأول طالب في نفسه، ما وجد جارح عنه، والثاني طالب في الخارج عنه، ما وجد في ذاته وهذه الكرامة أشرف وأسبق في الرحموتيات. ومنها أن يطلعه اللّه تعالى على هذه الأشياء، وفي الكتابين معاً من غير تقديم ولا تأخير، كالصورة في المرآة مع الناظر وهنا مقامات:

الأول: أن يكون العالم مرآة.

والثاني: أن يكون للعالم مرآة وهو المقام الأعلى، فإن العالم يرى في نفسه، ولا يراه أصلاً، فيكشف العالم ولا يكشفه العالم، فهذا القلب، لو تسأل الأيام عنه ما عرفته، ولو طلب له مكان لم يعقل، وهذا هو وارث الحق الذي يكْشِفُ ولا يُكْشَف. وصاحب هذه الكرامة هو المحمدي المكمِّل، الذي ليس مقام فيدرك، والتنبيه عليه من الكتاب العزيز: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْ ﴾ [الأحزاب: 13] فهذا تنبيه على أمرين على أن لا نهاية أصلاً، وعلى المقام الذي ذكرناه الساعة وله تأثير

عجيب في العالم من غير تعيين إلاً كما ذكرناه وقدًرناه في الفلك القدمي، ومن لم يوفقه اللَّه تعالى على هذه الكرامات القلبية، فليس له علم بموضع الحِكَم الوجودية ولا حقيقة له.

منزل هذه الكرامات

ومن المنازل أن يطلعه اللَّه تعالى على هذه العلة، والسبب الذي لأجله وجد به أمر أو عدم أي: كون كائن من الأكوان في العالم روحانياً أو غير روحاني على الجملة. فإذا عرف ذلك نظر هل له تأثير إلهي أو غير تأثير؟ فإن كان له تأثير، استعد لقبوله، وانتذر إخوانه من المؤمنين إن كان له تأثير هلاك، وإن كان تأثير رحمة بشَّر الخاصة من إخوانه، واستعدوا لذلك بالشكر والثناء، كما وجب عليهم في الأول التضرّع والابتهال، والحذر من الحوادث الطارئة الطارقة، لطوفان أو رياح أو زلازل أو ملحمة.

كما فعل ابن برجان في كتاب إيضاح الحكمة له، حيث يشير لفتح بيت المقدس بتعيين العالم الذي يكون فيه، وظهور نبيّ في الزمان الذي كان قبل نبينا محمداً ﷺ. كقس بن ساعدة وغيره، حين بشَّر به وبأوانه، ورسول اللَّه ﷺ يسمع وهو بسوق عكاظ، وأشباه هذا من هذا المقام.

وهذا منزل عالٍ، لا يناله كل أحد إلاً من اختصّه اللَّه تعالى من عباده، ومع كونه منزلاً عالياً، ينبغي لمن حصل له أن لا يأمنه، فإن في طيّه مكراً خفياً، واستدراجاً لطيفاً، لا يشعر به كل أحد، ومعرفة ذلك المكر موقوفة على من حصل في المنزل الثاني، الذي نذكره بعد هذا إن شاء اللَّه تعالى.

منزل الاختصاص

وهذا المنزل أعلى من الأول، وأثبت وأنفع للسعادة الأبدية، وليس في طيّه مكر ولا استدراج، وهو: أن يعرف الحقّ سبحانه وتعالى بعلل أكوان نفسه وما يوجده فيه، ومن أي حضرة هو وأي اسم له، وإلى أين يكون مآله. وهذا المنزل لا يناله إلاً الخاصة المقطوع بسعادتهم كالأنبياء والأولياء، وهذا

منزل التخصيص، صاحبه مأمون من المكر والخديعة، محفوظ عليه حركته وسكونه وخاطره.

وذلك أن اللَّه تعالى إذا أوجد فيه كوناً ما من الأكوان الروحانية، وعلم علته وسببه ومآله، فإن كان مؤدٍ إلى خسران وقت له وعاقبه، رجع عنه قبل تأثيره في عالم شهادته، وهو معفو عنه شرعاً، وإن كان يؤدي إلى سعادة أبدية، شكر اللَّه تعالى وأمضاه في حضرة ملكه، لمعرفته بما له من المنفعة والمصلحة، وإن كان هذا كما ذكرناه منزلاً عالياً، فثمَّ منزل آخر أعلى منه من طريق الكشف والمقام، ومساوٍ له في السعادة والنجاة، من أسر منزلٍ في النفس، غير أن سعادة هذا أتم. وهذا هو المنزل الذي نذكره الآن، إن شاء اللَّه تعالى.

منزل سر المضاهاة الإلهية والكونية

اعلم وفقك اللَّه يا بني وأسعدك، بنيل هذه المقامات العليصة، أنَّ صاحب هذا المنزل، يطلعه اللَّه على ما فيه من الأسرار من جهة الحق، ومن جهة العالم على طريقة ما، وذلك أن يعرفه الحق سبحانه وتعالى، إذا أوجد أمراً ما، هل قبل ذلك وُجد ذلك الأمر فيه، أو بعده، أو معاً؟ وهل مضاهاة العالم له في نفسه على الكمال، ومضاهاة الحضرة الذاتية الإلهية؟ أو هل هو قابل لها على حد معلوم، فيكون فيه منهما بعض، ويبقى له بعض، سيدركها إن تمَّم المقام؟ ثم إذا أدركها، هل يدركها، حتى لا يبقى له شيء في العالم، ولا في الوجه الآخر أو يبقى له؟ وإنما هو مستعد لقبول كل شيء على الدوام والاستمرار.

بيدَ أن الحقائق تعطى، أن لا تكون فيه المضاهاة المطلقة، على الإستيفاء لما فيها من الأضداد، وهذا مقام سكت عنه شيوخنا، غير أن لهم فيه تلويحات، كالإمام أبي حامد الغزالي رضيَ اللَّه عنه في كيميائه وبعض كتبه وغيره، فإنه صرَّح من هذا المقام بجزئيات منه، ولم يقضِ فيه بأمر كلي يُعتمد عليه، ونحن إن شاء اللَّه تعالى، نعطي فيه أمراً كلياً، ونضرب عن ذكر الجزئيات مخافة التطويل، إذ لا حاجة لنا بها هنا فنقول: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: 4].

إن كلَّ باطل فهو عدم محض، وكل وجود فهو حق، فليس في الوجود باطل أصلاً، فإن قلت أن الكفر باطل، والكذب كذلك وهو في الوجود، فمسلَّم أن الحروف التي ينطق بها الكافر والكاذب في الوجود هي حق، فإنها قد وُجدت، وأما المعاني التي تحت هذه الحروف فعدم، وهي مثلاً: أن للَّه شريكاً تعالى سبحانه، وأنه في جهة، أو أن محمداً ﷺ ليس بنبي، فمعدوم بل هو نبي، وأن اللَّه تعالى لا شريك له.

وكذلك زيد قائم أو في الدار وهو ليس كذلك، فالقيام عدم، والاستقرار في الدار عدم، فإنه أخبر بما لم يكن، ولم يحصل في الوجود، فثبت بهذا أن الباطل عدم محض، وإنما الناس حُجبوا بالألفاظ الدَّالة على العدم، فتخيلوا أن الألفاظ بحملهم هي نفس المعدوم وهذا كما تراه فتدبَّر هذا الفصل ترَ عجباً. وإنما سِقتُ هذا، لما لي فيه من المنفعة في هذا الموضع، فإذا تقرَّر هذا، فاعلم أن المضاهاة على قسمين:

مضاهاة ظاهرة، وباطنة، فالظاهرة في الإنسان بما هو إنسان، والباطنة إنما هي في الإنسان، لا بما هو إنسان فقط، بل بما هو نبي أو ولي. وكما أنهم على مقامات، يفضَّل بعضهم فيها على بعض، كذلك بعض هذه المضاهاة الباطنة، يفضَّل بعضهم فيها على بعض، على حسب مقام ما يعطيه مقام ذلك النبي أو الولي، فافهم ما رمزناه لك.

وقد أشبعنا القول في هذه المضاهاة الكونية، فلا تصح على الإطلاق أصلاً في الإنسان، وإنما يصحُّ فيه بعضها على حسب مقامه، وإن استوفاها كلها فلا يكون ذلك في زمان واحد، بل يحصِّلها شيئاً بعد شيء، ولكن لا بدَّ أن يتقدم في حقه أشياء لحصول أشياء أُخر، هكذا هو سرُّ الحقائق ومعناها، وهي في العالم موجودة كلها.

فإن سمعت الصوفي يقول: أنا نسخة من العالم، فليس معناه أنَّ كل ما في العالم فيه في زمان واحد، بل هو مستعد لقبول ما في العالم، بخلاف غيره من الموجودات، ولكن فيه أكثر العالم، فثمَّ في العالم أشياء، هي في الإنسان بما هو إنسان، كالنبات والبهائم، والجمادات، ومنها ما هي فيه، من

حيث هو عبد مختصّ باللّه تعالى، كالملائكة وما أشبه ذلك، وهكذا في مضاهاة الكون في الإنسان. وفائدة هذا المنزل، إذا تحقَّق به المتحقِّق، يكون قطب وقته، ولو كان في غير هذا الزمان، لكان مشاراً إليه، فتحقَّق يا بني، عسى أن تلحق بهذه المنزلة.

منزلة التجلي الصمداني الوتري وما يتضمنه من الحضرات الإلهية والتجليات والأسرار والمقامات والأنوار ومقامات الأبرار وغير ذلك

اعلم أيها المسترشد الموفَّق، والسالك المتخلّق، أنَّ هذا التجلي الصمداني الوتري المجهول العين، المستور ببرد الصون، هو نتيجة عمر المحقّقين من أهل طريق اللّه ألا تراه؟ هو المقام الأنبه وقليل من ناله، ولهذا ما تجد أحداً من المحققين فعله ولا قاله، فإن الطريق إليه عسير والمشهد كبير، وهو من أعلى الأسرار وأسناها، ومورده أعذب الموارد الإلهية وأحلاها، وكشفه أوضح الكشوفات القدّسية وأجلاها.

فمن أراد من المحققين الصدِّيقين نيله، فليصم نهاره، وليحيَ بالذِّكر ليله وخلوته، عشرين صباحاً بمسائها، على ترتيب الحكمة في إجرائها، فإذا كان بعد العشرين، فارتقب الوارد الأقدس، ونفس الرحمن الأنفس، إلى أن تنقضي ثلاثون يوماً، ولا تكحّل مقلتك فيها نوماً، فإن ادَّعيت أنه لم يحصل في روعك نفثه، ولا أقام الحقّ بفؤادك بعثه، فاعلم أن الآفة طرأت عليك في المراقبة، فارجع على نفسك بالمعاتبة، فاستقبل الخلوة من أول حالها، فإنه لا بدَّ من حصولها، إما جزئياً وإما كلياً، فإن تمَّم لك التجلِّي والمقام، فستبدو لك جميع معاينته على التمام. وأنا أنبِّهك إن شاء اللّه تعالى في هذا الكتاب على جميع ما يحويه، فإن نقص لك منه شيء، فارغب سيحاً إليه عسى تسق فيه.

فاعلم أن لهذا التجلِّي الصمداني الوتري، ثلاثة وثمانين مقاماً وثلث

مقام، فأما قولي ثلث مقام، أي لأنه لا يناله منه إلاَّ هذا القدر، وله من المنازل ألف منزل، وله من الحضرات أربعة آلاف حضرة، ومن التجليات ثلاثمائة ألف تجلي وستون ألفاً، النوريات منها ألف وثمانون ألفاً، والضيائيات مثل ذلك، وله من اللمحات تسعة آلاف لمحة وستمائة ألف لمحة، وأربعون ألف لمحة والضيائيات مثل ذلك، وله من الدرجات العليا والزلفا ألف ألف درجة، وتسعة وثمانون ألف ألف درجة، ومائتا ألف درجة، والنوريات منها مائة ألف ألف درجة، وأربعة وأربعون ألف ألف زلفة، وستمائة ألف حقيقة، النوريات منها ألف ألف ألف حقيقة، ومائتا ألف ألف حقيقة، وستمائة ألف زلفة، والضيائيات مثل ذلك، وله من الأسرار خمسمائة ألف ألف سر، وتسعة وثمانون ألف ألف سر، ومائتا ألف سر، والضيائيات مثل ذلك، وله من اللطائف ألف ألف لطيفة، ومائتا ألف ألف لطيفة، وستة وتسعون ألف ألف لطيفة، وثمانية آلاف ألف لطيفة، النوريات منها خمسمائة ألف ألف لطيفة، وثمانمائة وتسعون ألف لطيفة، والضيائيات مثل ذلك، وله من الحقائق ألف ألف ألف حقيقة، وثلاثمائة ألف ألف حقيقة، وتسعون ألف ألف حقيقة، النوريات منها خمسمائة ألف ألف حقيقة، وستة وتسعون ألف ألف حقيقة، وثمانمائة ألف حقيقة، فالضيائيات مثل ذلك.

ثم في كل فصل من هذه الفصول، لكل فصل سرٌّ وحقيقة، أو لطيفة أو حضرة أو منزل، أو تجلّي دقائق ورقائق، على عدد ما يحويه الفصل من الأسرار واللطائف أو ما كان، فتحقَّق أيها الطالب وتخلّق عسى أنك تلحق، واستمسك بالعروة الوثقى، التي لا انفصام لها، يؤيّدك في سلوكك، ويجمع لك ما بين ملكك ومليكك آمين. وعلى الله قصد السبيل.

منزل التنزل الذاتي

اعلم يا بني، أنه من أراد أن يكون قلبه بيت الحق جلَّ جلاله وعلا، كما أخبر سبحانه على التنزيه ونفى التشبيه، فليعمد إليه، ويميط عنه كل أذى، من كبر وعجب، وما ذكرناه من الأوصاف، المذمومة شرعاً وعادة،

فإذا أماط عنه هذه الأوصاف، غسله بماء الإخلاص والمراقبة، وفرشه بالذلّ والافتقار، وأسرج فيه سرج الأخلاق الإلهية السماوية، حتى غمسه النور وأشرقت زواياه، وأقام على بابه بوابين: التوحيد والأدب ينتظرون نزول الرحمن كما وعد، بقلب من هذه صفته، فنفذ الأمر المطاع لحضرة القلب.

عند ذلك أن لا يبقى أمير إلاً ويبرز في صدر قومه، بحلته وتاجه مقلّداً سيفه بهاء للملكة، وتعظيماً لورود الملك الحق وتجليه، فأخذ أجناد الخواطر مصافهم، بالتحميد والتقديس والتمجيد، فتقدَّم الأمير البَصَري في صدر قومه، وقعد على مرتبته، وقد تقلَّد سيف الاعتبار، وعليه حلَّة الحياء وتاج المراقبة، وتقدَّم الأمير السمعي في مرتبته، وقد تقلَّد سيف المبادرة للإذن العالي، وعليه حلة الحضور وتاج المحافظة، وتقدّم الأمير المذكور للرايح في صدر قومه، وقعد على مرتبته وقد تَقَلَّدَ سيف الخضوع، وعليه حلَّة الذلّ وتاج الخشوع، وتقدم الأمير الذائق صدر قومه، وتقلّد سيف الصدق وعليه حلَّة التلاوة وتاج الذّكر، وتقدم الأمير اللامس في صدر قومه، وقد تقلّد سيف العفاف، وعليه حلَّة الكفاف وتاج القناعة والزهد.

فلما أخذ أمراء الحسّ مراتبهم واعتدلوا، ورجع الأمراء الروحانيون من ترتيبهم إياهم إلى مراتبهم، فتقدَّم الروح الحيواني في صدر قومه، متقلّداً سيف الاستقامة والإحضار، وتاج التنزُّل والإنطاق، وتقدّم الروح الخيالي في صدر قومه، متقلّداً سيف الأمانة، وعليه حلَّة الاحتراس وتاج الانتظار، وتقدّم الروح العقلي في صدر قومه، متقلّداً سيف الوجوب، وعليه حلة الجواز وتاج الإحالة، وتقدَّم الروح الفكري في صدر قومه، متقلّداً سيف النقد، وعليه حلة التمييز وتاج الترجيح، وتقدَّم الروح القدسي في صدر قومه، وعليه حلة الولاية وتاج النبوُّة، متقلّداً سيف الرسالة على كرسي التّنزيه بيده قضيب الأدب.

فلما أخذ الأمراء الروحانيون أيضاً مراتبهم، صعد الكلم الطيب على براق الصلح، ليرفعه إلى المستوى الأعلى. فلما وصل نزل على متنه وخرسا جداً عند باب الحضرة الإلهية، فخرج إليه السرّ، ففتح له الباب ودخل،

وبايع وحمد، فقال له الحق: فيمَ جئت؟ فقال: إن قلب فلان الذي أمرت الملائكة الكرام البررة بتطهيره، فقد طُهِّر بما نفذ به الأمر المطاع، على لسان الرسول الكريم محمد رسول اللّه ﷺ. وقد تقدَّس المحل الزكي بالعبودية الاختصاصية.

وأخذ العبيد المدبِّرون عمومهم ملكه مراتبهم، مسبِّحين وممجِّدين، لا يخافون لومة لائم، قد غمرتهم المنن الإلهية والنعم القدسية، فإذا النداء أنزل وأرجع إلى ذلك المحل الطاهر، مبشراً بنزولي إليه، واحمل معك هدية الاحترام والاحتشام.

فجاء ربك في ظلل من الغمام، والملك صفا صفا، والنبيُّون فوجاً فوجاً، بأيديهم أطباق الأسرار، وموائد العلوم فيها صحن الأنوار، فأنزلها في ذلك المحل الشريف المقدَّس، وقد تجلَّى الحق في سماء ليس كمثله شيء، وبسط يديّ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، واستدعى أمراء الخليفة المذكورين واحداً فواحداً، يتناولون من تلك الموائد على قدر مراتبهم وما تعطيه حقائقهم، فلما طعموا، تناولوا كؤوس المحبة، فلما شربوا، أفرغ عليهم جلَّ وعلا حلل البهاء الافتقاري، ثم أمر برفع حُجب البُعد فتجلَّى الرب، وفنى العبيد فخرُّوا سجَّداً.

فناداهم: أوليائي ارفعوا رؤوسكم هذا منزل تنعيم، عبادي أنعموا بمشاهدتي، عبادي وهبتكم الصفات فقدستموها، وحمَّلتكم أمانتي فأديتموها، ونصبت لكم الصراط فلم تعرجوا عنه، وحدَّدت لكم الحدود فلم تتعدُّوها. فقالوا: ربنا بك قدَّسنا وبك حملنا وأدينا، وبك نهجنا، وبك وُفِّقنا ولولا تأييدك وعنايتك ما كنا. فيقول: عبادي سقيتم شراب اللذة بالمعاملات، فأنتم تسبِّحون الليل والنهار لا تفترون، هذه بشراي لكم في الدنيا، كما أخبرتكم في كتابي العزيز: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يونس: 64].

فانظر يا بني وفقك اللّه، ما أشرف هذا المقام وما أوصلك إليه إلاَّ اتباع محمد ﷺ، فإنَّ اللّه تعالى ما ضمن البشرى إلاَّ لمن وصفهم بقوله:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ [يونس: 63، 64] وقال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر: 17، 18] فماذا أصف لك أَوَيُوصف!؟ أو تجد ما يهبه اللَّه لك من الأسرار في هذا التنزيل، جلَّ عن الإحصاء والإحاطة وقلت:

كان لي قلب فلما أن رحل | بقي الجسم محلاً للعلل
كان بدرا طالعاً إذا أتى | مغرب التوحيد في تم أفل
زاده شوقاً إلى محبوبه | صاحب الصعقة في يوم الجبل
لم يزل يشكو الجوامع النوى | ليلة الإسراء حتى اتصل
فدنا من حضرة من لم يزل | يهب الأرواح أسرار الأزل
قرع الباب فلما أن دنا | قيل من أنت تكن قال الخجل
قيل أهلاً سعة ومرحباً | فتح الباب فلما أن دخل
خرَّ في حضرته له ساجداً | وانمحا رسم البقاء وانسحل
وشكا العهد فجاءه الندا | يا حبيبي زال ذا وقت العمل
رأسك ارفع إن هذا حضرتي | وأنا الحق فلا تبغي بدل
رأسك أرفع ثم سل ما تبتغي | قلت مولاي حلول للأجل
طال سجني قال مت بي واعلمن | إن في السجن لبليغ الأمل
يا فؤادي إن توصلتَ له | قل له قول حبيب قد أدل
لولا عرشي لم يصح الاستوا | وبنوري صحَّ لي ضرب المثل

منزل كيفية السماع من الحق

وهو من مقامات السالكين، وهو منزل عظيم المنفعة، وهو من منازل القلب، وله تعلُّق بحضرة السمع ولكن هذا موضعه، وهو مزلة قدم لمن لا تحصيل له ولا شيخ يرشده، وكثير من أهل زماننا زلَّت به قدم الغرور، في مهواةٍ من التلف عند دخولهم في هذا المقام.

وتبيّينه أن في هذا الطريق الشريف مقاماً، يخرج فيه المريد، على أن يسمع من الحق، ولا يرى أن أحداً في الوجود يخاطبه غير اللَّه تعالى، فهو ممتثل لكل ما يؤمر به. وممن تحقَّق في هذا المقام خير النساج، حين خرج

بهذا الخاطر، لنيل هذا المقام وتحصيله، فابتلي من حينه، بأن لقيه إنسان فقال له: أنت عبدي واسمك خير، فسمع ذلك من الحق، واستعمله الرجل في النسج أعواماً، ثم بعد ذلك قال له: ما أنت عبدي ولا اسمك خير. وأنا إن شاء اللّٰه أبيّن لك كيفية التحقيق في هذا المقام، حتى لا تزلّ فيه قدمك بمنِّ اللّٰه عزَّ وجلَّ.

فاعلم يا بني، أن هذا المقام إذا وفقك اللّٰه لتحصيله، فإن كنت معك فقد كفاك اللّٰه مكره، وإن لم أكن معك، فقد يسرَّ اللّٰه على لساني تخليصك من مكر هذا المنزل. وذلك أن الإنسان، يريد أن لا يسمع شيئاً من نفسه أصلاً، ولا مما يقوم في خاطره، لكون ذلك الشيء من هواه، وهو غير متحقّق في الطريق، فيكون أبداً أسيراً لهواه، وإن سعى في خير.

ألا ترى ذا النون كيف قال: كل فعل لا يكون عن أثر فهو هوى للنفس. نعم ولو حملتَ الجبال الراسيات على أكتافك، وإن ارتكبت من الشدائد، ما لم يركبه أحد فلست هناك، لأنك ما تصرفت في هذا كله، إلاّ بإرادتك وعن هوى نفسك، وليس ذلك على النفس بشديد، وإنما الذي يعظم عليها ويعسر جداً، انقيادها لغيرها لكونها جُبلَت على الرياسة وطلب التقدم، فإذا تقدَّم عليها وصارت مرؤوسة تحت قهر غيرها وسلطانه، جارية في أمورها على إرادته، واقفة عند حدودها من أمره ونهيه، صعب عليها ذلك واشتد وإن كان يسيراً.

وهذا المنزل الذي نحن بصدده هو للنفس موت من إرادتها. ومن شروطه دون غيره من المنازل: أن لا يفعله ولا يدخل فيه، من ليس له شيخ، فهو طبيبه لما فيه من العلل القائمة بسلوكه. وقد تحقّق في هذا المقام الشيخان الجليلان: أبو عبد اللّٰه العراك الذي كان بالمرية رحمه اللّٰه، وأبو مدّين الذي كان ببجاية.

واعلم يا بني، أن الدخول في هذا المقام وفي أي مقام كان، إنما ذلك عقد يربطه الإنسان مع اللّٰه عز وجل ويلزمه نفسه، فالزم الوفاء به ولا تنقضه فتكون من الخاسرين، الذين ينقضون عهد اللّٰه من بعد ميثاقه. وحال

الداخلين في هذا المقام على نوعين: منهم من يبتلي فيه، ومنهم من لا يبتلي، فمن لم يبتل فيه فقد عصمه حاله واغتنى به، ويتخيَّل من ذوقه أن حقيقة هذا المقام يعطي ذلك، وأنه لا يبتلي فيه أحد أصلاً، فينكر الابتلاء فيه، وهذا تصوَّر منه ولكنه صادق فإنه صوفي، فلا يدَّعي إلاَّ فيما ذاقه وشاهده فقط، ولا ينطق إلاَّ بحاله، وبهذا يجيبك إن سألته عن إنكاره، فيقال له وجودك صحيح وحكمك عليه بأنه كذلك، ولا بدّ فذوقك خطأ فاجتنبه، وارجع عنه، وقف عند ذلك، واسكت عما خرج عن علمك. وسلّم كما سَلِّم لك.

والذين يبتليهم اللَّه عزَّ وجلَّ على قسمين: منهم من يبتلي اعتناءً وتتميماً وبراً وارتقاءً وزيادة علم، ومنهم من يبتلي ليردَّ إلى أسفل سافلين. وصورة الابتلاء في هذا المقام، أن تتعرض له جارية تأمره بأن يواقعها، أو تأمره بشرب كأسٍ من خمر، أو بقتل إنسان، أو بأمر ما حُرِّم عليه شرعاً، فإن فعل شيئاً من هذا، فقد عصى وغوى، وتردى في أسفل سافلين، وإن أبى عن فعل ذلك، فقد ناقض عهده مع اللَّه تعالى، الذي عقد معه لا يركب محرَّماً، ولا يأتيه فيسلِّم له المقام، ولا يتبعض له حتى يسمع من الحق في شيء، ولا يسمع في شيء آخر، وهذا لا تصطليه المنزلة، بل يسمع منه في كل شيء. فإن للقائل هنا أن يقول: إنما يخرج هذا الطالب ويصدق نيته، على امتثال ما يخاطبه به الحق، ما لم يؤمر في ذلك الخطاب بارتكاب محرَّم فيقال له: ليس كما تقول.

إنما يعقد نيته على السماع من اللَّه مطلقاً من غير تقييد فإن قال: كيف يصح هذا؟ فنقول: أن المريد إذا أراد أن يبقى على عهده في هذا المقام، ولا يرتكب محرماً إن ابتلاه اللَّه به، فيقول للقائل له: اشرب هذا الخمر، أو ازن بهذه الجارية، وإن لم تفعل فقد نكثت عهدك مع اللَّه. فيقول: هيهات بل أنا متحقّق في سماعي من الحق من خارج لا من نفسي، ذلك أن الحق سبحانه وتعالى قد خاطبني وكلَّمني على لسان نبيه محمد ﷺ أن لا أفعل ما ذكرت، وقلت عند سماعي لهذا الخطاب النبوي، سمعت وأطعت وعاهدت اللَّه على

هذا، فأنا ما زلت في سماعي من الحق، متحققاً في مقامي فإنه القائل: وما ينطق عن الهوى.

ولكني لما تحققت بهذا المقام في هذا السماع أو ادَّعيته، أراد الحق أن يبتليني ليقف من ذلك على نفسي بما فيها، فوجدني والحمد للّه قائماً بذلك العهد، الذي كنت قد عاهدته عليه عندما سمعته منه، وهذا الخطاب الذي جاء بشرب هذا الخمر، وفعل ما حرّمت على فعله، إنما سمعته من الحق، ولكن سماع ابتلاء منه، إلى حلٍّ أقف عند حدِّه أم لا، الذي أسمعنيه على لسان المعصوم قال اللّه تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: 31] وقال تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: 7].

فلا أبرح عن هذا المقام، ولا أخرج عن عهدي فيهما معاً، أعني في الخطابين المتناقضين، وجمعت بينهما والحمد للّه، ونظرت خطاب العصمة من أم الكتاب الذي عنده، ونظرت الخطاب الابتلائي من لوح المحو والإثبات، وكيف وقد قال تعالى: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ [ق: 29].

ولما قال لي هذا، علمت أن كل خطاب يخالفه، ما قاله لي على لسان المعصوم، إنما هو خطاب ابتلاء، ولولا ما أتى في مقام السماع من الحق، بقلب الشخص الذي خوطبت على لسانه بهذا المنكر، أنه شيطان في هذه المقالة، لكن حقيقة هذا المقام تمنع من هذا، فقد صحَّ لي والحمد للّه الخطابان السماع من الحق، والوفاء بالعهد. وإنما يسمع الصوفي هذا المقام، ويمتثل ما يسمع، إنما ذلك في الأمور المباحات كلها، فيكون في ذلك خارجاً عن هوى نفسه، بامتثاله بذلك عن أمر غيره مثل: أن يقول له رجل احفر لي بئراً، أو احفظ لي بستاناً، أو خذ هذه الرسالة، وسر بها إلى فلان إلى مدينة كذا، هذا كله مباح له فعله وتركه شرعاً، فيلزمه هذا المقام أن يفعله على هذا الحد، يسمع من الحق فيفعل.

ألا ترى خيراً النسَّاج كيف قال له: أنت عبدي واسمك خير، فاستعمله في النسج أعواماً ثم سرّحه، وكان ذلك مباحاً لخير. فلو أراد الرجل أن

يبيعه، لم يتركه خير لذلك، فإنه كان يقع في محرّم وهو بيع الحر الذي لم يجوز الشرع بيعه، ولكن استعمله ثم أطلقه بعد ذلك.

فهذا فهو التلخيص العلمي، وهو أسنى من الحالي وأكمل، فتحقق هذا فإنه من منازل القلوب العليَّة، إذ لم ترَ فيه غير اللَّه مناجياً. والحمد للَّه رب العالمين.

منزل الهبات والعطايا
منزل الميراث الأنبيائي خاصة

اعلم يا بني، أنّ القلب إذا تخلّص وصفا وارتقى من المنازل ما ذكرناه، ومن التحليات ما تقدم، يوفقه الحق تعالى في غيبة، ويجذبه إليه جذباً كلياً، يوقفه في تلك الغيبة منه مائة ألف موقف، وستمائة وعشرين موقفاً مختلفة، يعطيه في كل موقف من الأسرار ما قدَّره اللَّه تعالى له في شربه. وهذه الأسرار من خزائن الغيرة، فهي مكتتمة عند القوم لا سبيل بأن يبوح بها أصلاً، ولا يعلمها أحد سواهم، وقد أخذ عليهم فيها ميثاق عظيم، ولكنه عندما تحصل له هذه الأسرار، تحصل له كما ذكرت لك، يتحقَّق بها في باطنه، والتحقَّق في الباطن نظير التخلُّق في الظاهر، فعمل الباطن تحقّق، وعمل الظاهر تخلُّق.

والتحقّق تحققان: تحقُّق كشف، يكون عنه التخلُّق، وتحقّق يحصل عن التخلُّق، وذلك التحقّق الثاني إذا حققّته، وجدته ينتج خلقاً آخر للتحقّق، فكل تحقّق مشترك بين تخلّقين، بين تخلّق ينتجه، وبين تخلّق يكون التحقق نتيجة عنه، وهذا هو السلوك، حتى تصل إلى تحقيق ليس وراءه تخلق، فذلك التحقق هو الذاتي.

منزل

إن لكذا سرًّا لو ظهر لبطل كذا، وهذا هو السرُّ الذي لسهل بن عبد اللَّه رحمة اللَّه.

اعلم يا بني، أن القلب إذا تحقّق بالأسرار المكتتمة التي حصلت في

منزل الأنبياء، أدخله اللَّه سبحانه وتعالى من الحضرات الإلهية ستمائة حضرة وستة وعشرين حضرة، إلاّ أبا بكر الصدّيق رضيَ اللَّه عنه، فإنه أدخله اللَّه سبحانه وتعالى في هذا المقام ستمائة حضرة وخمساً وعشرين حضرة، وأما السادسة والعشرون فهي له حضرة العزَّة خاصة، ونحن لنا حضرة العزَّة، وهي لنا السادسة والعشرون، غير أن هذه الحضرة العزّية التي لنا متفاضلة بيننا.

وما فاز بها على الكمال إلاّ الصدّيق الأكبر رضوان اللَّه عليه، وليس له سابعة وعشرون كما ليس لنا، وعدمها كمال في حقه رضيَ اللَّه عنه، ووجودها كمال في حقنا، كما أن النبي ﷺ له في هذه الحضرة ستمائة حضرة وأربع وعشرون حضرة، ينقص عن الصديق بدرجة وهو الكمال في حقه، والخامسة والعشرون له حضرة القرب الكلّي، وغيره من الأنبياء ليس مثله في هذا المقام، أعطاه اللَّه تعالى في كل حضرة سراً، لا يجده في حضرة أخرى، بعضها أرفع من بعض على التفاضل الذي بين الحضرات.

غير أن شرط هذه الأسرار المتقدّمة، إن شاء باح بها لأهله أو شاء ستر، والشرط الثاني يكتم ولا بدّ كالأسرار الأنبيائية، ولا سبيل إلى إظهارها البتة، فإنها إن ظهرت لم تحتملها العقول، فالظاهري المحقق يكفر بها، والذي فيه رخصة في دينه، يضلُّ بها إن سمعها لقصوره عن إدراكها، وقلة فهمه في تأويلها، وهي حق في نفسها والعقل يجوزها.

وما بقي الوقوف إلاّ في دعوى المدّعي، حتى لو أثبتها رسول اللَّه ﷺ لتلقيناها بالقبول، وذلك لثبوت عصمته عندنا، فلو ثبتت ولاية هذا المدّعي لها عند السامعين لها منه لصدقوه، لكونه ولياً من أولياء اللَّه تعالى فلنحسن الظن نحن به، ونتخيّل فيه الولاية، ونخرج أسراره ومراميه على أشدّ الوجوه.

وهذا كله مما أعطتنا حالته الإستقامة كالأسرار التي صدرت عن رابعة العدوية، والجنيد، وأبي يزيد في زماننا، كأبي العباس ابن العريف، وأبي مديّن، وأبي عبد اللَّه الغزالي، رضوان اللَّه عليهم أجمعين. وأما إن كان

الناطق بها غير محتَرم للشرع، ضعفنا قفاه، وضربنا وجهه بدعواه. عصمنا اللَّه من الآفات وفضلنا بالعلم.

اعلم يا بني، أن العبد المحقق الصوفي إذا صفا وتحقق، صار كعبة لجميع الأسرار الإلهية، يحجُ إليه من كل حضرة وموقف، ويردُ عليه في كل يوم جمعة، ما دام في ذلك المقام ستمائة ألف سرٍ ملكوتي، واحد منها إلهي، وخمسة أسرار ربانية، ليس لها في حضرة الكون مدخل، وما بقي فأسرار الكون، ولكنها متعلقة بهذه الأسرار. فأول ما يُردُ عليه من السرّ الإلهي الخمسة، ثم ما بقي فوجاً فوجاً. هكذا في كل جمعة فافهم. ما رمزناه لك وحلَّ قفلةَ تسعد.

منزل الأيام المقدرة

اعلم يا بني، أن لكل يوم نبياً من الأنبياء، ينزل بقلب المشاهد المحقّق منه سرٌ يلتذّ به في أيامه، يعلم بذلك أمراً ما من الأمور، والتي يجب معرفتها، ولا تحصل إلاً لأصحاب القلوب.

فيوم الأحد يُوجَّه له إدريس عليه السلام فيه سراً، فيكتشف به على علم علل الأشياء قبل وجود معلولاتها. ويوم الإثنين يُوجَّه له فيه آدم عليه السلام سراً، يعلّم به ما السبب الذي لأجله تنقص المقامات، وتزيد في حق المقامات وتزيد في حق السالكين، ويعلّم به نزول الحق كشفاً. ويوم الثلاثاء يُوجه فيه هارون عليه السلام، أو يحيي عليه السلام سرًا، يعلّم به ما يضر وما ينفع من الموارد الطارئة عليه من عالم الغيب.

ويوم الأربعاء يُوجَّه له فيه عيسى عليه السلام سرًا، يعلّم به تتميم المقامات وكيفية الختم ومن يكون. ويوم الخميس يُوجَّه له فيه موسى عليه السلام سرًا، يعلّم به المؤاخاة الدينية وأسرار المناجاة. ويوم الجمعة يُوجَّه له فيه يوسف عليه السلام سرًا، يعلّم به أسرار الترقّي في المقامات والحكم وأين يوضع. ويوم السبت يُوجَّه له فيه إبراهيم عليه السلام سرًا، يعلّم به مداراة الأعداء كيف تكون، وفي أي وقت تجب محارباتهم، وهذه حضرة الأبدال. فافهم ترشد بما عندك، وتأمَّل هذه المقامات والإشارات تسعد.

وقد يوجهون له غير هذه الأسرار، فاقتصرنا على هذه دون غيرها، إذ هي الأول التي تردّ عليه.

منزل الشهور المقدرة

اعلم يا بني، أن للقلب منازل عن الحق، لا ينزلها القلب إلاً في وقت ما، إما من جهة الزمان، وإما من جهة معناه. فإن كان من جهة معناه، حصل له ذلك في أيام يسيرة، فإذا وافقت المعاني الأزمان، فتحصل بمرورها شيء بعد شيء، حتى ينقضي العام وقد يزيد على العام ويكون في أعوام، على حسب مجاهدته، وطاقته وصفائه في جبلته.

فاعلم أن المحرّم هو للسنة محل الابتداء في معناه، محرَّم على المريد ما كان فيه من الاعتداء. وفي صفر يخلي أرضه من عشب المألوفات، وشجر المخالفات ويقلبها بالمجاهدات. وفي ربيع الأول ينبت في أرضه ربيع المعاملات. وفي ربيع الثاني ينبت فيه ربيع الملاحظات، وهي أول مبادي التجلّي، ويعبّر عنها أصحابنا بالذوق.

ثم في جمادى الأولى يكون جموده على ما يرد عليه من الأسرار. وفي الثاني جموده على ما يرد عليه من الأنوار. وفي رجب تعظيم الواردات من حيث الواهب لا من حيث ذاتها، وهو مقام الفردانية فلا يكون له فيه غير الحجة يحجبه، فيلزمه أن يطرده أو يقاتله. وفي شعبان تتشعب تلك الواردات في البرازخ لتعلم مقاماتها وأهلها، فهو موضع التفضيل. وفي رمضان خرق العادات، لثبوت الآيات إما للنبوة أو للولاية على حسب مقامه في زمانه، وأما في زماننا اليوم، فلثبوت الولاية خاصة إذ الرسالة والنبوة قد انقطعت. وفي شوَّال رفع الحجب له عند الوصول إلى أسرار العالم، فيعرف كيف يهديهم ويدعوهم إلى اللَّه. وفي ذي القعدة قعوده للإرشاد والهداية. وفي ذي الحجة حجه بهم من الأفعال إلى الصفات، ومن الصفات إلى الذات، بما يجب من التخلُّق والتحقّق وهناك تبلغ الغايات، وتتجدد المشاهدات والغايات، وتجتمع الهمم والإرادات من هنالك ابتدأ نشأة أخرى في الحضرات الإلهية واللَّه الموفق.

منزل قلب الذاكر
وما يختصُّ به من الأسرار

اعلم يا بني، ذكَّرك اللَّه فيمن عنده فذكرته، أن القلب إذا تعمَّر بالإخلاص والتسليم لأمر اللَّه تعالى، والنظر في مجاري أحكام اللَّه تعالى، والتفويض له سبحانه في كل حالة ترد منه عليه، فهو عند ذلك طاهر ذاكر، وإن كان بلسانه صامتاً، لا بأن يقول اللَّه اللَّه فقط، نعم لا بدَّ من ذكر اللسان على حسب أنواع الذِّكر، في أول بداية الدخول إلى نيل هذا المقام، فمنهم من يدخله بذكر سهل بن عبد اللَّه التستري وهو: اللَّه معي، اللَّه ناظر إِلَيَّ شاهد علي.

وفائدة هذا الذكر أن من كان اللَّه معه وناظر إليه، وشاهد عليه كيف يعصيه، ومن يدخل باسم الذات خاصة على مذهب الإمام أبي حامد وجماعة من الشيوخ، ولقيتهم على ذلك وأمروني به، فلا يزال على هذه الحالة في بدء مقامات الذّكر، حتى يتعمّر الباطن كله، ولا يبقى فيه جوهر فرد، إلاَّ ينطق بذلك الذكر بعينه، حتى يغلب عليه حال الذكر، فلا يبصر في الوجود شيئاً يقع عليه نظره، إلاَّ معلناً بما هو عليه من الذكر، ولو كان في ذلك الوقت ألف شخص بألف ذكر مختلف، وغلب عليه الحال لا يبصر كل واحد من العالم ناطقاً، إلاَّ بذلك الذِّكر الذي هو عليه، مقامات ذلك السفر حتى ينتهي إلى المقام السابع وهو نهاية الذِّكر له، ليس وراء ذلك مرمى أصلاً.

فاعلم أن للَّه تعالى أسراراً مخزونة عنده، بأيدي سَفَرة كرام بَرَرة يسمون الشهداء، فإذا حصل للعبد ترقٍ في هذا المقام السابع الذي ذكرناه من الذكر، وجَّه إليه الحق سبحانه وتعالى تحفةً منه سبعين ألف سرّ ما بين ظاهرة وباطنة، في كل يوم، لكن بواسطة تلك الملائكة، شهداء اللَّه على قلب العبد، فعندما يمرّون على قلبه، يسمع حينئذٍ تسبيح الملأ الأعلى في نفسه، يدخل الشطر من هؤلاء الملائكة على باب عالم الملكوت بأسرار الظاهر، ويمرّون على ساحة القلب حتى يخرجوا على باب عالم الشهادة، ويدخل الشطر الآخر على باب عالم الشهادة بأسرار الباطن، ويخرج على باب عالم

الملكوت، ثم لا يعودون أبداً، بل يأتي اللّه تعالى بشهود أُخر، بأسرار أُخر، على ذلك المهيع ليري اللّه تعالى هذا القلب من آياته، وعظيم ملكوته، ما يزيد به تعظيماً، وفي نفسه معرفة.

فإن ركن إليهم هذا القلب وتأنّس بهم، واتخذهم جلساء بقوا معه وبقي معهم، وهم الشهود عليه بالوقوف معهم، إن طمع في نيل مقام أعلى من ذلك فيقال له: لمَ لا ترتفع همّتك إلى ذلك، وقد تحقّقت أن بالهمم الوصول، ولكنك حجبك التنزُّه في عالم الملكوت، فإن أنكر، ولا بدَّ أن ينكر، شهدت عليه تلك الملائكة النازلة له بتلك الأسرار، وكذلك تشهد عليه أسراره بتعشّقه لها وفنائه فيها، فشهادة الملائكة خزنة الأسرار نطقية، وشهادة الأسرار حالية، فهو مقهور بالحجّة، وللّه الحجة البالغة على كل أحد. فتأمل هذا الفصل يا مسكين.

واعلم أين نظر قلبك من هذه القلوب، وأين مشهدك من هذه المشاهد، ومشربك من هذه المشارب، لقد أحياها وأحيا بها، جعلنا اللّه وإياكم ممن طاب مورده وتعالى مشهد.

منزل الفاني عن الذكر بالمذكور

اعلم يا بني جردك اللّه من كل كون، وتكنَّفك بجناح الغيرة والصون، أنّ القلب الذي تمرُّ عليه هذه الأسرار أسرار الشهداء، ويعاين من الملكوتين هذا القدر العظيم إذا عاينها، مسخَّرة تحت قهر مسخرها كنفسه، فلا يعرّج لها من جهة الوقوف معها، ولكن يجعلها كالمعونة لما ألهمه متعلقة به، مرتقية إليه، فإذا استمر عليه هذا وطلبته الملائكة معها، فلم تجده إلاّ مشغولاً بأعلى من ذلك، وعرف الحق صدق ذلك الطالب، والتوجُّه اختطفه على كل كون خارج عنه، ثم أوقفه مع أكوانه فذلك حظه، ويكون برزخي الموقف، فإن لم يقف ونظرها كما نظر الآخرين، اختطف عن أكوان نفسه، وعن ملاحظة كل كون أصلاً، وهذا المقام الذي أشار إليه صاحب المواقف، وقال

لي كل جزءٍ من الكون حجاب، فإذا حصل القلب واختلف بالكليّة، وفنى بالمذكور عن الذكر، ارتاحت الأسرار لطلبه، واشتاق الملأ الأعلى لتسبيحه، فضرب بينه وبينهم سبعون ألف حجاب إلهية، يقف دونها المشتاقون إليه، فإن وقف هنا كان هذا مقامه، لا يبرح منه.

منزل الفاني
عن المذكور بالمذكور

فإن فنى عن المذكور بالمذكور، ضرب بينه وبين صاحب المقام الأول سبعمائة ألف حجاب. وأما ما يحصل له من هذه المقامات، فلا يمكن أن يوصف ولا يحدّ، إذ ليس ثمَّة ما يشبهه، ولا ما يقاس منزل الفاني عن المذكور للمذكور، لا بالمذكور وهو أعلى الفناء وهنا المنتهى وليس وراء هذا مرمى ليرام، ولكن يقع فيه التفاضل بين الرسل في عظمهم، والأنبياء في نمطهم، والأولياء في نمطهم، وكل له شرب معلوم، ينال الأعلى ما نال الأدنى وزيادة، وهكذا في كل منزل، تقدّم له فيه الحظ الأوفر صلّى اللّه عليهم أجمعين.

فإذا حصل في هذا المقام القلب الطاهر الفاني، عن الأول والآخر ضرب الحق بينه وبين أهل المقام الثاني سبعة آلاف ألف حجاب، وهذه الحُجب منها نيِّر وغير نيِّر، فالنيِّرات من هذه الحُجب الأنوار، وغير النيِّر حُجب الأسرار، بخلاف الحجب النازلة عن هذه المقامات، فالنيِّر منها حجاب ملكوته الخاص به، وغير النيِّر حجب الأغيار لا الأسرار فهذا هو الفرق بينهما.

وهذه الأسرار سترها أهل طريقتنا، ونسترها كما ستروها، وإنما ذكرت هذا القدر منها تنبيهاً للقلب المتعطش، أن يعرف أن ثمَّ مطلوبات غاب عنها، فعندما يقف عليه تحمله الهمّة على طلبها، فيأخذ في الراحة إليها، فربما يصل إليها إن شاء اللّه تعالى، فنجده في ميزاني يوم القيامة، إذ كنت المرشد له لنيل هذه المقامات، فنبَّهت عليه بهذا القدر وسترت

حقائقها، وما طوى كل مقام منها، وسر كما فعلت مشايخنا رضيَ اللّه عنهم تأسّياً بهم، ولو لم يكن على طريق التأسّي، فإن المقام يعطي ذلك بنفسه. والحمد للّه رب العالمين.

اعلم يا بني وفّقك اللّه، يكفيك من القلب هذا القدر، فاسعَ في أزالة ما نصصته لك على ما حدَّه لك الشرع، والاتصاف بتلك الأوصاف المحمودة حتى يحصل هذا المقام، وأضربنا لك الكلام عن الأسرار حجب القلب من الغبن، والران، والعمى، والصدأ والكن، والقفل وغير ذلك. ومراتبها وأسباب الزفرات والوجبات وغير ذلك. وهذه كلها إذا أردت أن تقف عليها، فطالع كتابنا الموسوم بمنهاج الإرتقاء أو عقلة المستوفد.

واللّه يحملنا وإياك على منهج الإستقامة فإنها أكبر الكرامة، والحمد للّه الذي أذهب عنا الحزن، وأعقبنا بعد السهاد لذيذ الوسن، ولم يحجبنا عن آياته الطيبة المحتد بخضر الدِّمَن، أنه الجواد المنعم ذو الآلاء والمنن، وصلّى اللّه على سيِّدنا محمد من أرشد إليها في السر والعلن، والحمد للّه وحده في كل أوان وزمن.

المطلع الثالث الخلقي

الفلك الثامن الإيماني هلال محاق طلع بنفس الإمام المدبِّر في عالم الملكوت والجبروت، فهنا ليت شعري هل سمع السيد الفاضل الحكيم القائل إذ قال:

نحن حزب اللّه من يلحقنا ... جدنا جد وجد هزلنا
أشهد الأسرار من أحبابه ... من يشاء ولها أشهدنا
فمتى أدرككم فينا عمى ... سائلوا عنا الذي يعرفنا
ذلكم اللّه عظيم جده ... يمنح الأسرار من شاء بنا
طالما كنا رجالاً هتفت ... بهم الورق بدوحات منا
فرمينا جمرة الكون بها ... فرمينا بمريسات القنا
وازدلفنا زلفة الجمع فهل ... أسمع القوم مناجاة المنا

يا عبادي هل ترون ما أرى ... يا عبادي هل بنا أنتم بنا
خرس القوم وقالوا ربنا ... أنت مولانا ونحن القرنا
يا عباد اللّه سمعاً إنني ... روح مولاكم أمين الأمنا
أنا ماحي الكون من أسراركم ... أنا سرّ الكنز ما الكنز أنا
أنا جبريل وهذي حكمتي ... فاقرؤها تكشفوا ما كمنا
جئت بالتوحيد كي أرشدكم ... فاقتلوا أنفسكم من أجلنا
وخذوا عني فيكمُ عجباً ... تجدوا السرَّ لديه علناً
ميِّزوا الأحوال في أنفسكم ... لا تكونوا كدعي فتنا
إن صحو العبد سكر إن بدا ... عالم الأمر له فافتتنا
مثل المحو دعوه إن بدت ... في محيَّاه علامات الونى
قل إلى المثبت في أحواله ... طبت بالحق فكنت المأمنا
ليست الهيبة خوفاً إنها ... أدب يعرفه العذب الجنا
حالها الإطراف من غير البكا ... ووجود الجهد من غير عنا
وحليق الإنس طلق وجهه ... إن تدلَّى لحبيب ودنا
يرشد الخلق ويبدي رسمه ... شاكراً فاستمعوا إن أذنا
صاحب الفيض غريب مفرد ... أن رأى البسط لديه الحزنا
وخليل البسط يخفي عزه ... غير باريه ويبدي المنا
لا يراه الدهر إلاَّ ضاحكاً ... يبصر الحسن به قد قرنا
صاحب الهمَّة في إسرائه ... سائر قد ذبَّ عنه الوسنا
صاحب التوحيد أعمى أخرس ... لا أنا قال ولا أيضاً أنا
يا عبيد النفس ما هذا العمى ... لم تزالوا تعبدون الوثنا
سقتم الظاهر من أحوالكم ... مالنا منكم سوى ما بطنا
فاقبسوا العالم من أعمالكم ... علم فتح واشربوه لبنا
واخرجوا بالموت عن أنفسكم ... تبصروا الحق بكم مقترناً
وانظروا ما لاح في غيركم ... تجدوه فيكم قد ضمنا

حقيقة تقييد ظهرت عن مطلق الوجود، فردَّته الذات متَّحدة الصفات هي ظلَّه الممدود، ومقامه المحمود، ولواؤه السعيد، هي كن ركن الكائنات،

وعنها صدرت الموجودات، فهي لم تزل منوَّرة الجهات من غير الجهات، معتدلة الالتفات من غير التفات، حتى قابلها الحكيم بذاته، عندما تعلَّقت إرادته بإيجاد كائناته، فأتاها من جهة الظهر، فامتد لها ظلّ كالنهر، فكان ذلك الظلّ لها حقيقة لطيفة المثال محكمة الاعتدال، ارتقم فيه وجودها على التشبيه، كارتقام المطلق فيه على التنزيه، فهي المثل العربي وظلها المثل العقلي.

فكان هيولي كل كائن متصل وبائن، تكوَّن منه عالم الدنيا والآخرة على حكم ائتلاف الطبائع المتنافرة، فمنهم من قابلها بلطافته، ومنهم من غاب عنها بكثافته، فهمّ في الوصول إليها فرَّق، وكل إلى لهيب حرَّها مستبق، فاتر ولا أين يتهور، حيث انتهوا وكيف وكل كافر بشيئه محترق، وكان الظلُّ عنها ليلاً غارباً، وكان انبساط نورها نهاراً متعاقباً، وهي شمس بينهما تدور، دون ورود ولا صدور، فلما لها من نفس وجودها الرياسة، قذف الحق في ذاتها نور التدبير والسياسة، فوجهت رسول التكليف، إلى اللطيف والكثيف، كل يعمل على شاكلته وسبح كل بدر في دارّةِ هالته، وطلعت نجوم الأعمال، في سماء الاعتدال، وتوجَّه الشهاب على الظلال ينفرها وتوجَّه الكواكب على الأنوار يطوّرها، وكل واحد لا يعرف سوى نفسه مدبراً، وناهياً في المملكة وآمراً، ولما تعاقبت الغدو والآصال، وقد طال كل واحد منهما بحقيقة وصال، جعلت بداية كل واحد منهما نهاية، صاحبه فأعرض ونأى بجانبه.

فقال الكوكب ما هذا المحاس وما هذه الحواس، وقال الشهاب ما هذا المقياس وما هذا النبراس، فاختصما دهراً طويلاً، وما وجدا إلى الانفصال سبيلاً، فارتفعا إلى شمس الوجود إلى حضرة التوحيد، وشكا كل واحد منهما ضيق الطعن فقالت ما منكما عاقل فطن، هلاً أنس كل واحد منكما لسائر العبر بصاحبه طبعاً، ونظر بما خفضنا يقوم بالقسط ورفعاً، وعلمتما أن كل واحد منكما أصل في سعادة أخيه، وأن حكمة هذا الوجود فيكما فتنظران فيه.

أليس أحدكما أنثى والآخر ذكر وأنتما أصل لسرائر الصبر، فتناكحا

بحضرة المثال وكان الولي الكبير المتعال، والسامعان الجلال والجمال وانصرفا إلى الملك بالإنزال، وادعيا كمال الاسترسال، وقال الواحد أنا سلطان الأيام، وقال الآخر أنا سلطان الليالي فرماهما الكبرياء بسهام الآجال، وأذاقهما طعم الهجران بعد الوصال، فانعدما انعدام الإقبال، حتى بقي له الانفصال فردى الكمال أو حدى الجمال.

ثم بعد حين، ترامت شمس الحقيقة في بساط التمكين، وشفعت فيهما شفاعة مطاع عند ذي العرش مكين، فردا إلى وجودهما بعد المحو، وأذيقا بعد السكر حلاوة الصحو، واستوى شهاب الأشباح على عرشه الكريم معترفاً للكوكب بالفضل، واستوى كوكب الأرواح على عرشه المجيد معترفاً للشهاب بالبذل، فصحَّ منهما الافتقار وعليه كان المدار، وجعل قوت كل واحد منهما، على يدي صاحبه ما تزاحمت الأعمار فيهما، يتناجيان بالرحمة ويصطحبان بالحرمة، واستوثقت المملكة لهما إلى يوم الجمع، وهنالك يبقى العطاء وينعدم المنع، لارتفاع التكليف وتكون المادة على السواء في حضرة الإستواء:

صحتُ بالكوكب المنير عشاء	يا نظيراً لنور بدر الصباح
يا حبيبي وهل عليَّ إذا ما	جئتكم عن حقيقة من جناح
أين سر الوصال باللّه قل لي	منكما في الطلاق أو في النكاح
عمل هل يصح فيه إزدواج	بهيامي بالوجوه الملاح
نكح المغرب الصباح فأبدا	رينا عند ذاك نور الصباح
فأنارت أرض الوجود وأبدت	كل شيء مخبأ في البطاح
ثم غابا عن الوجود زماناً	حين حلّت عساكر الاقتراح
وأقاما برؤية المحو حتى	ما أهلّت أهلّة الافتتاح
قيل يا كوكبان هبَّا بخير	كهبوب الجنوب بين الرياح
وأنعما بالصدود دالاً وعلما	واسعيا للصلاة وقت الرواح
ثم لما من الكريم عليهم	باتصال الذوات بعد انتزاح
قلت ليت الإله يشرح صدري	بسرور يُنال بعد تراح

جاءني الكوكب العليُّ رسولاً — من حكيم مهيمن فتَّاح
قال يا سائل الحكيم علوماً — ما على عالم بها من جناح
إن تكن تحنّ استماع خطابي — خذ حباك الإله بالانشراح
فعلى أشباحنا بالروح تبدو — وكذا فعله على الأشباح
حكمة مهد الكريم تراها — وبنى سقفها لأمر مباح
يا أخي قم ترَ حبيبك عينا — فاعلاً في الجسوم والأرواح

المطلع الثالث الإلهي

الفلك التاسع الإحساني هلال ارتقاب، طلع في برج الإمام القطب المدبّر في برزخ الرحموت والرهبوت، فافقر وأغنى، ليت شعري هل سمع الإمام الزكي الحكيم داعي الابن الظاهر عند المشهد الكامل الطاهر وتنزّهي عن كل كون وتنعمي بملاحظة العين، فأنشدت عندما رددت بما شاهدت:

اختلسنا من كرامات الكيان الأبدي — وحبينا بمقامات العيان الأزلي
ورفعنا عن تكاليف الوجود العملي — بمضاهاة استواء فوق عرش فلكي
فرأينا من تعالى بالوجود الخُلقي — في لطيف ملكي وكثيف بشري
وسألناه بأسرار المقام القدسي — نيل ما نلناه منه لبدير الحبشي

وليت شعري، هل بدت لعين الإمام الزكي الطاهر الرضي، حقيقتان متماثلتان وحقيقتان مختلفتان، ما اجتمع كثيفتان حتى اجتمع لطيفتان، حكمة رحمان برزت للعيان، درّة كيان كانت في أذهان، لا يحويها زمان ولا تعاقب هوان، إلاّ بتصور برهان أزلفت جنان، سعرت نيران كرّ جديدان وجدّ ضدّان، أبدع مثلان تناسل فريقان، برزت من عين غيوب امتنان، أبصرت النائي والدان، أمينان.

الضرب الثاني والأوان أنكرت الأوثان، روعت بسنان ستيبان، لجأت إلى الإحسان، أعطيت محن الإيمان، تحصنت بدرع الأمان، ما اجتمع اثنان إلاّ ظهر النكران، وأنزل قرآن أنكره فرقان، لظهر الآن لي والدان، ومنعمات حسان في مقاصير ورد وريحان، ما حجبها هذان سجنت في أبدان، تاهت في بلدان ضمّها عصران، هيمها أحمران تيمها أبيضان، تنعّمت بالمنان يتمها

التضان، تعشقت بالبان نوديت يا إنسان، التحق بخسران قالت غلمان، فاقعدوها ذو حرمان أطبقت أجفان، عن ملاحظة غير أن يتملكها غيران رميا في بحران، قتلت إنسان أشارت بأجفان، طاف بها غزلان فرش لها سريران، نكحها سرُّ الوجود نكاح عجلان، أثقلها فعلان وضعتهما طفلان، في الآن نشأ منهما إنس وجان، انقسما بين طاعة وعصيان، من صاحب البرهان المنسوب إلى عدنان، ظهرت الحكم كلها في الإنسان:

سرُّ سرُّ الوجود فرد بعيد ... عن نظير له بدار أمانِ
هو علم في أول الحال عاد ... وكذا كان في الوجود الثاني
فانظروا في الكتاب سرّ أعلاه ... ثم تنقيضه لنأي المثان
يطلب الرشد والرشاد ثناه ... هو أصل للكائنات الحسان
إن هذا لهو العجاب فمهّد ... عقلك القاصي لانقلاب العيان
لو توالى أصل الوجود على ما ... كان في الأصل ما التقا زوجان
ثم لما شاء الحكيم أموراً ... أيدتها حقائق البرهان
أظهر الضد والنظير جميعاً ... بالعلى والثرى فلا اثنان
فتبدو العلو للسفل سرًّا ... وكذا السفل للعلو الداني
حكمة شاءها الحكيم فأبدت ... كل سرٍّ بواضح البرهان
فاشكر اللّه يا أخي على ما ... أودعته حقيقة الإنسانِ

معقل أنسه

قال الحكيم العاقل أيده اللّه تعالى نكاح بغير صداق سفاح مهمات المتعال، إذا نظر فهات المثقال، أو انظر في الانفعال، قلت يا بيضة الفلك هذه النفس هُيئت لك، أنا عرش مهيأ فاستو أيها الملك، أنت بدر مكمل وأنا درة الفلك، إن أتى النزع من هنا جاء من هنا الملك، عشت في برزخ المُنى كما شئت قيل لك، المال حقيقة الكمال مقامه الانفعال، زكاته الأحوال معدنه الرجال، سلطانه الوصال تهيم في الجمال صال، جعل بدر الريال صاحب الرمال، سترته غزالة الزوال ظهرت الليال، أخذ في الرِّحال بيع بثمن غال، صيغ منه الحجال وتيجان الأقيال.

اختلفت الأشكال بين هلال وبدر كمال، نقيات الظلال حنٌ لها ومال، غصن ميَّال ميس في اعتدال، داخله انسلال رقّ المثال، لطف في الخيال وجه الإرسال، رمتهم بالنبال لاطفها في السؤال، بأدب الأنس والدلال وذات الحجل والدلال، صبٌّ مغتال يشكو المطال، عذاب قد طال ودمع هطَّال، زفرة وخبال لم يسمع له مقال احتيال، لوَّح لها بالمال فرثت له في الحال، اشتملت عليه أي اشتمال قالت له هل يستوي الواجب في المحال، تمكن الاتصال أصدقها ألف مثقال، اصطحب معها وقال كانت له أكرم أهل يقال، حمد اللَّه تعالى على الإفضال، ثم أنشد وقال:

بالمال ينقاد كل صعب	في عالم الأرض والسماءِ
محبة عالم حجاب	لم يعرفوا لذة العطاء
لولا الذي في النفوس منه	لم يجب اللَّه في الدعاء
لا تحسب المال ما تراه	من عسجد مشرق المرائي
بل هو ما كنت يا بني	به غنياً عن السواء
فكن برب العلى غنياً	وعامل الحق بالوفاء
فذاك مال الغني صدقاً	يزيل في الحال كل داءِ

غيره

ستكون خاتمة الكتاب لطيفة	من حضرة التوحيد في علوائها
تجري وصايا العارفين وقطبهم	فهي المثال لسالكي سيسائها
من كل نجم واقع لحقيقة	وأهلّة طلعت بأفق سمائها
وأتى بها عرساً فرائق طي من	هو منزل الملكوت في ظلمائها
ليعرف التحرير قطب وجوده	ويبيِّنه بدراً بنور سنائها
فمن اقتفى أثر الوصية أنه	بالحال واحد عصره في بائها
ويكون عند فطامه من ثديها	وطلابه الترشيح من أمرائها
هذي الطريقة أعلنت بعلاَّتها	فمن السعيد يكون من أبنائها

موقع نجوم الظمآن نية سكران، القلب بالمطلوب عند اتصاله

بالمحبوب، وتقضي لبانات الهمم وملك ما كان الخاطر به متعلقاً في العدم، مطلع هلاله:

قل كيف يسكن قلب لا يحيط به وقد تيقن هذا في تقلبه
من يطمئن إلى تحصيل فائتة فإن ما فاته أعلى لمنتبه

موقع نجم خشية الفؤاد من قلة الزاد، وهول المعاد، بل هو من سوء المعاملة مع طلب المواصلة، بل هو من الدعوى مع التعدِّي من التقوى، مطلع هلاله:

كيف يخشى فؤاد من ليس يخشى غير محبوبه القديم ويرجو
كل قلب قد داخلته حظوظ من كيان العلي فذا القلب ينجو

موقع نجم التوبة قرين الحوبة، علامتها الندم مما جرى به القدم، وتعلق به العلم في القدم، ثم أقلع فرجع عندما سمع ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31] مطلع هلاله:

ما فاز بالتوبة إلاَّ الذي قد تاب منها والورى نومُ
فمن يتب أدرك مطلوبه من توبة الناس ولا يعلمُ

موقع نجم الإنابة خلع متعبد النفس وخروجك عن رق شهواتك، وتجردك عن ملك صفاتك، واستهلاكك في الحق استهلاك محق، من صاحب العشق، مطلع هلاله:

لا ينيب الفؤاد إلاَّ إذا ما كان مستهزئاً بذكر سواهِ
فإذا شاهد العجائب فيه لم يكن ذا إنابة في هواهِ

موقع نجم الأوبة المختلية رسالية المشهد، نالها من ظنَّ كرامته فتنة، والتذَّ بها من شاهد عذابه منّة مطلع هلاله:

إن قلبي إلى الذي آب عنه فهو فرد وما سواه مثنى
كل قلب يا من يراك تعالى فحقيق عليه أن تتجنى
فإذا ما دنا إليك تعزَّى وإذا ما دنوت منه تهنى

موقع نجم التوحيد أصل الأشياء، وإليه يرجع الأمر كله، فكل صاحب

مقام، أو صاحب صفة، أو صاحب نعت، أو صاحب رسم، لا يقف على توحيده في ذلك المعنى القائم به، فهو مخدوع في مقامه، فمنه المبدأ وليس له مبدأ وله في كل صفة ومعنى، بداية، وتوسط، وغاية، فبدايته علمه رسماً، وتوسطه علمه حالاً، وغايته أن يعلم أصلاً، مطلع هلاله:

الـرب حـق والـعـبـد حـق يـا لـيـت شـعـري مـن الـمـكـلـف
إن قـلـتَ عـبـد فـذاك مـيـت أو قـلـتَ رب أنّـى يـكـلـفِ

موقع نجم الأعمال لها درجات ظاهرة وباطنة، فالظاهرة لأصحاب الرسوم وهم: أهل الجنان، والباطنة لأصحاب الهمم وهم: أهل الرحمن، فمن فُتح له من أصحاب الرسوم كانت غايته الهمَّة، ومن فتح له من أصحاب الهمم، كانت غايته اللقاء والإلقاء له ومنه، فصاحب الهمَّة سالك وصاحب الإلقاء مالك، كلا نمدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، والرياء سبب الدعوى، فمن لا دعوى له لا رياء، واللَّه خلقكم وما تعملون مطلع هلاله:

عـمـل الـهـمّـة اعـتـلـى فـوق رسـم الـمـزنـزّه
وكـذا الـرسـم غـايـة لـلـبـرور الـمـدبّـره
غـايـة الـرسـم هـمّـة مـصـطـفـاة مـطـهَّـرة
ولـهـمـا غـايـة عـلـة بـالـوجـوه الـمـنـضَّـره

موقع نجم العبيد إلى الحق في توحيدهم، على حسب حسن ظنونهم، فمن اعتنى به حتى صير ظنّه علماً، فهو الرسول والنبي وبعض الأولياء، ومن ترك مع ظنّه بلغه حيث ظنَّ لقوله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي» مطلع هلاله:

دع الـظـن واعـلـم أن لـلـظـنّ آفـة وقوفك حيث الظنُّ والظنُّ مُتَّهمُ
فشرد وساويس الظنون بلمحة من الكوكب العلمي إن كنت تحترمُ
فـلا ظـنٌّ إلاَّ مـا يـقـال بـقـطـعـه وإلاَّ فـنـار لـلـجـهـالـة تُـضـرمُ

موقع نجم المشيئة إرادة الحق سبحانه، وهي صفة قديمة اتَّصفت بها ذاته، كعلمه وقدرته وكلامه وسائر صفاته، ويسمَّى متعلقها المراد، فمن تعلَّقت بهدايته إرادة الحق أزلاً، تيسرت أسبابه وطوى الطريق، وحمل على

الجادة والمحجة البيضاء، ووُهب سرُ تدبير نفسه، وحبَّبَ إليه كل شيء، ونعم به، ولا يمقت إلاً ما مقته شرع اللّه تعالى أدباً شرعياً، وهذه حالة المراد وهي المُعَبر عنها بالعناية ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: 2] مطلع هلاله:

أنـا إن شـئـت مـنـك وإلاً	أنـا إن شـئـت شـاء مـن لا يـشـاءُ
عـجباً شئت والـمشيئة غيري	ثـم إن لـم أشـأ فـلـسـت تـشـاءُ
بـل أنـا صـاحـب المشيئة فاعلم	ومـشـيء بـهـا وذاك الـمـشـاءُ
كـيف شـاءت مشيئة المتلاشي	ولـهـا الـحـكـم أن يـشـاء الـقـضـاءُ
يـمشي الـمشي تـنار فـأبدت	كـل شـيء يـصـح فـيـه الـمـشاءُ
كـل مـن شـاء بـالـوجـود يـشـاء	ولـه الـمـجـد في الـعـلا والـثـنـاءُ
عـدم شـاءت والـوجـود بـصـيـر	عـمـيـت عـيـن كـل مـن لا يـشـاءُ

موقع نجم المراد والمريد سببان على الحقيقة، في تعلق إرادة الحقِّ بهدايتهما، غير أن المراد سالك الطريق بالتنعم والمشاهدة متلذذاً بأفعاله، نشيط النفس بالقيام بحق الأجانب، وبحدود سيده يتنعم بالبلاء، تنعُم الأجانب بالنعماء. والمريد يسلك الطريق بالمجاهدة الشاقة والمكابدة والتنغيص، يحمل السالك على نفسه القيام بحدوده، ويصبر على البلاء، رجاء حصول النعماء، فكم بين نفس تحملك على الطاعة، لالتذاذها بجذب الحق لها في غيبه، وبين نفس تحملها على الطاعة بغاية الجهد والكدِّ، وهي تروغ عنها روغان الثعلب، فصاحبها في مجاهدة لا يفتر. مطلع هلاله:

إن الـمـراد مـع الـمـريـد مـطـالـب	بـدلائـل الـتـحـقـيـق فـي دعـواهـمـا
فـإذا جـهـلـت الأمـر فـي حـالـيـهـمـا	فـدلـيـل مـا قـالـوه فـي تـقـواهـمـا

موقع نجم التقوى؛ كل عمل يقيك من النار، وإذا وقاك من النار، وقاك من الحجاب، شاهدت العزيز الوهَّاب مطلع هلاله:

مـن اتـقـى الـكـون فـذاك الـذي	قـد سـاء ظـنـاً بـالـذي أوجـدَهُ
فـمـن يـشـاهـد مـا رمـزنـا لـه	فـلـيـتـقِّ الـلَّـه الـذي أشـهـدَهُ

موقع نجم الموجد؛ إذا اعترض أهلكته الحقيقة، وإذا سلَّم أهلكه

الأدب، فلا يزال هالكاً ما دام في الدنيا، ولكن إذا كان ولا بدَّ فهلاك الحقيقة. نجاة، وهلاك الأدب هلاك، فكن ذا أدب تفز بالسعادتين. مطلع هلاله:

لا تعترض فعله إن كنت ذا أدب	واضمم إليك جناحيك من الرهبِ
وسلَّم الأمر ما لم تُبدِ فاحشة	فإن بدت فاحذر التدريج في الأدبِ
ولا تغرنَّك أرواح محيَّرة	من عند ربك إن السَّلم كالحربِ
إن الذي قال إن الفعل مصدره	من قدرتي ذمه كالشرك والكذبِ
فاهرب إلى فعله من فعله فإذا	ما غبت عن فعله فاحذر من السلبِ

موقع نجم الخلاف بين أهل الحقائق والكشف، والوصول غير جائز عليهم، وهو جائز على السالكين، والمخالفة إنما تقع أبداً من الأدنى فالأدنى، ومثله في السالكين، أنهم يسلكون على طريق واحد عيني، يفتقرون فيه إلى نور يسعى بين أيديهم، ليروا حيث يجعلوا أقدامهم، وما يبدو لهم في طريقهم، وذلك النور هو التخلُّق على طبقاته، فمنهم من صاحب شمعةً، ومنهم من صاحب كوكباً، ومنهم من صاحب قمراً، ومنهم من صاحب بدراً، وصاحب شمساً.

فعلى قدَر نور كل واحد، يكون كشفه لما يكون في طريقه، فقد يقول من سلك بنور القمر، رأيت في طريقي كذا وكذا، على قدَر ما كشفت له نوره. فيقول له صاحب السراج: قد دخلتَ ذلك الطريق، وما رأيت شيئاً مما ذكرت إلاَّ بعضه، فلو تناصف صاحب السراج معه لقال له: بمَ دخلته؟ فإذا قال بالقمر، اعترف بكماله عليه، وقال: أنا صاحب سراج فكشفت على قدر نوري.

والشيوخ رضيَ اللَّه عنهم مكمَّلون في مقاماتهم الذوقية، ومكمَّلون في مكاشفاتهم الغيبية، فهم يسلِّمون لمن فوقهم على الكشف في دعواه، فإذا سمعت بينهم خلافاً فابحث عليه، تجده في اللفظ والمعاني متحقّقة، ليس فيها خلاف منهم. مثال ذلك: مسألة تداولت بينهم، فظهر فيها خلاف عنهم كثير وليس بخلاف، وهي بين العلم والمعرفة فقال بعضهم: العالم فوق العارف. وقال بعضهم: العارف فوق العالم.

فاترك هذا اللفظ، وانظر إلى المعاني التي قامت بالشخص سمَّاها هذا عارفاً، تجدها بعينها هي، التي سمَّاها هذا الآخر علماً، والمتَّصف بها عالماً، فاختلفا في التسمية لا في المعاني.

وكذلك مسألة الحال؛ منهم من قال بدوامها، ومنهم من يمنع من ذلك، وهكذا رضيَ اللَّه عنهم، جميع ما ينسب إليهم من الخلاف على هذا الحد، وذلك أن مقامهم يُعطي ذلك، إذ هم أهل الجمع والرحمة الاختصاصية. قال اللَّه تعالى في الأجانب: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: 118]. ثم استثنى هذه العصابة الكريمة بقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: 119]. يعني كل ميسَّر لما خلقَ له الحديث مطلع هلاله:

كيف يكون الخلاف في بشرٍ تميَّزوا في العلا عن البشرِ
فهم ذووا رحمة على نظر مسدد في تخالف الصورِ
ونقمة لا تزال تصحبهم ليسوا ذوي رتبةٍ ولا نظرِ

موقع نجم ترجيح الشيوخ بعضهم على بعض، حرام على التلامذة، والذي يؤدي إلى هذا الفضول قلة الشغل بما يعني، وتضييع الوقت، فلو وقف عند قوله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه». فالمريد إذا لم يشتغل بنفسه عن غيره، فهو في إرادته مخدوع، والعالم، إذا لم ينعدم فهو في علمه مخدوع، والحكيم إذا لم يترتَّب، فهو في حكمته مخدوع مطلع هلاله:

من يشتغل بالذي قد ألزمه في وقته ربه فليس هناك
فذاك أنه مدَّعٍ بحالته يمقت أضداده وليس بذاك

موقع نجم الحزن حليَّة الأدباء، فرضي اللَّه عن المحزون، فليتني أرى من رأى محزوناً، يا أيها المحزون طوبى لك ثم طوبى لك، واللَّه أنت السعيد أنت. واللَّه صاحب التحقيق، وأنت واللَّه خليل الصدِّيق، ليت اللَّه يمنُّ عليَّ به من خزائن جوده، للحزن مخازن لا يُعطى منها شيئاً إلاَّ لصديق مجتبى، الحزين عارف بقدره الحزين، هو العارف الحزين، هو الوارث الحزين، سرُّ اللَّه في أرضه الحزن، إذا فُقد من القلب خرب، يا مخدوع تظنُّ

أنك في الحاصل وأنت في الفائت، يا مسكين مثلي، ألست تعلم أن الذي فاتك أكثر مما حصل لك، فبأيِّ شيء تفرح؟

صاحب الأمن والبشرى في هذه الدار، يحزن على التقصير في شكر هذه النعمة، مع أنه يرى توالي الحق في نفسه، شكره وهو عري عن ذلك، ناظر بعين التوحيد والأدب، أنت أنت وهو هو، وإذا كان صاحب الأمن بهذه الحالة، فما ظنك بالخائف، الذي لا يعرف على ما يقدم، طوبى لمن كان شعاره الخوف، طوبى لمن كان دثاره الحزن، وطعامه الحزن، وشرابه الحزن يلتذُّ الصدِّيقون والنبيُّون.

الحزن جماع الخير كله، إذا أحب اللَّه عبداً، ألقى له نائحته في قلبه. من لم يذق طعم الحزن، لم يذق طعم العبادة على أنواعها، فلا يغرنك يا بني، ما تسمع من قول صديق متمكن، أنّ الحزن مقام نازل، فليس يريد رضيَ اللَّه عنه صاحب التحقيق، ما يتخيله بعض المتكلفين على الطريقة، فإن الحزن تابع للمحزون، مثل العلم تابع للمعلوم، فيتضع باتضاعه، ويرتفع بارتفاعه. . حبك إقامتك الحق في أعلى المقامات، التي ينتهي إليها أعلى الموجودات. هل فاتك شيء أم لا؟ إما من جهة احترامها لعلوها، أو من جهة أخرى فوق هذا لست تجد الحزن، إن كنت مكمَّلاً غير محجوب بمشاهدتك، وإن حجبك ذلك المقام، فأنت ذا نقص، فليت اللَّه يمنُّ على قلبي بلطيف الحزن، ودقيق الشجو، إنه سميع مجيد مطلع هلاله:

حـــزن الـــفـــؤاد أدبـــه	وديـــنـــه ومـــذهـــبـــهُ
إن جـــئـــتـــه وجـــدتـــه	أمـــراً عـــســـيـــراً مـــركـــبـــهُ
وكـــل مـــن يـــشـــغـــلـــه	مـــقـــامـــه لا يـــطـــلـــبـــهُ

فصول الوصية السنية

الصحبة نتيجة البسط، ولا يقوى عليها إلاَّ الأقوياء من الرجال، الذين لا تغرَّهم الأحوال، وحدّها، أن لا يقبل من صاحبه، إلاَّ ما يقبل منه ربّه تعالى، فإن لم يفعل فقد خانه في الصحبة، فإن شرطها النصيحة، وأدبها كفُّ جفاك عن خليلك وتحمّل جفائه.

ولها مراتب بحسب الأحوال، فإن كان فوقك فاصحبه بالحرمة، وإن كان كفؤك فاصحبه بالوفاء، وإن كان دونك فاصحبه بالرحمة، وإن كان عالماً فاصحبه بالخدمة والتعظيم، وإن كان جاهلاً فاصحبه بالسياسة، وإن كان غنياً فاصحبه بالزهد، وإن كان فقيراً فاصحبه بالجود، وإن صاحبت صوفياً فاصحبه بالتسليم.

واعلم أن صحبة الجليل سبحانه وتعالى، أولى من صحبة الخليل، فإن الجليل يحفظك، والخليل تحفظه، الجليل يعطيك والخليل تعطيه، الجليل يحملك والخليل تحمله، الجليل يتولاَّك والخليل تتولاه، الجليل يكون لك حيث تريد، والخليل تكون له حيث يريد.

وعلامة من آثر صحبة مولاه، أن لا يأنس بسواه، وأن يقف عند ما أمره ونهاه، وأن يعامل الخَلق برحماه، وأن يوالي من والاه ويعادي من عاداه، ولو كان ابنه وأباه ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: 22]:

من صاحب الحقَّ لا يبالي ... من ذلة المنع والسؤالِ
من طعم الهجر في هواه ... أذاقه لذة الوصالِ

فصل
من الحكمة

توقير الكبير، ورحمة الصغير، ومخاطبة الناس باللين، وإذا لقيت أحداً فالقه بالبشاشة، وإن لم تقدر عليها فالقه بما تدوم عليه من الخير، لا تتغير أحوالك في التقصير بطول المجالسة، فيتغير عليك فربما يؤذيك فاحذر.

فصل

أنصت لحديث الجليس ما لم يكن هجراً فانصحه في اللّه تعالى، إن علمت منه القبول بألطف النصح، وإلاَّ فاعتذر في الانفصال، وإن كان ما جاء به حسناً، فحسن الاستماع، ولا تقطع عليه حديثه، واشخص بالنظر إليه ما

دام محدِّثاً لك، وإن كان ما يأتي به ليس بعظيم الفائدة، فإنّ لكل أحد عند نفسه قدراً، خرج عقلك بأدب كل زمان.

فصل

عليك بالتواضع، واعلم أنه سرٌّ من أسرار اللّه تعالى المخزونة عنده، الذي لا يهبه على الكمال إلاّ لنبي أو صدّيق، فليس كل تواضع تواضعاً، وهو من أعلى مقامات الطريق، وآخر مقام ينتهي إليه رجال اللّه، وحقيقته العلم بعبودية النفس، ولا يصح مع العبودية رياسة أصلاً. ولهذا قال شيخ المشايخ رضيَ اللّه عنهم: آخر ما يخرج من قلوب الصدِّيقين حب الرياسة، ولا تكون إلاّ مع الجهل.

وقال عيسى عليه السلام لأصحابه: أين تنبت الحبة؟ قالوا: في الأرض. فقال عليه السلام: كذلك الحكمة لا تنبت إلاّ في قلب مثل الأرض، يشير إلى التواضع. وإلى هذه الإشارة أشار سيد البشر ﷺ بقوله ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه. والينابيع لا تكون إلاّ في الأرض، وهو موضع نبع الماء، ولا تظنُّ أن هذا التواضع الظاهر على أكثر الناس، وعلى بعض الصالحين تواضعاً فليس بتواضع، وإنما هو تملّق لسبب غاب عنك، وكلٌّ يتملّق على قدر مطلوبه والمطلوب منه، والتواضع شريف لا يُتصوَّر من كل أحد، فإنه موقوف على صاحب التمكين في العلم، والتحقّق في التخلُّق.

فصل

وعليك بالزهد فإنها صفة شريفة، إذا قامت بشخص على الكمال، حالت بينه وبين رؤية الأكوان، وشرطه أن لا يحنّ إلى ما زهد فيه، وأدبه أن لا يذمّ المزهود فيه، لكونه من جملة أفعال اللّه تعالى، وليشغل نفسه عن زهده من أجله، فإنه إذا اشتغل بذلك تولاّه اللّه الحق، بالحضور معه في بساط الأنس به، في كل ما يطرأ من تفاصيل الكون. وقد يختبر يوماً، ليعرف بمنَّة اللّه تعالى عليه في توليه إياه، أخذه مما يتنافس فيه القلب المحجوب

ويأنس، فإذا لم يلتفت لذلك الأمر العارض، عرف حينئذٍ منَّة اللَّه تعالى عليه وعنايته به، فيزيد شكراً ورغبةً عما زهد فيه.

فصل

لا تلق أحداً إلاً بما ينشطه إليك، ووازنه في عقله تأمنه. قال بعض الحكماء: عاشروا الناس معاشرة؛ إن متم بكوا عليكم، وإن غبتم حنُّوا إليكم.

فصل

ليس في المذاهب أشرف من مذهبك لتعلقك باللَّه تعالى، فلا تنتم لمذهب أحد سواه، فإنه أشرف المذاهب، واستمر على حالتك، والزم الاعتدال فإنه طريق الرجال.

فصل

الوقت هدية اللَّه إليك، فخذ فائدته وهو راجع إليه راحل عنك، فزيِّنه بالتقوى والعمل الصالح وإلاً كان حسرة عليك، إذا فاز غيرك به فاسمع، لا يحجبنك مدح المادح لك عن معرفتك لنفسك، السياسة رأس الحكمة فالزمها.

فصل

لا تصاحب أحداً إلاً من ترى معه الزيادة في دينك، فإن نقص منه، فاهرب منه كهروبك من الأسد بل أشدَّ فإن الأسد يهدم دنياك فيعطيك الدرجات، والقرين السوء يحرمك الدنيا والآخرة، والورع في النطق من الحكمة: وهل يكبُّ الناس على مناخرهم في النار إلاً حصائد ألسنتهم.

فصل

لا تجلس في طريق المسلمين، فإن اضطررت وغلبتك النفس فغضّ البصر، وارشد الضال، وأعنِ الضعيف، وكفّ الأذى، وردّ السلام، ولا

تقعد وأنت تقابل بيت أخيك، وتورَّع في مشيك على الطريق وقعودك، وذلك أن لا تمسك من الطريق إلاَّ قدر ذاتك، ووسّع على الناس طريقهم، فإنه ليس لك إلاَّ موضع قدميك إن كنت واقفاً. ولقد حدثني أبو عبد اللّٰه بن عبد الكريم أن بعض المتورّعين أتى بقلّتين، فأوقفه بعض الناس في كلام طويل، فأقعد القلّتين على وجه رجليه.

فصل

احترام الشيوخ واجب، واحترامهم أن لا يلبس ثيابهم، ولا يقعد في مكانهم، ولا ينكح المريد امرأة شيخ إن طلّقها أو مات عنها، ولا يردّ في وجوههم كلاماً، ويبادر لامتثال ما يقولونه، ومن احترامهم تعظيم من عظّموه، فعظّم من عظّمه شيخك وتلمذ له إن قدمه عليك، وإن كنت أعلم منه، فإن الشيخ أعلم بالمصلحة لك منك، ولا يحجبنك ما ترى من نقصه، عن تقديم الشيخ له عليك وتقريبه.

فصل

إذا رأيت المساجد فلا تأتها إلاَّ بنية احترامها ورفعها، وقدّم اليمين في الدخول وأَخّر اليسار، وقدِّم اليسار في الخروج، واركع عند دخولك ركعتين، وإن استطعت أن تكون أول داخل وآخر خارج فافعل، وإذا سلَّمت، فسلِّم على كل عبد صالح في السماء والأرض من ذلك المقام، يردُّ عليك، ولا تقل هجراً ولا فحشاً، ولا تدخلها للنوم ولا للراحة، إن كان لك عوض منه، فإن اتخذته بيتك، وليس لك سواه فلا بأس.

فصل

كما يحرَّم عليك في صلاتك التوجه لغير القبلة إذا عرفتها، وإن فعلت بطلت صلاتك، كذلك يُحرَّم عليك التوجّه بقلبك لغير اللّٰه تعالى، من دار، وأهل، ودكان، ومال. وكما يُحرَّم عليك أن تتلو غير كلام اللّٰه تعالى، كذلك يحرَّم عليك أن تناجي في قلبك غيره، أو تشاهد أمثال هذا. فالزم الأدب، فإنه لا يقبل لك من صلاتك إلاَّ ما عقلت.

فصل

العاقل كلامه وراء قلبه، فإذا أراد أن يتكلم به أمرَّه على قلبه، فينظر فيه، فإذا كان له أمضاه، وإن كان عليه أمسك. والأحمق كلامه على طرف لسانه، وعقله في حجره، إذا قام سقط. رُوي عن مالك بن أنس رضيَ اللّه عنه أنه قال: من عدّ كلامه من عمله، قلَّ كلامه. التزم أربعة: الدعاء للمسلمين بظهر الغيب، وسلامة الصدر، وخدمة الفقراء، وكن مع كل أحد على نفسك.

فصل

الورع رأس الدين، وهو من صفات المحقّقين. قال بعض الصوفية: ما رأيت عليّ أسهل من الورع، كل ما حاك في نفسي تركته أشار إلى الزهد. الإرادة: ترك الإرادة رؤية التوكل نقص التسليم. . السخي من تسخَّى بنفسه على العلم. . النفس هدية العبد إلى اللّه تعالى:

من ظنَّ أن طريق أرباب العلى ... قول فجهل حائل وتعذُّر
إن السبيل إلى الإله عناية ... منه بمن قد شاءه ويقدر
لا يرتضي تحقيقه ذو غيرة ... إلاَّ إذا ضمَّ السنابل بيدرِ
الحال يطلبه بسرّ مقامه ... فمن ادعاه فحاله لك يشهرُ
يتخيَّل المسكين أن علومها ... ما بين أوراق الكتاب تسطر
هيهات بل ما أودعوا في كتبهم ... إلاَّ يسيراً من أمور تعسر
لا يقرأ الأقوام غير نفوسهم ... في حالهم مع ربهم هل تحضر
فترى الدخيل يقيس فيه برأيه ... ليُقال هذا منهم فيكبر
وتناقضت أقواله إذ لم تكن ... عن حاله فيما تقدم تخبر
علم الطريقة لا ينال براحة ... ومقايس فاجهد لعلك تظفر
عزَّت علوم القوم عن إدراك من ... لم تعتريه صبابة ويخير
وتنفس مما يجن وأنة ... وجوى يزيد وعبرة لا تفتر
وبذلّة وتوله في غيبه ... وتلذذ بمشاهد لا تظهر
وتيقظ عند الشهود وغيره ... أن قام شخص بالشريعة يسخر

وتخشُّع وتفجُّع وتسَّرع … بتشرُّع لِلَّه لا يتغير
هذا مقام القوم أو حالاتهم … ليسوا كمن قال الشريعة مزجر
ثم ادّعى أن الحقيقة خالفت … ما الشرع جاء به ولكن يستر
تباً لها من قالةٍ من جاحدٍ … ويل له يوم الجحيم يسعر
أو من يشاهد في المساجد مطرقاً … ليقال هذا عابد يتفكر
هذا امرؤ لا يستلذُّ براحة … في نفسه إلاَّ سويعة ينظر
لكنه من ذاك أسعد حاله … وله النعيم أو الجهول يقطر

مواقع النجوم الفرقانية

ختمنا بها الكتاب تبرُّكاً وتيمناً بكلام الحق عزَّ وجلَّ، وصيّته لعباده في محكم تنزيله.

فاسعَ يا بني جهدك في الوقوف؛ عندما وصَّاك بها الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، تكنْ من السعداء في الدارين ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: 23 ـ 37]، ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [ص: 26]، و﴿ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ ﴾ [القصص: 76، 77]، ﴿ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

[الشعراء: 183]، ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ [لقمان: 18، 19] ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام: 153]، ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت: 46] ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة: 83]، ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ [لقمان: 17]، ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ [النساء: 107]، ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [الكهف: 28، 29]، ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴾ [الزمر: 14]، ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [الفرقان: 57]، ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: 199]، ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ [الزمر: 54]، و﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾ [العنكبوت: 16]، ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾[الحج: 78]، ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [آل عمران: 103]، ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [آل عمران: 133]، ﴿ لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ﴾[آل عمران: 130]، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ [البقرة: 168]، ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: 19]، ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: 72]، ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [النجم: 32]، ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء: 36]، ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ ﴾ [النساء: 135]، ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ ﴾ [الأنفال: 47]، ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾ [النساء: 5]، ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ الآية [النساء: 131] إلى أمثال هذه الآيات الواقعة في القرآن التي أوصى الله تعالى بها عباده، وأوضح لهم بها السبيل الموصل إليه.

قال العبد الفقير إلى اللَّه وإلى رحمة ربه: انتهى الإلقاء الإلهي والإلهام الرباني الروحاني، وقد علم كل قلب مشربه، وأخذ كل سرٍّ مطلبه، ووصلت الأعضاء بالإنضاء، إلى حضرة التقريب والارتضاء، من غير تناهٍ ولا انقضاء.

وصلّى اللَّه على السيد الطاهر المعصوم محمد بن عبد اللَّه بن عبد المطلب الدرّة البيضاء موصلنا إلى نيل هذه المقامات العليّة القدسية، بالتسليم والتفويض لموارد القضاء. والحمد للّه رب العالمين.